غـاية التاريخ

فلسفة للتاريخ من خلال منظور إسلامي

دكتور

السيد محمد عبد الرحمن

الطبعة الأولى

٢٠٠٤م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطّباعة والشر

تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية



غـــاية التاريـخ

فلسفة للتاريخ من خلال منظور إسلامي

الناشـــــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنـــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفــــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Websitc

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب: غاية التاريخ - فلسفة للتاريخ من خلال منظور إسلامي

المؤلـــــف: د. السيد محمد عبد الرحمن

رقــم الإيـداع: ٢٠٠٣/٧٩٣٧

الترقيم الدولى: x - 344 - 327 - 977



بسم الله الرحمن الرحيم

" ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا "

بسم الله الرحمن الرحيم

" ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا "

الإهـــــــداء

الـى
أصحاب الغايات
العظمى

المقدمـــــــة :

إن حركة التاريخ البشرى –منذ أن خلق الله آدم وحتى وفاة آخر إنسان على هـــذه الأرض –عبارة عن أحداث متصلة ومترا بطة ، وهي في اتصالها وترابطها إنما تؤكد وحدة التاريخ وتما سكة وترابطه وهذه الوحدة أو هذا التماسك أو الترابط التاريخي يمثـــل أن التاريخ ينطلق من نقطة ويتجه إلى غاية ([1]) ، وهو في حركته صوب غايته يحكم بسنن ربانية عامة لا تتخلف

أما نقطة الانطلاق فهناك في الجنة منذ أن خلق آدم عليه السلام وجعل منه زوجـــه ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا كلهم وتخلف إبليس تخلف عصيان وتمـــرد فكـــان الجزاء أن طرده الله من الجنة التي لا ينبغي لا حدان يعصى الله سبحانه فيها . منـــذ تلـــك اللحظة امتلأ قلب الشيطان حقداً على آدم ، وحدد له غاية معلنة واضحة وهي إضـــلال آدم وذريته ، وقد نجح إبليس ألي حد ما منذ أن استطاع إخراج آدم من الجنة ، ولكن لان خطا آدم اصله النسيان لا الإصرار غفر الله له وأمره بالمضي في طريق الله واتباع كلمة الله حتى الموت وذلك إذا أراد أن يعود ثانية ألي الجنة التي اخرج منها .

والنفس محور الصراع ، فهي ارض تصلح أن يزرع فيها شجرة الإيمان أو شجرة الكفر إذ بها نازعتان إحداهما خيرة تروى شجرة الإيمان ، والثانية شريرة تروي شجرة الكفـــر ، وفي الحالة الأولي يكون الإنسان خيراً ، وفي الثانية يكون شريراً . وإيمان الإنسان أو كفـــره بمبدأ ما يفرض عليه سلوكاً معيناً في حركته وحياته فيلتقي سلوك الأخيار مكونين حزب الله ، ويعارضهم سلوك الأشرار مكونين حزب الشيطان

إذن العلاقة بين آدم – والمؤمنين من ذريته بكلمة الله – وبين الشيطان علاقة صـــراع ، يريد أدم والرسل من بعده أن يتجهوا بالبشرية في طريق الله ، ويريد الشـــيطان أن يتجـــه بالبشرية في طريقه ، طريق الغواية والضلال ، يرسل الله مع رسله كلمته التي تبين للبشـــرية طريقهم وهدايتهم في حركتهم نحو الآخرة ، ويعمل الشيطان على محو هذه الكلمـــة مـــن الصدور بحض اتباعه على تحريفها أو إخفائها أو إهمالها .

---

(١)غاية الشيء نهايته ، قال الرازي : الغاية : مدى الشيء [مختصر الصحاح ، ص٤٨٨]

وهكذا تتضح طبيعة الصراع ، انه صراع " مبادئ ". يرسل الله الرسل ألي الأمم – كل إلى أمته – فيؤمن به فريق ويكفر أخر ، ويدور بين الفريقين صراع ، ينتهي حتماً بانتصار حزب الحق ، ويظل الناس في نعيم الحق فترة طويلة من الزمن ، ويتحين الشيطان الوقت الذي يضعف فيه أيمانهم فيتسلل ألي نفوسهم يزين لهم الباطل ولا يزال بهم حتى ينحرفوا تماما عن عقيدتهم . ويتكرر هذا الأمر في صورة أحداث تاريخية متتالية حتى ينتهي بالحدث الكبير الأخير في التاريخ البشري وهو الحدث الإسلامي ، والذي بانتهائه يأتي اليوم الآخر ، ويدخل حزب الله الجنة ويدخل حزب الشيطان النار ، وعندئذ يصل التاريخ البشرى ألي غايته .

وحزب الله حزب واحد عبر التاريخ ، فالله واحد يتصف بكل صفات الكمال ، وهذه عقيدة الرسالات جميعا ، والأنبياء اخوة ومصدر رسالتهم واحد ، ودينهم واحد وهو الإسلام . قال تعالى :{ هو سماكم المسلمين من قبل}[الحج/ ٧٨] . وكل نبي لبنة في صرح البناء العظيم لحزب الله عبر التاريخ ، قال صلى الله عليه وسلم :" إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين "([١]) . فمصدر رسالة حزب الله واحد وهو الله ، وكل ما كان مستمد من غير الله هو ضمن حزب الشيطان [وثنية - بوذية - مزدكية - شيوعية - علمانية - رأسمالية ... الخ].

اكمل النبي صلى الله عليه وسلم بناء الإسلام العظيم عبر التاريخ ، وأقام -واتباعه من بعده – دولة عالمية حكمت العالم وأخضعت حزب الشيطان ، وأرغمته على دفع الجزية قروناً طويلة . ولكن حزب الله تخلف عن عقيدته ومال إلي أهوائه ، فوقعت الخلافة العظمى

---

(١) مسلم (كتاب المناقب ، رقم : ٣٢٧١ ، رواه مسلم عن قتيبة بن سعيد عن إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة ، كلهم ثقاة وأبي هريرة رتبته أعلى مراتب العدالة لأنه من الصحابة) ، مسلم (كتاب الفضائل ، رقم : ٤٢٣٧ ، ٤٢٣٨ ، ٤٢٣٩) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٧٠٢٠ ، ٧١٧٣ ، ٧٧٦٨ ، ٨٨٠٢) الترمذي (٥/ ٨٦) ، فتح الباري (٦ / ٥٥٨) .

بين معاول الهدم الخارجي من حزب الشيطان ، ومعاول الهدم الداخلي ، فكان حتما مقضيا أن تسقط دولة الإسلام فسقطت .

وقد عمد الاستعمار وأعوانه – منذ ذلك الحين – إلى زرع روح الهزيمة واليـــأس – في قلوب المسلمين – من عودة الإسلام إلى حكم العالم من جديد ، مؤكدون – مـــن خـــلال المبشرين والمستشرقين وتلاميذهم – أن الحكم الإسلامي ما هو إلا مرحلة تاريخية ولت ولن تعود لان التاريخ لا يعود إلى الوراء .

فهل يصدق كلام الغرب هذا ؟ أم أن للإسلام رؤية أخرى لحركة التاريخ ؟ . هذا مـا سنبينه في كتابنا [illegible]

د/ السيد محمد عبد الرحمن

الباب الأول

[من النفس إلى المجتمع]

الفصل الأول : مراحل التاريخ من خلال منظور إسلامي .

الفصل الثاني : الصراع من النفس الى المجتمع .

الفصل الثالث : سنن التاريخ وعناصره .

الفصل الرابع : المبدأ وحركة التاريخ .

الفصل الأول

[مراحل التاريخ من خلال منظور إسلامي]

لقد وعى الإسلام التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله جيداً ، ويبدوا هذا واضحاً في القرآن ، كما يبدوا واضحا في السنة ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : " لقد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما ترك فيها شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره علمه من علمه وجهله من جهله إن كنت لأرى الشيء قد نسيت فأعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه"([1]) . ولهذا فقد أصاب " ولفرد كانتويل سميث " عندما قال : " إن العلاقة بين الإسلام والتاريخ علاقة وثيقة ، فالإسلام كعملية متطورة هو النقطة المتحركة داخل التاريخ والتي منها ينفذ المسلم إلى التاريخ ليصل إلى أخرته "([2]).وعليه فقد قسم الإسلام التاريخ البشري إلى قسمين كبيرين :

أحدهما : ما قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم . ويشمل القسم الماضي من التاريخ ، وهذا القسم قد قسم أيضا إلى عدة مراحل أو فترات تاريخية بحسب النبي الذي يرسل في هذه الفترة أو تلك أهمها العصور الآتية : "عصر أدم- عصر نوح - عصر إبراهيم - عصر موسى - عصر عيسى - ... ".

والثاني : وهو الذي يبدأ ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشمل الحاضر والمستقبل ، وفي هذا الصدد ترك النبي صلى الله عليه وسلم كماً هائلاً من الأحاديث التي تتناول أمور المستقبل ، ولكنه لم يوجد من يصنف هذه الأحاديث تصنيفا جيدا يتفق وفتراتها التاريخية المناسبة ، بل وضعوها كلها في باب الفتن والملاحم ، فاختلط علي الناس فترات الفتن بالفترات العظيمة التي سيحكم فيها الإسلام العالم ، ولذلك وجد في زماننا هذا من يستشهد على فتراتنا التاريخية هذه بحديث لا ينتمي إليها وإنما ينتمي إلى فترة تاريخية أخرى ، كالأحاديث التي تأمرنا بان نعتزل الناس عند الفتن وان نعض بجزع نخلة حتى يأتينا الموت ، وهذا- -كما قلت- خلط واضح لا خروج منه إلا بالقراءة التاريخية الصحيحة

---

(١)البخاري (كتاب القدر ، رقم: ٦١١٤) ، مسلم (كتاب الفتن واشراط الساعة ، رقم : ٥١٤٧) ، أبو داود (كتاب الفتن والملاحم ، رقم : ٣٧٠٢) ، احمد (كتاب باقي مسند الأنصار : رقم : ٢٢١٨٧ ، ٢٢١٩٤ ، ٢٢٢٢٠ ، ٢٢٣١٥) .

(٢) ولفرد كانتويل سميث : الإسلام في التاريخ الحديث ، سلسلة كتب سياسية ، الكتاب رقم (١٦٣) ، ص ١٠٤

للأحاديث ، تلك القراءة التي تقوم علي تحديد فترات التاريخ المستقبلة - انطلاقا من القران والسنة - ووصف كل فترة بصفاتها التي وردت في الأحاديث الشريفة أو الآيات القرآنية ، ومن هذا المنطلق يمكن تقسيم التاريخ الإسلامي منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وحتى قيام الساعة إلى الفترات الآتية :

(*) قال صلى الله عليه وسلم : " الخلافة ثلاثون عاما ثم تكون بعد ذلك ملكا "(1).

ويتضمن هذا الحديث الشريف الإشارة إلى مراحل ثلاثة هي :

أولا : " مرحلة النبوة " :خير مراحل التاريخ البشري على الإطلاق.

ثانيا: " مرحلة الخلافة الراشدة " : وهى ثلاثون سنة وقد اشتملت هذه الثلاثون سنة على خلافة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان الشهيد وعلي بن أبي طالب الشهيد أيضا وكان ختامها وتمامها بستة اشهر وليها الحسن بن على بعد أبيه وعند تمام الثلاثين نزل عن الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وأُصفقت(2) البيعة لمعاوية بن أبي سفيان وسمى ذلك عام الجماعة(3).

ثالثا : " مرحلة الحكم الملكي " : وتتضمن (الحكم الأموي - الحكم العباسي - الحكم العثماني) ،كما يدخل في هذه المرحلة حكم الأُسر والطوائف التي انتشرت في ربوع العالم الإسلامي وخاصة في العصر العباسي الثاني .

(*) ثم تعدى الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المراحل بالإشارة إلى :

رابعا : "مرحلة تداعى الأمم على أمة الإسلام " : قال صلى الله عليه وسلم : "يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الآكلة على قصعتها . قال قلنا :يا رسول الله

---

(١) رواه احمد (كتاب مسند الأنصار ، رقم : رقم : ٢٠٩١٠ ، راوه احمد عن بهز عن حماد بن سلمة عن سعيد بن جُمهان عن سفينة ، كلهم ثقاة وسفينة في أعلى مراتب العدالة والتوثيق لأنه صحابي) ، احمد (كتاب مسند الأنصار ، رقم : ٢٠٩١٨) الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٥٢) ، أبو داود (كتاب السنة ، رقم : ٤٠٢٨ ، ٤٠٢٩) ، الطحاوي في مشكل الآثار (٤- ٣١٣) ، ابن حبان في صحيحه (١٥٣٤ -١٥٣٥) ، ابن عاصم في السنة (ق١١٤ - ٢) الحاكم في المستدرك (٣ -٧١ - ١١٤٥) ، الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ط المكتب الإسلامي (رقم ٤٦) .

(٢) أي تمت البيعة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

(٣) ابن كثير : النهاية في الفتن والملاحم ، ص ١٦-١٧.

أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : قال انتم يومئذ كثير ولكن تكونوا غثاء كغثاء السيل ، يُنـــتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن ، قال قلنا : وما الوهن ؟ قال : حـــب الحياة وكراهية الموت "(١).

ولقد وضعت هذه المرحلة بعد سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية لأنها الفـــترة الـــتي تداعت فيها الأمم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بطريقة لم يسبق لها مثيل جعلت أمم الغرب النصراني تتسابق وتتصارع علي استعمار الأراضي الإسلامية ونهب ثرواتها حيث لا خلافة ولا دولة تدافع عن ديار المسلمين وتحمى مقدساتهم وأعراضهم .

(*) ثم تعدى الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المراحل الأربعة السالفة الذكر- في حديث آخر – فقال : " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعـــها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعـــها ، ثم يكون ملكا عاضا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكـــون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة علي منهاج النبوة ، ثم سكت "(٢) .

وتتضمن هذه الإشارة النبوية الشريفة مرحلتين أخرتين وهما :
خامساً : " مرحلة الملك (أو الحكم) الجبري " : وهي الفترة التي نعيشها الآن.

---

(١) احمد (كتاب باقي مسند الأنصار ، رقم : ٢١٣٦٢ ، رواه احمد عن أبي نصر عن المبارك بن فضالـــة عن مرزوق ابي عبد الله الحمصي عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان ، رجاله كلهم ثقـــاة وثوبـــان في أعلـــى مراتب العدالة والتوثيق لأنه صحابي) ، أبو داود (كتاب الملاحم رقم : ٣٧٤٥).

(٢)احمد (كتاب أول مسند الكوفيين ، رقم : ١٧٦٨٠ ، رواه احمد عن سليمان بن داود الطيالسي عـــن أبي داود بن إبراهيم الواسطي عن حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير عن حذيفة ، كلهم ثقاة والنعمـــان بن بشير وحذيفة بن اليمان في أعلى مراتب العدالة والتوثيق) ، مجمع الزوائد للـــهيثمي (٥ : ١٨٨) ، مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٣٧٨) ، منحة المعبود للساعاتي (٢٥٩٣) ، السلسلة الصحيحة للألباني (٥) .

سادساً: "مرحلة الخلافة التي تسير على منهاج النبوة ": ونحن الآن علي أعتاب هذه المرحلة ، حيث ظهرت إرهاصاتها في جميع مناحي الحياة في كافة أنحاء العالم الإسلامي .

(*) ثم تتكرر من الرسول صلى الله عليه الإشارة الي مراحل أخرى بصفاتها أو بأفرادها ، مثل :

سابعاً : " عصر الفتن الكبرى " : قال صلى الله عليه وسلم : " انه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقا علي الله أن يُدل أمته علي خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم وان أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها وسيصيب أخرها بلاءٌ وأمور تنكرونها وتجئُ فتنة يرفق بعضها بعضا ، وتجئ الفتن فيقول المؤمن هذه مُهلكتي ثم تنكشف وتجيءُ فيقول المؤمن هذه هذه فمن احب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأت منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر "(١).

ثامناً : " عصر المهدي المنتظر " : قال صلى الله عليه وسلم : " المهدى مني أجلى الجبهة اقنى الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يملك سبع سنين "(٢) .

تاسعاً : " عصر المسيح عليه السلام " : قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ليُوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"(١).

---

(١) مسلم : (كتاب الإمارة ، رقم : ٣٤٣١ ، رواه مسلم عن زهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، كلهم ثقاة وعبد الله بن عمرو ابن العاص في أعلى مراتب العدالة والتوثيق) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٥٠٣ ، ٦٢١٤) ، النسائي (كتاب البيعة ، رقم : ٤١٢٠) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٣٩٤٦) ، كنز العمال للمتقي الهندي (٢ : ١٩١) ، السنن الكبرى للبيهقي (٨ : ١٦٩) ، الدر المنثور للسيوطي (٦ : ٥٦) .

(٢) أبو داود (كتاب المهدى ، رقم : رقم : ٣٧٣٦ ، رواه أبو داود عن سهيل بن تمام بن بزيع عن عمران القطان عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري ، كلهم ثقاة وأبو سعيد في أعلى مراتب العدالة والتوثيق) الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٥٨) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٧٣) ، مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٤٥٤) ، الحاوي للفتاوى للسيوطي (٢ : ١٢٤) .

عاشراً : "الجاهلية الأخيرة" : وفي هذا العصر يسود ظلام جاهلية حمقاء ، ولكنها آخر الجاهليات وأقوها ، حيث توجد كثرة فاسدة شريرة ، لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا ، فيرفع المبدأ الإسلامي بعلاماته كلها ، إلا من صدر قلة مؤمنة ، تتمسك بدينها بقوة حتى يأتيها أمر الله .

حادي عشر : "عصر التغيير الكوني "[2] : (مثل خروج الشمس من مغربها وخروج دابة من الأرض تكلم الناس ... الخ) وقد ورد ذكر هذه العلامات وغيرها في القرآن والسنة .

هذه هي مراحل التاريخ الماضية والحالية والمستقبلة كما جاءت في الكتاب والسنة أو بالأصح هي المراحل التي اجتهدت في استنباطها من الكتاب والسنة .

---

(١) البخاري (كتاب البيوع ، رقم : ٢٠٧٠ - كتاب المظالم و الغضب ، رقم : ٢٤٦٧ - كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم : ٣٤٤٨) ، مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ٢٢٠، ٢٢١) ، أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٦٦) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، ٤٠٦٨) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٩٧١ ، ٧٥٦٢ ، ٨٧٥٨ ، ٩٨٧١ ، ١٠٠١ ، ١٠٥٢٢) ، مشكل الآثار للطحاوي (١ : ٢٨) ، الشريعة للآجري (٣٨٠).

(٢) قد تكون المرحلتان الأخيرتان متداخلتان فيحدث التغيير الكوني في ظل عصر الجاهلية الأخيرة .

الفصل الثاني

[الصراع من النفس إلى المجتمع]



١- الفطرة ومستويات الوجود :

الفطرة هي القوامة التي خلق الله المخلوقات عليها ، قال تعالى :{ لقد خلقنا الإنسان في احسن تقويم }[التين / ٤] ، وهذه القوامة هي التسليم الكامل لله رب العالمين ، قال تعالى :{ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم علي أنفسهم الست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا }[الأعراف /١٧٢-١٧٣].

والموجودات بكل أنواعها خُلقت علي هذه الفطرة ، فالملائكة وما دونها من طير وحيوان ونبات وجماد ، وبالجملة كل من في السموات والأرض يسبحون الله ، قال تعالى :{ سبح لله ما في السموات وما في الأرض }[الصف / ١] ، وتسبيحهم دليل تطابقهم مع الفطرة ، وستظل الفطرة مصاحبة لهذه الموجودات ما بقيت .

٢-الفطرة والإنسان :

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، قال تعالى : { ولقد خلقنا الإنسان في احسن تقويم }[التين / ٤]، ولكنه انحرف عن هذه الفطرة القويمة ، وسقط من هذا المستوى الإنساني القويم . قال تعالى :{ ثم رددناه اسفل سافلين }[التين / ٥] . وهذا السقوط حدث بفعل عدة عوامل ، منها البيئة المحيطة أو الأسرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد علي الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "[1]، ولكن أهم أسباب هذا الانحراف إنما يرجع إلى الإرادة ، قال تعالى :{ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كافورا }[الإنسان / ٣] ، فالإرادة إذن هي التي يمكن أن تدخل عناصر فاسدة شريرة علي الكيان الإنساني الخير الأصل . فتهبط به إلى مستوى متدن يضعه في مستوى أدنى من مستويات الجماد والحيوان التي لا تعقل ولا تعي .

٣-الفطرة والرسالة :

إن رحمة الله سبحانه وتعالي اقتضت أن يرسل الأنبياء بين الحين والآخر برسالات سماوية تمتلك طريق العودة والصعود إلى الفطرة ، لذلك فالإنسان الذي يريد أن يرتقى إلى فطرته

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة [العجلوني : كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علي السنة الناس ، تحقيق احمد القلاش ، جـ٢ ، دار التراث القاهرة ، د . ت ، ص ١٨٢] .

ويتطابق معها لابد أن يتطابق مع الرسالة ، لان الرسالة هي التي تقدم الوسيلة وتوضح معالم الطريق ، وكثير من الأمم والشعوب انحرفت عن فطرتها وضلت ولم تستطيع العودة إليها لأنها لم تجد الوسيلة التي بها ترتفع إليها بعد سقوطها عنها ، لذلك لاغني للفطرة عن الرسالة.

وبقدر التطابق مع الرسالة يكون التطابق مع الفطرة ، فالتطابق الكامل مع الرسالة يقابله تطابق كامل مع الفطرة ، والقصور في التطابق مع الرسالة يقابله قصور في التطابق مع الفطرة وبنفس القدر ، وإذا ما انحرف الإنسان عن الرسالة انحرف عن الفطرة وسقط إلى أدنى أدنى مستويات الوجود ، قال تعالى :{ثم رددناه أسفل سافلين }[التين / ٥] { أولئك كالأنعام بل هم أضل}[الأعراف / ١٧٩] .

٤- الأمم والفطرة ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم:

الفطرة في النفس البشرية تشبه كنز داخل الإنسان تدفنه المعاصي والآثام ، والناس يتفاضلون ويختلفون في الإيمان والكفر بكثرة الآثام والمعاصي - التي تحجب وتدفن هذا الكنز - أو قلتها ، فإذا كثرت الآثام قل احتمال إيمان الإنسان ، وإذا قلت زاد احتمال إيمانه بمنّ الله وتوفيقه . وعلى هذا قسم الإسلام الأمم إلي قسمين :الأول "المسلمون " و يتفاوتون في درجات الإيمان . الثاني:" الكفار" يجتمعون بكل طوائفهم على الكفر ، ويتفاوتون في موقفهم من الإسلام والمسلمين ، قال تعالى : { لتجدن أشد الناس عداوة للذين ءامنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا: إنا نصرى}[المائدة / ٨٢] . فهذه الآية الكريمة تقسم الناس في موقفهم من الرسالة إلى قسمين ، ويمكننا توضيح هذين القسمين على النحو التالي :

أ-المسلمون :

١-محمد رسول الله (خير البشرية) والرسل والأنبياء جميعا

٢-الشهداء والصديقين .

٣-المؤمنون .

٤-عامة المسلمون .

٥-لا إله إلا الله محمد رسول الله(الحد الفاصل بين الإيمان والكفر).

١-النصارى (أقرب الناس مودة إلى المسلمين).

ب-الكفـــار : ٢-المشركون (كل الناس غير النصارى واليهود: (مجوس- ثنوية - عبدة أصنام ...الخ)

٣-اليهود (أبعد الناس عن الإيمان وأشدهم عداوة للإيمان وأهله) .

هذا هو تقسيم الإسلام للناس ، وهذه هي طبيعة العلاقة بينهم ، إنها طبيعة يؤكدهـــا الواقع والتاريخ ، فالنصارى - رغم عدائهم الشديد للإسلام وأهلـــه - إلا أنهـــم - في الوقت نفسه - أقرب الناس إلى الإسلام وأكثرهم انفتاحاً عليه ودخولا فيه ، واليهود هـــم أكثر الناس عداء للإسلام وأقلهم انفتاحاً عليه ودخولا فيه ، وبين النصارى (قمة الانفتاح) واليهود (قمة العداوة) توجد الأمم الأخرى .

٥- الاختبار :

لقد اتضح مما سبق أن الإنسان هو الكائن الذي يستطيع أن ينحرف عن فطرته ، كمـا يستطيع أيضاً أن يعود ويرتقى إليها ويتطابق معها ، وموضع الإنسان هذا إنما هو موضـــع اختبار ، قال تعالى :{الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا }[الملـــك /٢] والاختبار هو المطرقة التي تبين معادن الناس ، فترفع من يستحق الرفعة وتتهشـــم تحـــت طرقاته المعادن الزائفة قال تعالى :{ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يفتنـــون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين }[العنكبـــوت /٢-٣].

٦- الاختيار والحرية :

الاختبار يستلزم الاختيار أو الحرية ، ولكن ما الذي يختاره الإنســـان ؟ والإجابـــة أن المختارات نوعان : انتمائية ومحايدة . واقصد بالانتمائية التي تنحاز إلى الخير أو إلى الشـــر ، وقد وضعت الرسالات السماوية الخط الفيصل بين الخير والشر في الأربعة أمور الآتيـــة : العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق . فهذه الأمور الأربعة أمور انتمائية أي أنهـا إما أن تكون موافقة للرسالة فتكون خيراً أو مخالفة فتكون شراً .

والمختارات الشريرة مزينة للنفس الأمارة بالسوء ولذلك فهي سهلة الاختيار ، قـــال

تعالى :{ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب }[آل عمران /١٤] . أما المختارات الخيرة فهي صعبة وتحتاج إلى عزيمة ، قال تعالى :{ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يفتنون }[العنكبوت /٢] وقال صلى الله عليه وسلم : " حفت الجنة بالمكارة وحفت النار بالشهوات "(١) وأما باقي الأشياء فتندرج تحت المختارات المحايدة ، فإمكانات الإنسان الجسدية والعقلية ، والإمكانات المادية والعلمية كلها من الأمور المحايدة .

فهذا "تيار الماء تستطيع أن تحوله لري الأرض واستنبات النبات أو تستطيع أن تغرق به الأرض وتقتل الحياة . وهو في الحالة الأولى خير وفي الحالة الثانية شر . ولكنه هو الماء ذاته في الحالتين . لم تتغير طبيعته ، ولكن تغيرت وظيفته . وهذا تيار من الكهرباء تستطيع أن تضئ به المصابيح هدى ونور للناس وتستطيع أن تسحق به الأحياء . هو في إحدى حالتيه خير وفي الثانية شر ، ولكنه هو تيار الكهرباء لم يطرأ عليه تغيير". وكذلك "القدرة على التفكير طاقة محايدة ، ولكنك تستخدمها للنفع العام فهي خير ، وتستخدمها للإيذاء من حيث هي نشاط بشري لم تتغير في الحالتين " . وكذلك الإمكانات العلمية محايدة " فالعلم التجريبي ... ككل الطاقات البشرية ، عنصر محايد يصلح أن يوجه للخير كما يوجه للشر !" وكذلك الطاقة الروحية ...ككل طاقة محايدة في ذاتها وصالحة لكلا الوجهين "(٢) .

وبهذا يتضح أن طبيعة الموقف الإنساني هي التي تخرج المختارات المحايدة عن حيادها ، فإذا كانت طبيعة الموقف الإنساني تنحاز إلى الخير فإن هذه المختارات تخرج عن حيادها وتنحاز إلى جانب الخير ، وإذا كان الموقف الإنساني ينحاز إلى الشر فإن هذه المختارات تنحاز إلى جانب الشر .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة لكن للبخاري "حجبت" بدل " بدل "حفت" في الموضعين [العجلوني : كشف الخفاء جـ١ص٤٣٤].

(٢) محمد قطب : في النفس والمجتمع .

٧- المسئولية :

لقد حمل الإنسان المسئولية لأنه حر في اختياره ، والمسئولية التي حملها الإنسان هي تلك المسئولية الحقيقية العادلة التي بينتها الرسالة الغراء :{وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقــه }[الإسراء /١٣] ، {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى }[النجم /٣٩] .

والمسئولية كما حددها الإسلام تتكون من العناصر الآتية : المسئولية = فــاعل بــالغ عاقل حر+ فعل يدرك عواقبه + ثمرة هذا الفعل . فالفاعل إذا لم يكن بــالغ عــاقل حــر سقطت عنه المسئولية ، قال صلى الله عليه وســلم : "رفع القلم عن ثلاث : عن الصــبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق "(٣). وكذلــك إذا كــان الفاعل لا يدرك عواقب فعله سقطت عنه المسئولية أيضا قال صلى الله عليه وسلم:"رفــع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه "(٤).

وثمرة الفعل إذا لم تتحقق سقطت المسئولية عن صاحب الفعل ولذا لم يقع – في ظــل الإسلام – حد على فرد لسرقة لم تتم بعد .فمن الظلم إذن أن يسجن إنسان بجرم آخر ، أو يجنى إنسان ثمرة زرع آخر ، بل إن كل إنسان قد الزم طائره في عنقه . وعلى ذلك فالعقل الواعي يرفض المسئولية بمفهومها النصراني ، فليس من المعقول أن تتحمل كــل البشــرية نتيجة الخطيئة التي ارتكبها آدم عليه السلام بمعصيته ، كما أنه ليس من المعقول أن يــنـزل الإله بنفسه من السماء ويعرض نفسه للقتل والصلب لكي يحمل عن البشرية خطاياهـا ؟!.

---

(٣) أورده الشيخ إسماعيل العجلوني بلفظ : رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبتلى حتى يبرأ ، وعن الصبي حتى يكبر " وقال : رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم عن عائشة = وفي رواية لأحمد وأبي داود والحاكم عن علي وعمر بلفظ رفع القلم عن ثلاث :" عن المجنون المقلــوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلــم [العجلــوني : كشــف الخفــاء ،ج١ص٥٢٣]

(٤) اختلف الأصوليون في هذا الحديث فمنهم من ذهب إلى أنه موضوع ومنهم من أنكره ومنــهم مــن ضعفه ومنهم من حسنه أو قال بصحته ، وقال الشيخ إسماعيل العجلوني :" ومجموع هذه الطــرق تظــهر للحديث أصلا لاسيما وأصل الباب حديث أبي هريرة في الصحيح عن زراره بن أوفي برفعه : أن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها وزاد في آخره وما استكرهوا عليه ... وصححه ابن حبان والحاكم وغــيرهم وقال النووي في الروضة والأربعين انه حسن [العجلوني :كشف الخفاء ،ج١ص٥٢٢-٥٢٣] .

وبصرف النظر عن هذا الهراء فنحن المسلمين نرفض أن يتحمل أحد أخطاءنا كما نرفض أن نتحمل أخطاء غيرنا.

٨- الصراع :

اتضح مما سبق أن الإنسان خير بالفطرة ، غير أنه مُنح الإرادة الحرة التي لها أن تختار المختارات الخيرة التي تتوافق مع الفطرة الإنسانية ويمكن أن تختار المختارات الشريرة التي تتمرد على الفطرة . وبدخول عنصر الشر إلى النفس يحدث الصراع بين هذا العنصر الدخيل الذي يريد أن ينتزع الإنساني من إنسانيته وينحدر به اسفل عالم الحيوان ، حيث يتمرغ في أوحال الشهوات ، وبين النفس اللوامة حامية الخير والمدافعة عنه . وبهذا يظل الكيان الإنساني مسرحا للصراع بين حزبين متنازعين هما : حزب الخير ويمثله النفس اللوامة .حزب الشر ويمثله النفس الأمارة بالسوء . وتستعين النفس اللوامة في صراعها ضد الشر بالفطرة والرسالة بينما تستعين النفس الأمارة بالسوء بالشيطان والهوى . ويحاول كل من الحزبين الإنتصار على الآخر بما يجره من مختارات تدعم موقفة في مواجهة عدوه . ولا ينبغي أن نفهم من قولنا "بالنفس اللوامة" والنفس الشريرة" أنها نفوس مستقلة ، بل إن النفس واحدة و" الخيرية " و" الشرية " نازعتان فيها ، قال تعالى :{ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها }[الشمس /٨].

ويظل الكيان الإنساني في صراع دائم يتمثل في حركة النفس المستمرة بين النزعة الخيرة ومختاراتها محاولة الوصول إلى الفطرة والتطابق معها، وبين النزعة الشريرة ومختاراتها ، محاولة طمس معالم الفطرة القويمة في الكيان الإنساني والهبوط به إلى المستوى الحيواني .

والمختارات هي أداة الصراع ، وما عمل كل نفس ألا أن ترمي بمختاراتها لكسب الكيان الإنساني والسيطرة عليه ، وإخضاع الإمكانات والطاقات المحايدة واستخدامها لصالحها . فالنفس الأمارة بالسوء (الشريرة) ترمي الكيان الإنساني بمختاراتها الشريرة فإن كان حزب الخير نائم مخضر فإن هذه المختارات الشريرة سرعان ما تسيطر على هذا الكيان وتخضعه لها ، ويصبح الإنسان بذلك شريراً . ولكن تظل إمكانية العودة إلى الخير قائمة مستمرة حتى نهاية الحياة الإنسانية . وإذا حدث العكس وسيطرت المختارات الخيرة ، فإن الكيان الإنساني يخضع للخير ، ويشعر الإنسان بالطمأنينة والسكون والهدوء الناجمة من

توافق المختارات الخيرة مع طبيعة الإنسان وفطرته الخيرة ، ولكن ومع ذلك تبقى أيضاً إمكانية الإفلات والسقوط قائمة إلى نهاية الحياة الإنسانية . وقد يحدث أن تتساوى قوى الخير والشر فيكون النصر والهزيمة بينهما سجال ، فتارة يتغلب الشر وأخرى يسيطر الخير فيصبح الإنسان مؤمنا ويمسي كافراً أو يصبح كافراً ويمسي مؤمناً ، والعبرة هنا بالخاتمة .

والرسالة هي معيار الخير والشر، فبالتطابق مع الرسالة تتحقق الخيرية ، وبالإفلات من الرسالة يقع الإنسان في مستنقع الشر. والتطابق بالرسالة له صورتان : صورة روحية : " تمثل العلاقة بين العبد وربه ، ولا يعلم صدقها إلا الله " ، وصورة ظاهرة :"تمثل العلاقة بين الفرد ومجتمعه ". وإذا اجتمعت الصورتان في إنسان فإنهما يجعلان منه الإنسان النموذَج ، والإنسان النموذج ليس هو الإنسان السلبي بل هو الإنسان الذي يحاول بكل طاقته البشرية – من خلال مشاركته مع المجتمع – أن يشد الآخرين ويرفعهم إلى الخير حيث الاتحاد بفطرتهم الخيرة . ومن هذا المنطق فإن جميع الأنبياء والرسل يمثلون هذا الإنسان النموذج ، ولذلك فإنه ينبغي على البشرية جمعاء أن تقتدي بهم وتسير في طريقهم لكي تصل إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان . فقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام وحده أمة كاملة قال تعالى :{إن إبراهيم كان أمة}[النحل /١٢٠] وهكذا كان سيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد سُئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : "كان خلقه القرآن " . ولم يتوقف الإنسان النموذج على الأنبياء والمرسلين وحدهم بل تعداهم إلى كثير من المؤمنين بالرسالة ، فكثير من المؤمنين بالرسل ذاقوا ألوان العذاب حتى نُشر بعضهم بالمناشير ولم يثنهم ذلك عن التمسك والثبات على عقيدتهم . وكان إيمان أبي بكر كإيمان إبراهيم عليه السلام ، يزيد عن إيمان أمة كاملة . وكان الشيطان يسلك فجا غير الذي يسلكه عمر رضى الله عنه . وهذا الإنسان النموذج الذي أرادته الرسالات السماوية هو إنسان العدل والرحمة ، انه على النقيض تماماً من " السوبر مآن الغربي " إنسان القهر والظلم ، ذلك الإنسان الذي يتحقق به قادة أوربا وأمريكا ، وما الأزمات التي يعانيها العالم أجمع إلا نتاجاً طبيعيا لسيطرة هذا الإنسان اللقيط المنحرف وهيمنته على العالم .

والعلاقة بين الصورة الظاهرية للرسالة والصورة الروحية علاقة وثيقة ذلك أن أي خلل

في الصورة الروحية ينعكس على الصورة الظاهرية ضرورة ، فكـــل انهيـــار في الصـــورة الروحية يقابله انهيار في الصورة الظاهرية ، حتى إذا انهارت الصـــورة الحقيقيـــة انهـــارت الصورة الظاهرية . ومن مجموع تراكمات الصور الظاهرية للأفـــراد تتشـــكل الصـــورة الظاهرية للمجتمع ، وإذا ما تغيرت الصورة الظاهرية للأفراد تغيرت الصـــورة الظاهريـــة للمجتمع ، وهذا التغير تدريجي حيث يساهم فيه أجيال كثيرة ، فكل جيل يحقق قدر مـــن الهبوط في الصورة الظاهرية الاجتماعية حتى تتغير الصورة الاجتماعية تماماً . وبنظـــرة إلى التاريخ الإسلامي يتضح هذا الأمر بجلاء ، ففي بداية عهد الرسول صلى الله عليه وســـلم كان الصحابة رضوان الله عليهم متحققين بالصورة الحقيقية والظاهرية معاً ، ثم بدأ الانهيـلو في الصورة الحقيقية – في العصور التالية – فانحرفت الصورة الظاهرية . وفي بداية عصرنـا الحاضر انهارت الصورة الحقيقية لغالبية أفراد الأمة الإسلامية ، فانهارت تمامـــاً الصـــورة الظاهرية للمجتمع الإسلامي ، حتى بدت هذه المجتمعات وكأنها لا علاقة لها بالإسلام .

وقد يحدث ويأخذ التطابق صورته الحقيقية دون صورته الظاهرية فهذا النوع مقبول في حالة تعرض المسلم لضرر شديد القسوة يلحق المسلم في بدنه بطريقة لا يتحملها ، مـــا دام هذا الأمر لا يمس عقيدته الحقيقية القائمة على النية ، ولنا في قصة عمار بن ياسر الدليـــل الواضح على ذلك(٥) ، وقد قال الله وقد قال الله تعالى في مثل هذا :{ إلا من أكره وقلبـه مطمئن بالأيمان }[النحل /١٠٦]

أما إذا حدث وأخذ التطابق صورته الظاهرية دون صورته الحقيقية فإنه يقدم حينئـــذ الإنسان المنافق ، وهو إنسان صاحب اتجاه جديد لا ينتمي إلى الإيمان – بحكـــم صورتـــه الروحية – ولا ينتمي إلى الكفر – بحكم صورته الظاهرية . أو هو كما يقول الأستاذ محمـــد قطب : التظاهر بالفضيلة في الوقت الذي لا يؤمن بها الإنسان أو لا يمارسها في الواقع "(٦) . وأصحاب هذا الاتجاه يتحينون الفرصة لكي يعلنوا عن حقيقتهم ، فإذا ما بدا أمامـــهم ضعف في المجتمع أو شعروا بأنهم اصبحوا قوة انقلبوا على المجتمع معلنين عن حقيقتـــهم –

---

(٥) أضطر سينا عمار بن ياسر أمام تعذيب الكفار إلى أن يظهر كلمة الكفر ،فلما ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقص له ما حدث منه وافقه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا عمار إن عادوا فعد) .

(٦) محمد قطب : في النفس والمجتمع .

وعندئذ فقط يمكن تصنيفهم ضمن حزب الشيطان حيث يتضح لحزب الخير صورقم الحقيقة - والتاريخ الإسلامي يؤكد ذلك ابتداء من حركة الردة في عهد الخليفة أبي بكر، ومروراً بسقوط الخلافة العثمانية على يد اليهودي كمال أتاتورك، ومن قبل فتنة جده اليهودي عبد الله ابن سبأ، تلك الفتنة التي أودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان وكثير من الصحابة الأجلاء، وما زالت تلك الفتنة تؤثر إلى الآن في العالم الإسلامي. فأصحاب هذا الاتجاه - أو الإنسان المنافق - أشد ضرراً على الإسلام من الكفار، ولذلك توعدهم الله بأنهم في الدرك الأسفل من النار قال تعالى :{إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار}[النساء/١٤٥] .

٩- من النفس إلى المجتمع :

الصراع بين نوازع النفس ينعكس على القلب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عودا فأيُ قلب أُشربها نُكت فيه نُكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نُكت فيه نُكتةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض والآخر اسود مُربادًّا كالكوز مُجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكرا منكرا إلا ما أُشرب من هواه "(٧) .

وبناء على حال القلب يصدر العقل أو أمره إلى الجوارح، فتأتي أعمال الجوارح انعكاساً وترجمة لما في قلب . وعمل الجوارح ينقل الصراع من حدود الفرد إلى نطاق الجماعة، ذلك أن الإنسان أثناء عمل الجوارح تتوافق أعماله مع مجموعة من الناس اتخذوا موقفا واحدا إزاء مبدأ معينا (سماوي أو أرضي)، وتتعارض مع آخرين اتخذوا موقفا مغايراً . فإن كان خيراً توافقت أعماله مع الأخيار مكونين حزب الخير، وإن كان شراً توافقت أعماله مع الأشرار مكونين حزب الباطل والشر . وعلى هذا الأساس انقسم الناس

---

(٧) مسلم (كتاب الإيمان، رقم : ٢٠٧، رواه مسلم عن محمد بن عبد الله بن نُمير عن أبي خالد يعني سليمان بن حيان عن سعيد بن طارق عن ربعيّ عن حذيفة، كلهم ثقاة وحذيفة في أعلى مراتب العدالة والتوثيق لأنه صحابي جليل) ، مشكاة المصابيح : (٥٣٨)، الدر المنثور : (٨٧ :١)، شرح السنة للبغوي (٧: ١٥)، الترغيب والترهيب للمنذري : (٢٣١ :٢)، كنز العمال : (٣٠٨٥٣) تفسير القرطبي (١٨٩ ١ -٣ :٢)، حلية الأولياء لأبي النعيم (٤١)

إلى حزبين حزب الله وحزب الشيطان . ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقرر أمراً هاماً وهـو أن :" حركة التاريخ نتاج مشترك بين الفرد والمجتمع والمبدأ محكوم بسنن إلهية ربانية ".

١٠-الجزاء:

مادام الإنسان هو نفسه المسئول عن أفعاله التي اختارها ، فمن العدل إذن أن يكـون الجزاء من جنس العمل ، وليس من العدل أن تكون نهاية حزب الله الذين جاهدوا أنفسهم و جاهدوا أعداءهم وأعداء الله ربهم كنهاية أولئك الذين ارتضوا حياة الذلـة والمهانـة ، واختاروا العمل مع حزب الشيطان ، قال تعالى :{ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يـوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون}[الزمر / ٢٤] .فجزاء حزب الله الجنـة ، وجزاء حزب الشيطان النار ، والخير كل الخير في الجنة والشر كل الشر في النار . وما دام الأمر كذلك فلا ينبغي أن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من شر أو يدخل النـار من كان في قلبه مثقال ذرة من خير ، قال أيضا :" لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبـة خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء "(٨).

والذي يحدث أن الله سبحانه وتعالى يترع من صدر المؤمن النفس الأمارة بالسوء الـتي هي مصدر الشرور فلا يدخلون الجنة إلا بصدور طاهرة وقلوب خيرة ، كما قال سـبحانه وتعالى :{ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين }[الحجـر / ٤٧] ، كما يترع من صدر الكفار الخير فلا يدخلون النار إلا بصدور شريرة وقلوب يملؤها الحقـد . وعندئذ يأمر الله الموت أن يتجسد في صورة ما ثم يأمر به فيذبح ، وعند ذلـك يعيـش الفريقان حياة دائمة ينعم فيها أهل الجنة بنعيمها الدائم ، ويشقى فيها أهل النار بشـقائها الدائم ، قال صلى الله عليه وسلم : " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء

---

(٨) مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ١٣٢ ، رواه عن مِنجابُ بن الحارث التميمي وسويد بن سعيد عـن علي بن مُسهر عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله ، كلهم ثقاة وعبد الله في أعلى مراتـب العدالة والتوثيق) ، الترمذي (كتاب البر والصلة عن رسول الله ، رقم ١٩٢١ ، ١٩٢٢) ، أبو داود (كتاب اللباس ، رقم : ٣٥٦٨) ، ابن ماجه (كتاب المقدمة ، رقم ٥٨ - كتاب الزهد ، رقـم : ٤١٦٣) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٣٦٠٠ ، ٣٧١٨ ، ٣٧٥١) .

بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ، فـــيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم "(٩).

---

(٩) البخاري (كتاب الرقاق ، رقم : ٦٠٦٦ ، ٦٥٤٤)، فتح البـــاري (جـــ ١١ ، ص ٣٥١) . مسلم (الجنة ونعيمها وأهلها ، رقم ٥٠٨٨ ، ٥٠٨٨) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابـــة ، رقم : ٥٧٢١ ، ٥٧٥٠).



الفصل الثالث

[سنن التاريخ وعناصره الهامة]

أولا : السنن التي تحكم حركة التاريخ :

السنن التي تحكم التاريخ كثيرة نذكر منها الآتي :

أولاً :" الابتلاء ": وهو امتحان البشر بالخير والشر ، بالإيمان والكفر ، بالعطاء والمنع ، بالنصر والهزيمة . هذا الابتلاء يهدف الى غربلة الناس حتى لا يبقي على الأيمان إلا كل صادق قال تعالى :{ آلم احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين } [العنكبوت / ١ - ٣] .

ثانياً :"جريان القدر الرباني من خلال أعمال البشر":حيث لا يقع في ملك الله إلا ما يريده الله ، ولكن مطلوب الله في خلقه إنما يقع من خلال أعمال البشر .

ثالثاً :" التغيير ": وهو أيضا سنة من السنن التي تجري من خلال أعمال البشر . فإصلاح الواقع الفاسد إنما يقع على عاتق البشر ، قال تعالى :{ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم }[الرعد / ١١] .

رابعاً :"مساوقة الشر للخير": أي أن الشر يقترن في وجوده ضرورة بوجود الخير ، فحيث يوجد الخير لابد أن يوجد الشر ، فلا خير منفرد ولا شر منفرد ، وإذا حدث وغلب الخير الشر بطريقة يعدم معها الخير من الأرض وأصرت البشرية على العناد فإن بطن الأرض – في هذه الحالة – أولى بالأمة المعاندة من ظهرها ، ولذلك اهلك الله الكثير من الأمم القديمة مثل : قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ... وغيرهم ممن أصر علي الكفر والعناد .

خامساً :" إن النصر والهزيمة دولة بين أهل الحق وأهل الباطل " : وهكذا التاريخ تارة ينتصر فيها أهل الحق وأخرى ينتصر فيها أهل الباطل ، ولكن هزيمة الباطل في نهاية كل جولة أمرا مقضيا ، فالله قد يمهل الأمة الظالمة ولكنه سبحانه لا يهملهم ، قال تعالى : { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد }[غافر / ٥١] .

سادساً :" إن النصر له أدواته " : فالأمة التي تأخذ بأسباب النصر ([1]) لابد أن تنتصر ولو كانت على الباطل ، ولذلك كان النصر والهزيمة دولة بين أهل الحق وأهل الباطل بحسب الأخذ بأسباب النصر ، قال تعالى :{ وتلك الأيام نداولها بين الناس }[آل عمران / ١٤٠] .

سابعا : عودة كل شيء إلى بدايته : وذلك في قول الله تعالى : { كما بدأنا أول خلق نعيده } ، فهذه الآية تبدوا وكأنها قانون عام يسيطر على الكون وعلى كل شيء فيه ، يبدأ الإنسان عند مولده ضعيفا وينتهي في كبره ضعيفا ، يبدأ الإسلام غريبا ويعود كما بدأ - عند نهاية الزمان - غريبا ، تبدأ البشرية قليلة العدد وستعود قبل نهاية التاريخ قليلة ، يبدأ الزمان على سطح الأرض سريعا ، ولا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، بدأت جزيرة العرب حدائق وانهار وستعود كما بدأت حدائق وانهار ...الخ

ثانيا : عناصر هامة في حركة التاريخ :

الإنسان هو صانع التاريخ ، وهو في حركته التاريخية لا يتحرك في فراغ وإنما يتحرك مع مجموعته البشرية في زمان معين وفي مكان محدد ، ويستعين في تحقيقه لأهدافه بالوسائل المتاحة لتحقيق هذه الأهداف . فهناك عناصر أربعة لا يمكن لأي مؤرخ أن يتجاهلها في تسجيل أي حادثة تاريخية آلا وهى :"الزمان - المكان (الطبيعة) - والمجموعة البشرية صانعة هذا الحدث - والعلم باعتباره أهم الوسائل التي استعانت وتستعين بها باستمرار المجموعة البشرية في صناعة الحدث ".فهذه العناصر الأربعة تاريخية ، بمعني انه لا يمكن فصلها عن التاريخ أو فصل التاريخ عنها ، وتتضح تاريخيتها علي النحو الآتي :

---

(١) ذكر الأستاذ شوقي أبو خليل اثنا عشر عاملا من عوامل النصر هي : ١- الإعداد قبل المعركة . ٢- معرفة قدرة العدو وإمكاناته ٣- التوجيه المعنوي . ٤- سرية التحركات والاستعدادات (التعمية على العدو) . ٥- التحام القيادة مع الشعب . ٦-السلاح الوطني (أي أن تكون الدولة منتجة لسلاحها) ٧- متانة العقيدة ووضوحها . ٨- أهلية القيادة . ٩- المفاجأة (أي متابعة التقدم العلمي ، ودراسة آخر نتائج الفكر العسكري) . ١٠- عدم القتال لدنيا . ١١- الحكمة (أي لا نقبل علي الحرب إلا عندما نتيقن من أسباب نجاحها) . ١٢- الارتقاء بالجوانب الروحية والخلقية للجنود . [شوقي أبو خليل : عوامل النصر والهزيمة عبر ا الإسلامي ، ط ٢ ، دار الفكر ، دمشق سنة ١٩٨٧م ، ص ١٧ - ٢٦] .

١-عنصر الزمــن : فالحركة التاريخية لا تنتهي حتى يبلغ الزمن غايتـه .

٢- عنصر الطبيعة : والطبيعة أيضا تتحرك في اتجاه حركة التـاريخ ، وتتمثـل حركـة الطبيعة التاريخية في استخراج ما بها من كنوز وثروات فلا تنفـذ كنوزهـا ولا تنعـدم ثرواتها إلا مع بلوغ التاريخ غايته ، وبلوغ الصـراع نهايته ، بل لقد اثبت العلم المعـاصر أن الكون يتجه إلى شيخوخة وفناء شأن الأفراد والأمم .

٣-عنصر النمو البشري : والنمو البشري هو الآخر له حركته التاريخية وتتمثل حركتـه التاريخية في بلوغ النمو البشري غايته ، وغايته لا تتحقق ألا بميلاد آخر إنسان قدر الله لـه أن يوجد .

٤- عنصر العلم : والعلم عنصر مهم من عناصر الصراع ، وهو نوعان أحدهما "العلـم الدنيوي" وبه يمكن الهيمنة علي الطبيعة من خلال كشف قوانينها والاستفادة من ثرواتهـا ، فلهذا النوع من العلم سلطانه القوي في حركة التاريخ ، وغايته فناء الحضارات . والنـوع الثاني هو "العلم الديني" ، ولهذا النوع سلطانه القوي علي الكيان الإنساني ، وهو أسـاس الصراع ، وهو أيضا يتجه إلى غايته ، وغايته نهايته ، ونهايته أن لا يقال في الأرض الله ، فإذا حدث ذلك انتهي الصراع ووصل التاريخ إلى غايته .

وهذه العناصر الأربعة لها قممها التي ما إن وصلت إليها حتى تأخذ في الهبوط من جديد ، ولما كانت سنة الحياة أن الهبوط دائماً أسرع من الصعود والهدم أسرع من البناء فإننـا نعتقد انه لم يبق من عمر الحركة التاريخية إلا القليل ، وهذا ما أكده النبي صلى الله عليـه وسلم – حيث بين في خطبة له بعد العصر قرب اليوم الآخر – حين قال :" أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضي إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضي منه "[١][٣] .

---

(١) احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٥٨٩٧ ، رواه احمد عن إسماعيل بن عمر عن كثير يعني بن زيد عن المطلب بن عبد الله عن عبد الله بن عمر ، كلهم ثقاة وعبد الله بن عمر في أعلى مراتـب العدالة والتوثيق).

(٣) احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٥٨٩٧ ، رواه احمد عن إسماعيل بن عمر عن كثير يعني بن زيد عن المطلب بن عبد الله عن عبد الله بن عمر ، كلهم ثقاة وعبد الله بن عمر في أعلى مراتـب العدالة والتوثيق)

وهذا الجزء المتبقي من الزمن يجري بطريقة مسرعة يلحظها كل إنسان ، ذلك أنه على الرغم من التقدم العلمي إلا أن الأيام تفر مسرعة بطريقة جعلت استفادت الناس – في أيامنا هذه – من أوقاها ضعيف ، وسيواصل الزمن حركته هذه نحو الأقل ، ولذلك بين النبي صلى الله عليه وسلم إن تقارب الزمن من علامات الساعة فقال : " لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان "(١) ، ووضح هذا التقارب فقال :" لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر ، والجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كاحتراق السعفة "(٢) .

أما الحركة التاريخية للطبيعة فلا تصل إلى قمتها إلا عندما تكشف الأرض عن ثرواقا وتخرج كنوزها ، ولا يكون ذلك بعلم وإنما يكون بحركة الأرض الداخلية الذاتية ، وعندئذ تكشف الأرض ثرواقا للناس فيأخذون حتى يزهدون ، وحتى لا يجد المرء من يُخرج له زكاة أمواله ، ولن تصل الطبيعة إلى هذه القمة إلا في عصري الإمامين المسلمين المهدي رضي الله عنه والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

واعتقد أن النمو البشري في طريقه إلى الوصول إلى قمته في عصرنا الحالي ، ذلك العصر الذي يمكن أن نطلق عليه ببساطة " عصر الانفجار السكاني " وعليه فإن النمو البشري سيتجه في السنوات القليلة القريبة نحو النقصان ، وهذا الاتجاه نحو النقصان يتم بفعل عوامل يرجع بعضها إلى الإنسان نفسه مثل الحروب ، وبعضها بفعل الأمراض والأوبئة التي تصيب وستصيب الإنسان باستمرار ، وبعضها بفعل الزلازل والبراكين والأعاصير ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :" تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتي الرجل القوم فيقول من صعك قبلكم الغداة فيقولون : صعك فلان وفلان

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري عن ابي هريرة (كتاب الجمعة ، رقم : ٩٨٩) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٠٤٤٣).

(٢) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٠٥٢١ ، رواه احمد عن هاشم عن زهير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة ، كلهم ثقاة وأبي هريرة في أعلى مراتب العدالة والتوثيق) . مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٤٤٨) ، كنز العمال للمتقي الهندي (٣٨٥٠٤) ، آمالي الشجري (٢ : ٢٦٥) ، فتح الباري طبعة دار الفكر (١٣ : ١٦) ، الترمذي (رقم : ٢٢٥٤) .

"[٦].وستظل هذه العوامل تحصد البشرية حصدا حتى يقل الناس وينحصروا مرة ثانيـــة في قلب العالم القديم (شمال شرق أفريقيا وجنوب غرب آسيا وأوربا).

والنمو العلمي هو الأخر –في جانبه المادي – يسعى إلى قمته بسرعة رهيبة نعيشـــها ونحسها جميعاً ومقياس وصول العلم المادي إلى قمته هو بلوغ الحضارة ، لان الحضارة نتـلج العلم ، ومقياس وصول الحضارة إلى قمتها هو وقوع الترف ، والترف واضح في الحضـارة المعاصرة . والترف يقود إلى الجهل ، ولذلك ما إن يصل العلم بالحضارة إلى القمة حـــتى يأخذا في الهبوط معاً نحو القاع كانحدار صخرة يقذفها السيل من على قمة جبـــل عـــال ، وهذا الانحدار نحو القاع يزيده كثرة الجهل وقلة العلماء . هذا إلى جـــانب أن الحضـــارة الحالية تنطوي على عناصر هدم وسلب ستتفوق حتماً في يوم ما علي عنـــاصر البنـــاء ، والناظر في ارتباط هذه الحضارة بجهاز الكومبيوتر الخطير يدرك تماما أن الحضارة الحاليـــة معرضةٌ لخطر كبير من جانبه رغم إسهاماته العظيمة لهذه الحضارة .



الفصل الرابع

[المبدأ وحركة التاريخ]



أولاً : أنواع المبادئ التي تحرك البشرية :

لاشك أن الناس في حركتهم التاريخية لا يتحركون بطريقة عشوائية ، بل إن حركة الأمم تتم وفق مبادئ بها يتحركون ، وغايات إليها يقصدون ، ووسائل بها يحققون ما إليه يقصدون ، ولقد اختلفت فلسفة التاريخ بين الأمم والشعوب ، فمنهم القائل أنها المادة كالشيوعيين القدماء والمحدثون ، وقائل أنها العقائد ، ويذهب هذا المذهب أهل الأديان كاليهودية والنصرانية والإسلام . ولما كانت اليد البشرية قد لعبت في كل المبادئ السابقة على الإسلام فدخلها التحريف فأختلط صحيحها السماوي بزيف باطل البشر ، فقد دفعنا هذا إلى أن نقسم المبادئ التي تحرك البشرية أو تتحرك بها البشرية إلى نوعين :حقيقي وزائف . المبدأ الحقيقي : هو الذي يمد أتباعه – في سبيل العمل من أجله – بقوة دفع دائمة لا تنقطع ، وهذا لا يتوافر إلا في المبدأ الديني الذي ينقسم بدوره إلى :

أ- مبدأ صادق : وهو "الإسلام "الذي ثبت بكل الأدلة أنه الدين السماوي الوحيد الذي لم تمتد إليه يد البشر بالتحريف .

ب- مبدأ كاذب : ويشمل كل الأديان بما فيهم اليهودية والنصرانية ، أما كون هذه المبادئ حقيقية فمن حيث أن أصلها سماوي ، ومن حيث إنها قادرة على مد اتباعها بقوة دفع دائمة لا تنقطع ، وأما كونها كاذبة فمن حيث أن يد البشر قد لعبت فيها وحرفتها ، ولذلك انتهت كل هذه الأديان إلى وثنيات ، وإن ظلت تستمر في مد أبنائها بالعمل من أجلها.

وأما المبدأ الزائف : فهو الذي لا يستطيع أن يمد اتباعه في سبيل العمل من اجله بقوة دفع دائمة . والى هذا النوع تنتمي كل المبادئ الأرضية (من شيوعية ووطنية وقومية ورأسمالية..الخ) ، فالشيوعية سقطت بعد سبعين سنة من قيامها ، وباسم القومية العربية حققنا اكبر الهزائم في تاريخنا الطويل المملوء بالبطولات ، وتحت راية الوطنية فقدنا هويتنا وذاتنا واحتقرتنا كل الأمم ، فكل هذه المبادئ – وغيرها من المبادئ التي أنتجها البشر– زائفة باطلة لا تسمن ولا تغني من جوع . وفضلا عن هذا فإن هذه المبادئ لا تستطيع أن

تدافع عن ارض أو تحمى عرض ، إنها أضغاث أوهام يظن المتبعون لها انهم يتبعون شيئا فـإذا استيقظوا من نومهم لم يجدوا شيئا وعلموا أن ما كانوا يتبعونه إن هو ألا أضغاث أحلام .

ثانيا : علامات المبدأ :

والسؤال الآن : من أين تأتى قوة الدفع التي يمنحها المبـــدأ لاتباعـــه لكـــي يجعلـــهم يتحركون حركة دائمة في عملهم من اجله ؟ أو بمعنى آخر: ما هي العوامل التي تســـتثير المبدأ وتجعله حاضراً باستمرار في نفوس الاتباع ، تستثير عواطفهم نحوه ، وتحرك عقولهـــم تجاهه ، وتوجه سلوكهم من اجله ؟ أو بمعنى ثالث ما هي علامات المبدأ ؟ .

والإجابة أن عوامل الاستثارة يمكن حصرها في الآتي :

١- الاستثارة الذاتيـــة للمبدأ : وهى أن يكون المبدأ حقيقي صادق ، يمتلك في ذاتـــه عوامل صدقه ، ولا يخشى حوار العقل والمنطق ، ولا يعارضه الواقع ولا يناقضـــه العلم ، ولذلك كثيرا ما نرى الإسلام يخاطب العقل ويستثيره بألفاظ مختلفة مثل " أفلا يتدبرون .. أفلا يعقلون .. أفلا ينظرون .. الخ

٢- الاستثارة السلوكية للمبدأ : وهى أن يكون المبدأ شاملا يتغلغل في مناحي الحيـــاة المختلفة ، وان يحكم الإنسان بكليته :"عقله وقلبه وجسده ، فكره وســـلوكه . ومن ثم يُعد الإسلام اكثر المبادئ حضورا على المستوى الفردي والجمعي وذلـــك للأتي : فعلى مستوى العبادات : هناك خمس صلوات يوميا ، ولكل صلاة أذانـــين ، وهناك صلاة أسبوعية (صلاة الجمعة) ، وهناك شهر صيام سنوي يتلاحم فيـــه المسلمون اكثر واكثر وهو شهر رمضان المعظم . وهناك حج سنوي يتلاحم فيـــه المسلمون من جميع أنحاء الأرض ، على اختلاف الوانهم وأشكالهم ، لا فرق فيـــهم بين عربي وعجمي . فهذه العبادات وغيرها تجعل المبدأ دائم الحضـــور في حيـــاة المسلم . وكذلك يحكم الإسلام سلوك المسلم ومعاملاته وأخلاقه مما يجعله دائـــم الحضور في كل لحظة من لحظات حياته ، وهذا فعلا ما أراد الإسلام أن يحققـــه في نفوس أبنائه ، قال تعالى :{قل إن صـــلاتي ونســـكي ومحيـــاى وممـــاتي لله رب العالمين}[الأنعام /١٦٢] . وهذا أمر لم يتحقق في أي مبدأ آخر ، ولهذا الأمـــر

فالمبدأ الإسلامي حي دائم لأنه مستثار دائما ، وهذه الاستثارة الدائمة للمبدأ تنعكس على الأفراد فتستثرهم دائماً للعمل من أجله ، فالاستثارة إذن بين المبدأ وأفراده متبادلة ولا تتوقف على طرف دون الآخر .

٣- استثارة الفطرة الإنسانية : ذلك أن الإنسان بفطرته مجبول - إذا ما تخلص من أهوائه - على قبول الحق ، فالإنسان إذا ما صفا قلبه ، وتحرر من الأوهام عقله ، أندفع إلى قبول المبدأ الحق ، والعمل من أجله .

٤- استثارة المنفعة والضرر : وذلك أن رغبة الإنسان في الحصول على نفع المبدأ وتجنب ضرره من أهم عوامل الاستثارة ، ولذلك كلما كان النفع الذي يقدمه المبدأ أو وعد بتقديمه عظيم كلما كان أكثر استثارة للإنسان ، وكلما كان الضرر الذي يوقعه أو وعد بتوقيعه عظيم كلما كان الالتصاق بالمبدأ أقوى . ولذلك كان الالتصاق بالمبادئ السماوية أعظم من الالتصاق بغيرها من المبادئ الأرضية التي لم تعد إلا بالمنافع واللذات الزائلة ، بينما منافع المبادئ السماوية دائمة وآلام مخالفته أيضاً دائمة في الآخرة ، أما في الدنيا فإن المبادئ السماوية تحقق الأمان والطمأنينة والسكون لنفس المؤمن وهذا ما تعجز عنه المبادئ الأرضية .

٥- استثارة التربية : هدف التربية غرس المبدأ في نفوس النشء ، وذلك بضبط سلوكه وألفاظه على أساس المبدأ ، وبالتنفير من المبادئ الأخرى ومحادالها ، والمبادئ التي لا يربى عليها النشء لا يمكنها أن تحكم الفرد أو المجتمع وبالتالي لا يمكن استثارتها أو تكون استثارتها ضعيفة وزائلة . وذلك أن للتربية جانبان : أحدهما سلبي : ينفر الاتباع من المبادئ الأخرى وهو واضح في اليهودية والنصرانية اللتين يدور كل همهما على محاربة الإسلام وإلصاق التهم به بالباطل والكذب . والثاني إيجابي : يقوم على غرس المبدأ في نفوس الاتباع . وحتى غوس المبدأ له ثلاث طرق ، الأولى ترتكز على الوهم والعاطفة وهو واضح في النصرانية والتي تجعل شعارها في ذلك آمن ثم اعقل. والثانية ترتكز على الإرهاب والقمع وهو واضح بقوة في الشيوعية التي قتلت الملايين من اجل غرس مبدأها في النفوس ، ولم يدم إرهابها طويلا إذ سريعا ما سقطت وقذف بها في مزبلة التاريخ .والثالثة

تقوم على الإقناع والفهم والفكر والفقه ، وهو أوضح ما يكون في المبدأ الإسلامي الذي يجعل شعاره في ذلك اعقل ثم آمن.

٦- الاستثارة المكانية : حيث يتخذ المبدأ أماكن تقترن به وتدل عليه وتستثيره في نفوس الاتباع ، وهنا تكمن مفارقة أخرى بين المبادئ الأرضية والمبادئ السماوية ، فالمبادئ السماوية لها علاماتها المكانية (كالكنائس والمعابد والأديرة والمساجد) مما يجعلها اكثر استمرارا وتأثيرا في نفوس الاتباع ، والمبادئ الأرضية لا علامات مكانية لها – اللهم إلا بعض أصنام يصنعها الحكام لأنفسهم يريدون أن يخلدوا بها في نفوس الشعب الذي سريعا ما يركلهم بأقدامه بعد موهم – مما يجعلها سريعة الفناء .

٧- الاستثارة التاريخية : وهذا عنصر يكتسب بالوقت ، فالمبادئ القديمة المستمرة تضع لنفسها تاريخاً قوياً يتمثل في انتصارات عدة للمبدأ ، أو حتى في هزائم ، فتجلب الأولى الفرح والسرور والعزة في نفوس الأتباع ، وتجلب الثانية الحزن والمرارة ، وكلا الأمرين يمثل استثارة قوية للمبدأ ، فغزوة خيبر وطرد اليهود من الجزيرة العربية يُحيّ في المسلمين العزة والرغبة في الانتصار على اليهود مرة ثانية وطردهم من فلسطين ، واحتلال اليهود لفلسطين وإقامة دولتهم عام ١٩٤٨م اكسب اليهود ثقة في أنفسهم وفي قدرهم على إقامة دولة عالمية ترتكز على التلمود . ودخول النصرانية إلى الدولة الرومانية من الأحداث الهامة بالنسبة للمبدأ النصراني . وسقوط الشيوعية تبعث دائما في نفوس فلول الشيوعيين المتبقين الحصرة والعار والخزي والندامة على مبدئهم الخاسر الفاشل .

٨- استثارة الأشخاص : يرتبط عنصر الأشخاص (الأبطال والأعداء) بالمبدأ ارتباطا وثيقا ، فيكفى أن اذكر محمداً صلى الله عليه وسلم لكي استثير كافة المبادئ الموجودة في العالم الآن ، فهو يثير في نفس المسلم المبدأ الإسلامي بكافة جوانبه ويذكر الناس بإيمانهم ، وتقصيرهم ، وحبهم لربهم ونبيهم ... الخ ويثير في نفس اليهود والنصارى الحقد والكراهية على هذا الرجل الذي نسخ شرائعهم وابطل ديانتهم وافسد منافعهم وحطم سلطانهم . ويكفى أن اذكر موسى أو هارون حتى

أتذكر اليهودية ، وهكذا مع المسيح بالنسبة للمسيحية ، أو بولس بالنسبة للنصرانية ، أو ماركس بالنسبة للماركسية أو هتلر بالنسبة للنازية ... أو فرعون بالنسبة لموسى ، واليهود بالنسبة لعيسى ، وأبي جهل بالنسبة للمسلمين . أو بوش وريجان وديان وكلنتون بالنسبة للمسلمين المعاصرين .

٩- استثارة الحرب : إن الحرب أعظم عناصر استثارة المبدأ ، وبقدر ما تخوضه الأمة من حروب بقدر ما تمتلئ شباب وحيوية ، والتاريخ يخبرنا ذلك بصراحة فلولا فتوحات الاسكندر ما سادات الثقافة الإغريقية بلاد آسيا ومصر القديمة ، ولولا حروب روما ما استطاع الرومان سيادة الأرض والاستمرار في الوجود أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان ، ولولا الحروب ما استطاع المسلمون سيادة الأرض ونشر الإيمان بها. والتاريخ يثبت أيضا أن الدول غير المحاربة تتعرض للضعف والزوال فالإمبراطورية الرومانية انقسمت أمام هجمات البرابرة ألي قسمين : الإمبراطورية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، والإمبراطورية الغربية وعاصمتها روما ، وذلك عام ٣٦٥م ، وقد سقطت الإمبراطورية على يد القوت عام ٤٧٩م ، أما الإمبراطورية الشرقية فسقطت على يد الأتراك المسلمين عام ١٤٥٣م ، وسقطت الخلافة العباسية المترفة غير المحاربة أمام هجمات التتار الوثنيين . فالدولة المحاربة هي وحدها القادرة على البقاء . والحرب لا تمثل عنصر استثارة فقط ولكن أيضا عنصر اختبار للمبدأ وللاتباع فقد يكون المبدأ صحيحا ولكن إيمان الاتباع به ضعيفا فالحرب تستثير المبدأ في نفوسهم وتقوي إيمانهم به ، ولذلك كان المسلمون في حال حروبهم اقوي منهم في حال سكونهم . وقد يكون المبدأ كاذبا ولكن الأفراد يمتلكون رغبة داخلية في أيمان صادق فالحرب حينئذ تجعلهم يحتكون بمبادئ الأمم الأخرى ويضطلعون عليها مما يجعل من نفوسهم ساحة وميدانا لمعارك أخرى ، معارك لا تستمع لنداء السيف ولكنها تستمع لنداء العقل والفطرة ، معارك لا يتوقف النصر والهزيمة فيها على القوة أو العدة أو الشجاعة والجبن ولكنها تتوقف على صدق المبدأ وصفاء العقل وطهر النفس . ولذلك قد تنتصر الأمة على مستوى حروب السيف والقنابل الفتاكة وتنهزم على

مستوى حروب المبادئ ، مثل التتار الذين انهزموا على هذا المستوى الأخير مما جعلهم يعتنقون المبدأ الإسلامي رغم انتصارهم عسكريا على المسلمين .

١٠- استثارة الرمز : ذلك أن بعض المبادئ تتخذ أحيانا رموزا لها كالهلال بالنسبة للإسلام أو الصليب بالنسبة للنصرانية أو المنجل والمطرقة بالنسبة للشيوعية . أو النجمة السداسية بالنسبة للصهيونية . وكل هذه العوامل لا توجد مجتمعة إلا في الإسلام ، فهو المبدأ الدائم الخالد الذي تفنى تحت حركته كل المبادئ الأخرى.

ثالثاً : معوقات المبدأ :

١-الفقر :

الفقر يدفع الأمة – في ظل ضعف استثارة المبدأ لأصحابه – إلى التخاذل عن المبدأ بل والتنازل عنه وبيعه إذا اقتضت الضرورة ، بل وإستبداله بمبدأ آخر – ولو ظاهريا – ، وهذا الأمر يتضح في دول العالم الإسلامي الفقيرة التي باعت المبدأ الإسلامي بحبات القمح التي ترسلها لها أمريكا وأوربا واستبدلته بمبادئ أرضية علمانية ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الفقر ويضعه مع اكبر الفتن بل ويخصه بالتركيز عليه حيث كان يقول : " اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار ومن شر فتنة الغنى وأعوذ بك من فتنة الفقر "(١) . على أن الفقر من جهة أخرى يمثل استثارة قوية للمبدأ إذ أنه يدفع الطائفة التي أخذت على نفسها الانتصار للمبدأ إلى الوقوف ضد تغريب المبدأ ، وقد يتخذ هذا الموقف شكل الدعوة السلمية التي تهتم بالناس وتحثهم على الاستمساك بالمبدأ ، وقد يصل إلى حد الصراع المسلح ضد السلطة الحاكمة .

والحكومات تقع بذلك بين قوتي ضغط تمثل إحداهما قوة الضغط الخارجية ضد المبدأ ، وتمثل الثانية قوة الضغط الداخلية لصالح المبدأ ، وتنحاز الحكومة للقوة الأكثر تأثيرا عليها ، فإذا كانت قوة الضغط الخارجية أقوى انحازت الحكومة لها ورمت المبدأ خلف ظهرها وتجاهلت أصوات المعارضة الداخلية مثل الجزائر التي انحازت لفرنسا والغرب ضد جبهة

---

(١) البخاري (كتاب الدعوات ، رقم : ٥٨٩١ ، ٦٣٧٥ ، ٦٣٧٦ ، ٦٣٧٧) .

الإنقاذ الإسلامية ، أما إذا كانت قوة الضغط الداخلية أقوى انحازت الحكومة عليها غير مبالية بضغوط الدول الخارجية الاقتصادية مثل السودان التي انحازت للجبة الإسلامية ضد أمريكا والغرب ... ولا خروج من هذا المأزق إلا بأن تعتمد الدولة على مجهودات أبنائها واستغلال ثرواقا ولن يحقق ذلك إلا الاستمساك بالمبدأ . وقد تتعادل القوتان فتأتي تصرفات الحكومات متضاربة ومتناقضة ، تنحاز تارة إلى القوى الخارجية وأخرى إلى القوى الداخلية ، وتدخل الدولة في دوامة الولاءات والاختيارات حتى يقوى تيار على الآخر وهو بالضرورة تيار الوطن والقوى الداخلية .

٢-الظلم :

الظالم (فرد أو دولة) لا يعرف للمبادئ طريقا إذ لا يعترف إلا بالمبدأ الذي يخدم أهوائه ويرضى طموحاته... على أن الظلم هو الآخر قد يكون من عوامل استثارة المبدأ حيث يسعى المظلومون إلى دفع الظلم عنهم في صورة كفاح مسلح - أحيانا - وقد ينتهي هذا الأمر بتقويض أركان الدولة . واخطر ما في الظلم انه قد يدفع المظلومين إلى اتخاذ مبدأ مغايراً للمبدأ الذي قد ينتمي إليه المظلومين ، أو يدفعهم إلى تقديم تفسير خاص للمبدأ يخرج به عن المبدأ الأصل ، فيكون هناك مبادئ أخرى إلى جانبه تقترب منه في بعض جوانبها وتبتعد عنه في جوانب أخرى ، كالتشيع (١) - بفرقه المختلفة - بالنسبة للإسلام .
ولذلك حذر الإسلام من الظلم بصفة عامة فقال صلى الله عليه وسلم : " الظلم ظلمات يوم القيامة "(٢)، وحذر من ظلم الحكومات والأمراء بصفة خاصة ، فقال صلى الله عليه وسلم : " إنه ستكون بعدي أمراء من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني

---

(١) الظلم الواقع على آل البيت من الخلفاء الأمويين والعباسيين هو الذي أزكى في نفوس الشيعة أحقية آل البيت بالخلافة وليس السند الشرعي [د/ احمد محمود صبحي : الزيدية ، ص ٥٨٠] .

(٢) البخاري (كتاب المظالم والغضب ، رقم : ٢٢٦٧) ، مسلم (كتاب البر والصلة والآداب ، رقم : ٤٦٧٦) ، الترمذي (كتاب البر والصلة عن رسول الله ، رقم : ١٩٥٣) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٥٤٠٤ ، ٥٥٦٨ ، ٥٩٢٩ ، ٥٩٣٣ ، ٦١٥٧) .

ولست منه وليس بوارد على الحوض ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فـهو مني وأنا منه وهو وارد على الحوض"(1).

٣- الهوى:

الهوى أيضاً من العوامل التي تؤدى إلى تعدد المبادئ حول المبدأ الأصيل ، حيث يقـود الهوى أصحابه إلى العمل بآرائهم في المبدأ الأصيل فيؤولونه تبعا لأهوائـهم مثل :العنانيـة (2) والعيساوية(3) والمقاربة واليوذعانيـة (4) بالنسـبة إلى اليهوديـة . والملكانيـة(5) والنسطورية (6) واليعقوبية (7) بالنسبة للنصرانية . والشيعة والخوارج بالنسبة للإسـلام . وكثير ما يدخل أصحاب هذه المبادئ في صراعات جانبية تشغل الأمة عن هدفها الأساسي

(١) النسائي (كتاب البيعة ، رقم : ٤١٣٦ ، رواه النسائي عن عمرو بن على عن يحي عن سفيان عـن أبي حصين عن الشّعبي عاصم العدوى عن كعب بن عُجرة ، كلهم ثقاة وكعب بن عجره في أعلى مراتـب العدالة والتوثيق) ، النسائي (كتاب البيعة ، رقم : ٤١٣٧) ، الترمذي (كتاب الفتن ، رقـم : ٢١٨٥) .

(٢) العنانية : نسبوا إلى رجل يقال له عنان بن داود ... يخالفون سائر اليـهود في السـبت والأعيـاد ، وينهون عن أكل الطير والظباء والسمك والجراد ،ويذبحون الحيوان على القفا ، ويصدقون عيسى عليـه السلام في مواعظه وبشاراته [الشهرستاني : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كلانى ، جـ ١، دار صعب بيروت سنة ١٩٨٦م ، ص٢١٥] .

(٣) الملكانية : أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ... صرحوا باثبات التثليث [المرجع السابق ، ص٢٢٢].

(٤) النسطورية : أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ، وتصرف في الأناجيل برأيه أضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة ، قال : إن الله تعلى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم ، والحياة . وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ، ولا هي هو [المرجع السابق ، ص ٢٢٤] .

(٥) الملكانية : أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ... صرحوا باثبات التثليث [المرجع السابق ، ٢٢٢] .

(٦)النسطورية : أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ، وتصرف في الأنـاجيل برأيـه ، وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلي هذه الشريعة ، قال : عن الله تعالى واحد ، ذو اقانيم ثلاثـة : الوجـود والعلم والحياة ، وهذه الاقانيم ليست زائدة على الذات ، ولا هي هو [المرجع السابق ، ص ٢٢٤] .

(٧) اليعقوبية : أصحاب يعقوب ، قالوا بالأقانيم الثلاثة- ويعنون بالأقانيم الصفات كـالوجود والحيـاة والعلم ، وسموها : الأب والابن والروح القدس إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هـو المسيح ، وهو الظاهر بجسده بل هو هو [المرجع السابق ، ص ٢٢٥].

يدخل أصحاب هذه المبادئ في صراعات جانبية تشغل الأمة عن هدفها الأساسي وعن مبدأها الأصلي . فالهوى أمر خطير يصيب الأفراد والمجتمع والدولة ولذلك حذرنا منه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : " إن مما أخشى علكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى "(1) . بل أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبره من اكبر الآفات التي قد تصيب المبدأ في مقتل وتعوقه تماما وفي ذلك يقول : " إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل اجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم"(2).

٤- الترف :

إن الإنسان متى وصل إلي الترف يكون قد وصل إلى أقصى نقطة تبتعد عن المبدأ . إنها نقطة اللا عودة ، ذلك أن الفقير قد يحقق حياة مقبولة أو قد يصبر على فقرة، والظالم قد يقلع عن ظلمه، لكن المترف لا يستطيع - بسهولة - أن يتحرر من الترف ، فالترف قيد ثقيل يكبل الإنسان أو الأمة فلا تستطيع الحركة بمبدئها أو نحو مبدأها ، ورغبة المترف في العودة إلى مبدئه أو العمل به كرغبة رجل بدين متخم ومقيد بسلاسل حديدية غليظة في صعود جبل من رخام أملس . ويؤدي الترف إلى ظهور حركات صوفية تحاول - دون جدوى - إنقاذ الأمة من كبوها هذه ، ولكن أنى لها ذلك ، فالترف سوس قبيح ما إن يدخل جسد الأمة أو الفرد ويستحوذ عليه حتى يفتك به ويدمره إن عاجلا أو آجلا ، قال تعالى :{ وإذا أردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا }[الإسراء / ٦] . فالترف قرين الفسق ، كما أنه قرين الظلم والإفساد في ارض ،

---

(١)احمد (كتاب أول مسند البصريين ، رقم : ١٨٩٥١، رواه احمد عن يزيد عن أبي الأشهب عن أبي الحكم البناني عن أبي برزة ، كلهم ثقاة وأبي برزة في أعلى مراتب العدالة والتوثيق) .

(٢) الترمذي (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ، رقم : ٩٨٤ ، رواه الترمذي عن سعيد بن يعقوب الطالقاني عن عبد الله بن المبارك عن عتبة بن أبي حكيم عن عمرو بن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني عن أبا ثعلبة الخشني ، كلهم ثقاة باستثناء عمرو بن جارية اللخمي وأبي أمية الشعباني فمقبولين الرتبة ، وأبا ثعلبة الخشني في أعلى مراتب العدالة والتوثيق لأنه صحابي) .

قال تعالى :{ فلولا كان من القرون من قبلكم أُلوا بقية ينهون عن الفســـاد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا ، واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين }[هود / ١١٦] .

٥ ـ العنصرية :

قد تكون العنصرية مبدأ أو إطاراً يقره المبدأ فعندئذ لا تكون عائقـــا للمبـــدأ (مثـــل الوطنيات والقوميات) ... ولكنها تكون عائقا للمبدأ إذا فرضـــت عليـــه مـــن خارجـــه كالعنصرية اليهودية ، فاليهودية كدين حقيقي صادق لا يقر العنصرية وينظر إلى الناس على أنهم سواسية ، ولكن اليهود صاغوا هذا المبدأ الصادق في إطار باطل وهو العنصرية فالبسوا الباطل بالحق فأفسدوه ، فأعاقوا بذلك المبدأ الصادق بالعنصرية الكاذبة . ولذلك نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه العنصرية لأنها جاهلية منتنة خبيثة فقال : " دعوها فإنها منتنة "(١) وفي رواية أخرى قال : " دعوها فإنها خبيثة "(٢).

٦- النفاق(٣) :

النفاق عائق رهيب بل هو أكبر العوائق للمبدأ ، والتاريخ يؤكد هذا فأكثر ما وجه إلى الدولة الإسلامية من ضربات كان من قبل المنافقين (عبد الله بن سبأ والفتنة ضد عثمـــان رضى الله عنه – ومصطفى كمال أتاتورك – اليهودي – وإسقاط الخلافـــة العثمانيـــة) . والأكثر من ذلك أن النفاق قد يقتل المبدأ الحقيقي ويستبدله بمبدأ زائف مثلما فعل بولـــس الذي استطاع أن يستبدل مسيحية المسيح الحقيقية الصادقة بنصرانية وثنية كاذبة . وقـــد سبق الحديث عن النفاق وأثره في المجتمع الإسلامي فيما سبق .

كل هذه العوامل تمزق الأمة وتخلق فيها فرقا كثيرة تدور حول المبدأ ، تقـــترب منـــه أحيانا وتبعد عنه أحيانا أخرى ، وقد تطغى عليه أحيانا كثيرة حتى تقتله كما حدث مـــع

---

(١) البخاري (كتاب تفسير القرآن ، رقم : ٤٥٢٥ ، ٤٩٠٧) ، مسلم (كتاب البر والصلـة والآداب ، رقم : ٤٦٨٢ ، ٤٦٨٣) ، الترمذي (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ، رقم : ٣٢٣٧) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٤١٠٥ ، ١٤٥٩٧ ، ١٤٦٨٨) .

(٢) البخاري (كتاب المناقب ، رقم : ٣٥١٨) .

(٣) النفاق : إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب [الجرجاني :التعريفات ،تحقيق د .عبد المنعـــم الحنفي ،دار الرشاد القاهرة د .ت .ص ٢٧١] .

اليهودية – حيث طغت عليها أهواء الحاخامات – ومع النصرانية – حيث طغت عليها أهواء بولس وغيره من رجال الدين – ولكن من فضل الله انه منّ على البشرية فحفظ المبدأ الإسلامي- آخر الرسالات السماوية – وجعل طائفة من الأمة الإسلامية تدور معه وتدافع عنه. فهذه الفرق تمثل النفس الأمارة بالسوء بالنسبة للامة الإسلامية ، وان كانت هذه النفس الشريرة قد سيطرت على الكيان اليهودي وحولته إلى كيان عقائدي فاسد ، فان المجتمع الإسلامي مازال قائما بنفسه الشريرة والخيرة معاً ، يمثل الأولى كل الفرق المنحرفة ويمثل الثانية أهل السنة والجماعة.

رابعاً : المبدأ والحركة :

كلما توغل المبدأ في العالمية كلما كان اكثر استمرارا في الحياة ، وكلما توغل في المحلية كلما كان أسرع إلى الفناء ، وذلك لان المبدأ يرتكز على الحركة ، والحركة اكبر عوامل استثارة المبدأ في نفوس الأمة ، فإذا ما سكنت حركة الأمة سكن المبدأ في نفوس الأمة ، وإذا ما سكن المبدأ اخذ في الضعف وتعهد الزمن بدفنه . ولذلك تميز المبدأ الإسلامي بان عهد الله به إلى طائفة من الأمة الإسلامية تدافع عنه وتتحرك به وتدور معه أينما دار .قال صلى الله عليه وسلم :" لا يزال هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة حتى تقوم الساعة "([1]). وفي رواية أخرى :" لا يزال لهذا الأمر أو على هذا الأمر عصابة على الحق ولا يضرهم خلاف من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله"([2]) . والراويات كثيرة في هذا الباب . إذن المبدأ الذي لا يتحرك به أبناؤه فلابد أن يسكن ، وللسكون عدة وجوه هي :

---

(١) مسند احمد (كتاب أول مسند البصريين ، رقم : رقم ١٩٩٤٣ ، احمد عن اسود بن عامر عن شريك عن سماك جابر بن سمرة ، كلهم ثقاة وجابر بن سمرة في أعلى مراتب العدالة والتوثيق) ، احمد (كتاب أول مسند البصريين ، رقم : ١٩٩٧٦ ، ٢٠٠٢٨ ، ٢٠٠٣٣ ، ٢٠٠٧٩ ، ٢٠١٠٣ ، ٢٠١٠٦ ، ٢٠١٣٧) .

(٢)مسند احمد:(باقي مسند المكثرين ،رقم ٧٩٢٥،رواه احمد عن أبي عبد الرحمن عن سعيد عن محمد بن عجلان عن أبي صالح عن أبي هريرة،كلهم ثقاة وأبو هريرة في أعلى مراتب العدالة والتوثيق)،احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٨١٢٨ ، ٨٥٧٤) ورواه بن ماجة بلفظ قال صلى الله عليه وسلم :" لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها " ، ابن ماجه (كتاب المقدمة ، رقم : ٧) .

أولاً : السكون الزماني : بمعنى أن يكون المبدأ عالمي المكان محدود بالزمان ، فحدود الزمان هي وحدها التي تسكن المبدأ ، ويندرج تحت هذا النوع دعوة نوح وسليمان وإبراهيم صلوات الله عليهم ، فدعوة نوح إلى البشرية كلها رغم قلة عددهم ، وتخطى إبراهيم عليه السلام حدود وطنه إلى شعوب أخرى كشعبي مصر وسوريا ، واتسع ملك سليمان ليشمل أمما أخرى غير اليهود .

ثانيا : السكون المكاني : بمعنى أن سكون المبدأ هنا يكون راجعا إلى طبيعة المكان الذي ظهر، أو صُمم بحيث يتناسب مع قوم معينين يصلح لهم ولا يصلح لغيرهم ، ويندرج تحت هذا النوع جميع الرسالات السماوية وجميع الوطنيات والقوميات والعنصريات ، فالوطنية المصرية - مثلا - لا يعترف بها ولا تعترف إلا بكل مصري ، والنازية الألمانية تحتقر كل من كان من غير الألمان ، واليهودية هي الأخرى - وقد تحولت إلى دين قومي عنصري - تنظر إلى البشر على انهم حيوانات مسخرة لخدمتهم . وهكذا فهذه مبادئ ساكنة بذاتها لأنها لا تستطيع أن تتعدى حدود الأمة أو الوطن . وكذلك الدينات المحلية مثل البوذية والكونفوشيوسية ، وغيرهما من الديانات المحلية المنتشرة في مناطق متفرقة من العالم .

ثالثا : السكون المصطنع : بمعنى أن يكون السكون ليس من طبيعة المبدأ ، وإنما يكون مفروضا عليه من خارجه - من أعدائه أو حتى من أبنائه الذين ينتمون إليه ظاهرياً - لخطورته على أوضاع معينة يرغبون في الحفاظ عليها . مثل السكون الذي فرضه الغرب الصليبي على المبدأ الإسلامي وذلك حين قسموا العالم الإسلامي إلى دويلات ذات حدود سياسية مصطنعة ... ولكن ولان هذا السكون مصطنع وليس من طبيعة المبدأ فإن المبدأ لابد أن يحطمه وينطلق إلى غايته التي وجد من اجلها.

والاضطراب الذي يقع في التاريخ ينتج عن أمرين : الأول : تحريك مبدأ ساكن : يستوي في ذلك المبادئ الأرضية والمبادئ السماوية ، وذلك أن حركة المبدأ الأرضي لابد أن تكون حركة قهر ، مثل حركة الاسكندر الأكبر، وحركة الإمبراطورية الرومانية وحركة النازية الألمانية وحركة الاحتلال الغربي الحديث للبلاد الإسلامية ، فكل هذه المبادئ تعتمد على القهر لأنها مبادئ لا تمتلك القدرة على غزو قلوب الناس وان غزت أوطانهم وديارهم .وكذلك المبدأ الديني يقع في نفس الخطأ إذا ما حاول أن يتجاوز حدوده

الزمانية أو المكانية التي حددته ، لأنه إذا ما تجاوز هذه الحدود فإنه لابــد أن يتعــارض أو يعارضه مبدأ آخر يتناسب مع الطبيعة الزمانية والمكانية للمكان المغزو . وعندئذ تتحــول هذه المعارضة إلى صراع ، وهذا الصراع لابد أن ينتهي إلى أحد ثلاثـــة نتـائج : ١- انتصار المبــدأ الغازي . ٢- هزيمته . ٣-التوافق بين المبدأين .

فإذا ما حدث وانتصر المبدأ الغازي فان هذا النصر سيكون ظاهريا فقط لا حقيقيــا ، بمعنى أن الانتصار العسكري لا يستطيع أن يزرع المبدأ في نفوس المهزومين ، فعندئذ يتحول المبدأ وأصحابه إلى أسلوب القهر - شأن المبادئ الأرضية - مثل - في القديم - القصة التي أوردها القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود ، حيث أراد الملك اليمنى اليهودي أن يجـبر أهل نجران المسيحيين على اعتناق اليهودية فأبوا إلا دين المسيح عليه السلام ، فحفر لهـم الأخاديد وأوقد فيها النيران وقذف بهم فيها ، فاستشهد المسيحيون منتصرين بمبدئـهم ، وانهزم اليهود واصبح مبدأهم رمزا للقهر والعدوان (١) . ومن نماذج ذلك في عصرنا مـا يفعله نصارى الصرب بمسلمي البوسنة والهرسك من إبادة واغتصاب وتشريد وقهر بطريقة اصبح معها الصليب رمزا للتعدي الصارخ على البشرية .

وإذا ما حدثت الحالة الثانية وانهزم المبدأ فان هزيمته في هذه الحالة ستكون قاسية ، بـل قد تصل إلى حد الانتحار مثل هزيمة المبدأ الشيوعي في أفغانستان ، والتي ترتـب عليـها انتحار هذا المبدأ تماما بحيث تعذر على اتباعه إحيائه بل أسـرعوا إلى التخلـص منـه . وبالإضافة إلى ذلك فان أهل المبدأ أو الأرض المغزوة سيحفرون في ذاكرتهم وذاكرة أبنائهم جرم أهل المبدأ الغازي بهم ، فيتحينون الفرصة للانتقام لمبدئهم أو لأنفسهم .

وإذا ما حدثت الحالة الثالثة وهى التوافق بين المبدأ - الغازي والمحلي - فانه ينتج عـن ذلك ظهور" مبدأ جديدا " لا يمثل المبدأين ولا يعبر عنهما ، مثل توافق النصرانية والوثنيـة في الدولة الرومانية ، ذلك التوافق الذي اظهر مبدأ جديدا لا يمثل وحدانية المسيح ولا حتى ثنائية بولس ، ولكنه مبدأ يجمع بين كل هذا وبين تثليث الوثنية الذي كان سائدا في الدولة الرومانية قبل دخول المسيحية إليها .

---

(١) انظر تفاصيل هذه القصة بتفسير ابن كثير : جـ٤ ، مكتبة دار الـتراث ، القـاهرة ، د . ت ، ص ٤٩٣ - ٤٩٧ .

ولا تنحصر خطورة تحريك المبدأ الساكن على المبدأ نفسه بل تمتد لتمثل عائقا في سبيل التقدم والرقي ، وذلك أن المبدأ المحلى لا يمتلك أدوات استيعاب التطورات المتلاحقة للمجتمعات المختلفة ، مما يجعلها تقف في سبيل هذه التطورات ، تحارب كل تقدم ، وينتهي هذا الصراع بانتصار التطورات التي تفرض نفسها بقوة على جمود المبدأ ، وينتج عن هذا الانتصار فصل المبدأ عن الواقع المتطور ، ويقف الحكام وراء التطور رغبة منهم في تدعيم حكمهم ، والتخلص في الوقت نفسه من رجال الدين الذين يزاحمونه السلطة . ومثال لذلك ما حدث مع النصرانية التي دخلت في صراع مع العلم انتهى إلى الفصل بين الدين والعلم من ناحية ، والفصل بين الدين والسياسة من ناحية أخرى .

الثاني :" تسكين المبدأ المتحرك ": والمبدأ المتحرك في طبيعته استيعاب الأفراد والواقع والقدرة على إعطاء كل ذي حق حقه ، ولذلك فان تسكين هذا المبدأ المتحرك يترتب عليه ضياع الحقوق ، وهيمنة الأهواء ، وانتشار الظلم والقهر كما يحدث في عالم اليوم في ظل غياب الإسلام المبدأ العالمي الوحيد .

والحركة تتخذ أشكالا متنوعة منها :

١- الدعوة الداخلية لإثارة المبدأ في نفوس الأمة وتربية النشء عليه .

٢- الدعوة الخارجية وتتمثل في طريقتين أحدهما سلمية سلبية والأخرى عسكرية .

الأولى : تتمثل في :

(أ) بعثات دعوية أو تبشرية إلى البلاد أو المناطق التي لا تعتنق المبدأ أو تعتنق مبدأ اضعف – مثل الدعوة أو التبشير من أهل الدينات السماوية للمناطق التي تعتنق ديانة سماوية – أو إلى البلاد والمناطق التي تعتنق مبدأ حقا قويا ولكن تغفل عنه في ظل ظلم الحكومات وجهل الأمة وفقرها ، كما هو الحال في البلاد الإفريقية الإسلامية الفقيرة التي تغزوها الحملات التبشرية الصليبية .

(ب) وفي عصرنا هذا اتخذت حركة المبدأ شكلا جديدا يتمثل في أفلام سينمائية أو أعمال مسرحية أو غيرها من الأعمال الفنية التي تفرض على الأمم الضعيفة ، وترسل إليها إلى جانب أجولة القمح في صورة معونات اقتصادية ... بل حتى

المباريات الرياضية اتخذت هي الأخرى كوسيلة لنشر المبدأ ، ألا ترى أن اللاعب الأوربي عندما يحرز هدفا يصلب على وجهه بحركة يده !

والثانية : تتمثل في كل عناصر الالتقاء بالأمم الأخرى ، يدخل في ذلك عنصر التجـــارة ، وسنرى فيما بعد كيف ستؤدي التجارة إلى نشر المبدأ الإسلامي في معظم الأرض الإفريقية وغيرها من جزر المحيط الهادي وشبه القارة الهندية وغيرها ، وكذلك الصراع بكل أشـكاله التجارية والاقتصادية والثقافية وكذلك العسكرية فالحرب وسيلة هامة لنشر المبدأ وأحياؤه في قلوب أبنائه، وقد سبق الحديث عن الحرب.

هذه هي المبادئ التي تهيمن على الأرض وهذه هي حركتها ، وهي حركـــة متنوعـــة ومستمرة تجعل المبادئ في حالة صراع دائم ، صراع متنوع بين الحرب الفكرية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ، إنه صراع شامل دائم بدأ منذ هبـــوط آدم علـــى الأرض وسيستمر إلى نهاية الحياة الإنسانية ، والمبدأ الحقيقي هو المبدأ الذي سيســـتمر إلى النهاية قادر باستمرار على تحريك أبنائه من اجله ، بينما ستسقط كل المبادئ الزائفـــة في طريق التاريخ العالمي الطويل .

خامسا : المبدأ والدولة :

الدولة تناسب المبدأ الساكن (المحلى) ، ولا تتناسب مع المبدأ العـــالمي ، لان المبـــدأ العالمي هو الذي يحتاج إلى حركة دائمة لا تنقطع ولا تتوقف ، والدولة محدودة لذا فهي تحد الحركة بحدودها ، وتحديد المبدأ تسكينه ، وتسكينه موته ، فالدولة موت المبدأ العـــالمي لان سمة الدولة السكون ، ألا ترى أن المريض وحده هو الذي ينحو نحو السكون ؟

المبدأ العالمي يتشابه مع المبدأ المحلى في السعي إلى تكوين ملك ، ولذلك يمر كل منهما بمراحل ثلاثة :

١- مرحلة الطفولـــة : وهى المرحلة التي يكون المبدأ فيها مجـــرد فكـــرة لـــدى أصحابه.

٢- مرحلـــة الشـــباب: وهى المرحلة التي يعتنق فيها المبدأ قطاع كبير من الشعب ، يؤمنون به ويعملون له بإخلاص .

٣- مرحلة الرجولة : وهى المرحلة التي يصبح فيها للمبدأ دولة بفضل جهود الاتباع.

والمبادئ المحلية ترتضى هذا الطور الأخير وتتقوقع فيه وتنتظر فيه الموت الذي هو المصير المحتوم لكل من يرتضى السكون وان كان لا يعي ذلك . أما المبدأ العالمي فيتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة رابعة سماها الإسلام بأسماء شتى مثل الملك والخلافة ([1]) . واتخذت لدى المسلمين المعاصرين عدة مصطلحات مثل : " الدولة الإسلامية العالمية - أستاذية العالم - القومية العالمية - الجماعة الدولية " .

والمرحلة الثانية والرابعة هما افضل المراحل في حياة الأمة أو الجماعة لأنهما يجعلان الأمة أو الجماعة في حركة دائمة ، ففي المرحلة الثانية تتحرك الأمة نحو الدولة دون أن تبلغها ، وتشبه الأمة أو الجماعة في هذه المرحلة القبيلة أو المنظمات المسلحة التي تكون حينئذ في حركة دائمة لا تنقطع تجعلها قادرة على إقامة دولة منظمة ... وكذلك الأمر بالنسبة للمنظمات المسلحة التي لا تستطيع إقامة دولة فحسب بل وتستطيع في أحيان كثيرة هدم دول كبيرة أو إذلالها ، فمنظمة حماس الإسلامية - بفضل مبدأها الإسلامي المتحرك - ترهب إسرائيل وأعوانها ، وذلك على الرغم من قلة عددها وعدتها ، هذا في الوقت الذي سكنت فيه منظمة التحرير الفلسطينية - بفضل مبدئها العلماني - حين ارتضت أن تتحول إلى مؤسسة من مؤسسات الكيان الصهيوني ... أما المرحلة الرابعة فهي اعظم مراحل الأمة لان الدولة في هذه المرحلة تكون قد تجاوزت مرحلة الخطر المتمثل في إقامة دولة ، فهي مرحلة حركة دائمة للمبدأ واتباعه دون توقف ، إذ لو حدث التوقف لاتخذت الأمة ثانية شكل الدولة - مهما اتسعت حدودها - ولو أخذت شكل الدولة لانطبق عليها ما ينطبق على الدول الساكنة ، وذلك مثل الإمبراطورية اليونانية بعد الاسكندر الأكبر، والإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية الفارسية ، وكذلك الخلافة العباسية في الطور الأخير... وعليه تعتبر مرحلة الدولة هي اخطر مرحلة في حياة المبدأ واتباعه ، لأنها تحول

---

(١) الخلافة : رياسة عامة في أمور الدين والدنيا ... والخليفة هو الشخص الجامع للرياسة على الخلق في الدين والدنيا [الأيدي : المواقف في علم الكلام ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د . ت ، ص ٣٩٥] .

الأمة ومبدئها من حالة الحياة إلى حالة السكون والموت . ولعل هذا ما أدركـــه الكيـــان الصهيوني في إسرائيل ووعاه جيدا حين جعل من نفسه كيانا مفتوحا أو دولة بلا حدود .

والدين من أهم المبادئ التي تقوم عليها الدول ، ولكن الدولة تسكن- إن عـاجلا أو آجلا – الدين ، وبمرور الزمن يتحول الدين وينحرف – بفعل النـــاس وعلـــى رأســـهم الحكام([1]) – عن مساره ، ولهذا انتهت معظم الأديان السماوية القديمـــة إلى وثنيـــات ... بعضها يقوم على عبادة السلف الصالح فيصنعون لهم أصناما ويعبدونها بمرور الوقت – كما حدث مع قوم نوح- والبعض الآخر يقوم على عبادة الأحياء ، مثل عبادة الملوك والأبطـال الذين يحققون لأوطانهم انتصارات وتوسعات على حساب الأعداء ، هـــذه الانتصـــارات وتلك التوسعات سرعان ما ترفع أصحابها إلى مقام الإلهية ، فيعتقدون انهم يمتلكون قدرات تفوق قدرات البشر ، وتغذى الحاشية المنافقة هذه الأكذوبة لدى هؤلاء الملوك والأبطـال ، وتخرج أبواق الدعاية على الناس بنشرات يومية وشروح مطولة لتأكيد إلهية الزعيم الذي لم يخطئ مرة واحدة ، وتنتشر العيون بين الناس ترقب الذين يمكن أن يشككوا في إلهية الحاكم الإله ، وترتفع السياط لتكمم الأفواه وتفتح السجون لتمتلئ بمن يدخل في قلبه مثقـال ذرة من شك في إلهية الحاكم الإله . والتاريخ مملوء بالكثير من نماذج هؤلاء الحكام الآلهة ، مثـل نمرود إبراهيم , وفرعون موسى ، وغيرهم من آلهة الدول والإمبراطوريات القديمة اليونانية والرومانية والفارسية .

واخطر ما في هذه الثنيات أنها لا تقبل أي إصلاح ، ولذلك كثيرا ما انزل الله لعناتـــه على هذه الأمم القديمة فأهلكها ... وهذه سنة من سنن الله في خلقه ، فحيث يعدم الخير في أمة من الأمم يكون بطن الأرض أولى بها من ظهرها . أما إذا استمرت هذه الوثنيــــات في الوجود فإنها تدخل في صراع طويل ينتـــهي في الغـــالب بتوحيدهـــا ومـــن هنـــا تنشـــأ الإمبراطوريات العظمي ويهيمن على الإمبراطورية دين واحد وهو عبادة الإمبراطور الإله ، كما هو واضح في الإمبراطوريات اليونانية والرومانية والفارســـية ... والعلـــة في بقـــاء الإمبراطوريات الوثنية أنها في الغالب تمهد – بظلمها وبطشها ووثنيتها – لمبدأ سماوي جديـد

---

(١) يلجا الحكام إلى رجال دين منحرفين لكي يبرروا لهم أفعالهم ويبحثوا عن سند شرعي لانحرافاتهم ، وفي ظل البطش والطغيان يخضع الناس ويضيع المبدأ الحق.

ينشر الحق ويحكم بالعدل كما هو الحال مع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية بالنسبة للإسلام .

هذا فيما قبل الإسلام ، أما فيما بعد الإسلام فيمكن تقسيم تاريخ الدول من حيث المبادئ التي تحكمها إلى ثلاث مراحل :

لأولى دول المبادئ السماوية : من مجيء الإسلام وحتى سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية.

الثانية دول المبادئ الأرضية : من سقوط الخلافة العثمانية وحتى قيام دولة إسلامية عالمية أخرى .

الثالثة دول المبادئ السماوية : من قيام الخلافة الإسلامية حتى نهاية الحياة على الأرض.

هذا إلى جانب دول أخرى وثنية – كالبوذية والكونفوشيوسية – ولكنها بعيدة عن بؤرة الصراع العالمي والتي يحتلها الإسلام والنصرانية واليهودية .

(*) أما المرحلة الأولى : فلقد تشكلت الدول فيها على أساس المبادئ العقائدية ، فكانت دولة الإسلام العظمى والإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية هم الذين يشكلون تاريخ العالم في تلك الفترة ، ثم خرجت الإمبراطورية الفارسية من التاريخ على يد عمر رضى الله عنه ، واستمرت الإمبراطورية الرومانية في صراعها مع المسلمين حتى سقطت على يد محمد الفاتح رضى الله عنه ، وتوصل الغرب الصليبي بعد حروب طويلة مع الإسلام إلى سر قوة المبدأ الإسلامي ، ذلك السر الذي يكمن في قدرة مبدأ الإسلام على تحريك أبنائه على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي ، ولذلك أخذوا يعملون – بمؤامراتهم الخبيثة وحروب الطويلة – على تسكين الإسلام على المستوى السياسي ونجحوا في ذلك مستغلين ضعف الخلافة العثمانية ، وذلك بتقسيم الخلافة إلى دويلات منفصلة سياسيا ثم وجدوا أن هذا العزل السياسي بين الدول الإسلامية لم يسكن المبدأ الإسلامي تماما ، حيث ظلت حركات المقاومة الإسلامية على صلة مع بعضها البعض . فالإخوان المسلمون – مثلا – رغم الاحتلال البريطاني لمصر – يتحركون إلى فلسطين ويخوضون معارك عظيمة ضد اليهود ، حينئذ وجد الغرب أن خير وسيلة لتسكين المبدأ تماما هو

استبداله بمبادئ أخرى زائفة تضمن قطع علاقة المسلمين بعضهم ببعض ، فبدأ يزرع عن عمد القوميات (التركية - الفارسية - العربية) والوطنيات (الفرعونية - البابلية - الأشورية) ... ثم عمد إلى الفرد المسلم فمسخ شخصيته - كما سنوضح فيما بعد -.

(*) المرحلة الثانية : وقع العالم الإسلامي إذا في هذه المرحلة في ثنائية الدين والدولة وهي ثنائية غريبة على الإسلام ، فالإسلام دين ودولة لا ريب... ولكن النصرانية هي الأخرى انغمست - قبل ذلك - في هذه الثنائية ، إلا أن هذه الثنائية الغربية لها أصل ديني يتمثل في قول المسيح : "أعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ". وليس الأمر كذلك في الإسلام ، فقيصر وما يملك ملك لله سبحانه ، ومن ثم ففي الوقت الذي تبدو فيه دول أوربا النصرانية منسجمة تمام الانسجام مع دينها تبدوا دول العالم الإسلامي مضطربة تماما .

والانسجام يؤدى إلى التقدم ولذلك تقدمت دول أوربا ، والاضطراب يؤدى إلى الفوضى والتأخر ولذلك تعد دول العالم الإسلامي متأخرة رغم ما يتوفر لديها من إمكانيات التقدم ، أما دول النصرانية - الغربية خاصة - وأمريكا فدول منسجمة ومستقرة، والأمة المستقرة تفرغ نشاطها في البناء وتفرغ عبقريتها في الاختراعات فتنتج الدولة الحضارة ، ولذلك أنتجت الدول الأوربية جانبا كبيرا من الحضارة الحالية[1].

وفي الحضارة تكمن عدة آفات كفيلة بهدمها ، بعضها من صنع الإنسان ، وبعضها كامن في عملية النمو الحضاري نفسها ، وبعضها يرجع إلى الطبيعة التي هي أداة القدرة الإلهية ،فأما التي ترجع إلى الإنسان فأربعة هي:

الآفة الأولى " الظلم "، والظلم واضح في كافة الحضارات - عدا حضارة الإسلام - التي يشهد الجميع لها بالعدل والرحمة . فالحضارات الفرعونية - مثلا - قامت على القهر حتى أنه سخر في بناء الأهرامات - التي استمر بناؤها عشرون عاما - عشرين ألف شخص . والحضارة الأوربية والأمريكية الحالية قامت هي الأخرى على الظلم وعلاقة نهضة أوربا وأمريكا بزنوج أفريقيا - الذين كانوا يخطفوا من أرضهم - معترف بها في كتب التاريخ الأوربية نفسها ، وكما استغلت الحضارة الفرعونية في الاستعلاء والظلم - كما يتضح في

---

(١) لا ريب أن لهذه الحضارة الأوربية أصولها الإسلامية التي قدمتها العبقرية الإسلامية حينما كانت الخلافة مستقرة .

قصة موسى عليه السلام - فكذلك استغلت الحضارة الغربية والأمريكية اليوم في قهر العالم أجمع ... والظلم وقود الثورات وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

والآفة الثانية تتمثل في " الترف " الذي يزج بالأفراد والأمة إلى الإشباع واستثارة الشهوات ، وسوء الخلق كالانحرافات والشذوذ ، وقديما كانت اللعنات تهلك تلك الحضارات الفاسدة بسبب الترف وسوء الخلق . والترف من ناحية أخرى يؤدى إلى الفراغ الروحي ، والحضارة تميل على الجانب المادي على حساب الجانب الروحي ، ولذلك يبحث الناس عن المبدأ الذي يملئ لهم فراغهم الروحي ، ويمثل هذا استثارة فطرية للمبدأ النصراني يدعمها استثارة خارجية تتمثل في نمو قوة المد الإسلامي وقوة دولته العالمية ، ولذلك ستعود أوربا وأمريكا إلى النصرانية - التي فارقوها في الظاهر وان كان باطنهم مازال يحتفظ بها - مع عودة المسلمين لمبدئهم الإسلامي ، وعندئذ تعود المبادئ السماوية لتحكم حركة التاريخ من جديد .

والآفة الثالثة تتمثل في "الغفلة "التي تصيب الإنسان ، وذلك أن كل موجود يحتاج من موجده إلى يقظة يحافظ بها على وجود ما أوجده ، فعمل الله في الكون لم يقتصر على إيجاده بل امتد لحفظه ، وكل مصنوع كذلك يحتاج من صانعه إلى يقظة يحافظ بها على ما صنعه وإلا هلك وفني ، ولما كانت الحضارة صناعة الإنسان فهي تحتاج منه إذن إلى يقظة دائمة لحمايتها وإلا تعرضت للضعف والهلاك والزوال ، ولكن اليقظة الدائمة من الإنسان صعبة إن لم تكن مستحيلة لأنها ليست من سمة الوجود الإنساني ، لان هذا الوجود عرضة للضعف والمرض والفناء ، والنسيان يضرب بجذوره القوية في صميم كيانه ، وكل مصنوع من مصنوعاته يتصف ضرورة بصفاته .

وأما الآفة الرابعة التي ترجع إلى الإنسان فتتمثل في " ضعف المتعلم " إذ أن استمرار التقدم يحتاج بالضرورة إلى تفوق المتعلم على أستاذه ، وبهذا ينمو العلم ، وإلا تعرض للزوال والفناء إذا حدث العكس ، أي إذا اصبح المتعلم اقل علما من أستاذه ، وعندئذ ستتلاشى الحضارة وتزول وتفنى بالضرورة .وهذه الآفة خارجة عن إراد‹ الإنسان أيضا

.ولقد بين الإسلام ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعا ولكن ينزعه منهم مع قبض العلماء "(١).

وأما الآفة التي ترجع إلى عملية النمو نفسها فتتمثل في أن كل شيء يتجه إلى نهايته حتما طالت مدة بقاؤه أو قصرت ، فالزهرة – مثلا – تولد وتنمو وتنضج وتذبل ربما في يوم واحد أو أزيد قليلا ، والوردة أطول عمرا ، والخضراوات التي يأكلها الإنسان أطول والأشجار والنخيل أطول ، وهناك أشجار أطول وأطول ، ولكن الكل حتما سيموت ويزول وهذه سنة وضعها الله في الموجودات الطبيعية ... ونفس الأمر ينطبق على المصنوعات الإنسانية التي هي نتاج الحضارة وعامل نموها في الوقت نفسه ، وهذا ما يؤكده جان ماري بيلت : " انظر مثلا إلى الشركات الصناعية الضخمة كيف تولد وتنمو وتزدهر ثم تموت أو تتفكك وتعود مرة ثانية إلى وحداتها الأولى ، ولذلك ظهرت دعوة حالية في أوربا تطالب بضرورة العودة إلى العمل اليدوي"(٢) .

وفي الحضارة المعاصرة نجد عملية النمو تنطوي على آفات لا حصر لها تحملها نحو الموت بحيث يمكننا أن نقرر أن الصفة الرئيسية التي تتصف بها هذه الحضارة هي أنها " حضارة الموت ". ففي بدايتها أعلن نيتشه " موت الإله"... وبعد موت الإله تعلن البنيوية (٣) اليوم موت الإنسان الذي لم يعد سوى فكرة مجردة خلو من المضمون ، ولم يعد باقيا سوى مجموعات بنيوية من الثقافات واللغات التي تعد ظواهر موضوعية . أما الإنسان فلم يعد إلا ظاهرة عارضة جاءت نتاجا للتطور والبيئة ، فهو حبيس بنى باطنة (عقلية) وبنى خارجية (اجتماعية) سبقته إلى الوجود وهي تشكله وتوقع به وتغريه في كافة شؤونه

---

(١) رواه البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس – رقم ٦٧٨٣) . ومسلم (كتاب العلم – رقم ٤٨٢٨) . والترمزي (كتاب العلم عن رسول الله – رقم ٢٥٧٦) . وابن ماجة (المقدمة – ٥١) . واحمد (كتاب سند المكثرين من الصحابة – رقم : ٦٢٢٢ ، ٦٤٩٨ ، ٦٦٠٢) . والدرامي (المقدمة – رقم ٢٤١) . والمتن المذكور للبخاري .

(٢) نزعة في الدراسات اللغوية تهدف إلى بيان أن اللغة نظام مترابط الأجزاء ... وقد في سنة ١٩٢٨ [مراد وهبه :المعجم الفلسفي ، مادة بنيوية].

(٣)جان مارى بيلت : عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ، ص٣١-٣٣ .

وأحواله ... وبطبيعة الحال يؤذن موت الإنسان بموت الفن ، نظرا لان هذا يولـــد مـــن ذاك ... وبالنظر إلى أننا نعرف أيضا " أن الحضارات مآلها الفناء " فأنه لم يعد هناك ما هـــو قادر على البقاء سوى الطبيعة ، ولكن هاهي بدورها تحكم عليها أزمة البيئة بالزوال مـــا لم تفن في كارثة نووية . وهكذا فإنه : إذا كان القرن التاسع عشر قد قتل الإله ، وقتل القرن العشرين الإنسان فقد بقى على القرن الواحد والعشرين أن يقتل الطبيعة "(1).

وإذا كانت الهيمنة في المرحلة الأولى للمبدأ الإسلامي ودولته ، فان السيادة في هـــذه المرحلة يهودية غربية مشتركة ، فللغرب السيادة العسكرية ولليهودية المبدأ الذي أقـــاموا عليه دولتهم في فلسطين .

وأما العوامل الخارجية لهدم الحضارة فتتمثل في تدخل قدرة الله – من خلال الطبيعة – في صورة عمليات رفض طبيعية لهذه الحضارة تتمثل في صورة براكين وزلازل وأعاصـــير وأمراض ... الخ .

كل هذه العوامل لا تترك – بلا أدنى شك – فرصة للحضارة في الاستمرار والبقـاء في هذا الوجود ، بل كل حضارة – لا ريب – مآلها الفناء

(*) **المرحلة الثالثة** : وفي هذه المرحلة تعود السيادة مرة أخرى للمبـــدأ الإســـلامي ودولته فيستثير ذلك النصرانية في نفوس أبنائها فتعود مرة أخرى إلى حظيرة الدين النصراني ، وتشكل حروب المسلمين والنصارى التاريخ المتبقي من عمر البشرية ، وتختفـــي دولـــة اليهود من التاريخ ، ويعود المبدأ اليهودي للعمل – كعادته – من وراء الستار في تحريـــك الأحداث واستغلالها لصالحه . ولا يزال الإسلام في صراعه مع النصرانية واليهودية حـــتى يقضي عليهما وعلى غيرهما من المبادئ الوثنية ، وعندئذ تضع الحرب أوزارهـــا ويحكـــم الإسلام بدولته العالم اجمع .

وبعد فلنقف الآن مع قصة الصراع بين حزب الله وحزب الشيطان منذ فجر الخليقـــة وحتى نهاية التاريخ البشري حيث يرث الله الأرض ومن فيها ومن عليها لنرى كيف تحـــرك المبادئ هذا التاريخ .

الباب الثاني

[ما قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم]

الفصل الأول : عصر آدم عليه السلام .

الفصل الثاني : عصر نوح عليه السلام .

الفصل الثالث : عصر إبراهيم عليه السلام .

الفصل الرابع : موسى عليه السلام .

الفصل الخامس : عصر عيسى عليه السلام .

الفصل الأول

[عصر آدم عليه السلام]

(أ) ما قبل الهبوط :

الخير اصل الوجود كله ... الملائكة خير ... والحيوان خير ... والطير خير ... والنبات خير... الكل خير لأنه كله يسبح لله :{ سبح لله ما في السموات وما في الأرض }[الصف /١]، ولكن ثمة مخلوق جديد اقتضته إرادة الله سبحانه وتعالى ، إنه مخلوق يمتلك أن يشذ عن الوجود - شانه في ذلك كشأن الجن - يمتلك أن يُعرض عن سبيل الله ، يمتلك أن يكفر بالله وينكر وجوده أو يشرك به غيره . ولكنه يمتلك قبل ذلك أن يوحد الله ويعبده حق عبادته ، رغم ما يكتنفه من شهوات وأهواء .

هذا المخلوق اقتضته حكمة الله أن يكون مستخلف في كوكب الأرض يتولى عمارتها ... ولقد اخبر الله سبحانه وتعالى الملائكة بذلك ، واخبرهم سبحانه انه سوف يجعل في الأرض خليفة هذه صفاته ، فأثار ذلك العرض استفهامهم ودهشتهم ، خاصة وانهم اكثر المخلوقات طاعة وعبادة لله ، لذا كان الأولى - حسب علمهم القليل - أن يكونوا هم أولى بهذه الخلافة من هذا المخلوق الذي يمكن أن يسفك الدماء ، ويفسد في الأرض ، ولكنها إرادة الله الذي :{ يخلق ما يشاء ويختار }[القصص / ٦٨].

خلق الله آدم أبا البشر، ثم جعل منه زوجه حواء ، ثم أمر الملائكة أن يسجدوا لذلك المخلوق الجديد ، الذي سحب بساط القرب إلى الله تعالى من كل المخلوقات السابقة ، وخاصة الملائكة الذين سجدوا لآدم - طاعة لله - قال تعالى:{ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين }[البقرة / ٣٤]. فمن إبليس هذا ؟ انه من الجن . ولماذا لم يسجد ؟ لقد كان إبليس اقرب المخلوقات إلى الله سبحانه وتعالى لكثرة عبادته له سبحانه ، غير أن آدم ذلك المخلوق الجديد انتزع منه هذه المكانة مما أثار في صدره البغض والحسد والغيرة .

لقد استفسرت الملائكة ورأت - بعلمها القليل - أحقيتها بهذا الأمر . ولإبليس هو الآخر أن يستفسر ويرى - بأوهامه - ما يرى ، ولكن ليس لأحد أن يعص الله ، وهذا ما كان من الملائكة التي سلمت وأطاعت ، ولكن إبليس أبى واستكبر وكفر ، وليس له في كفره هذا من حجة . لقد قدم إبليس حجة خاوية مفادها انه افضل من آدم لأنه خُلق من عنصر النار ، بينما خُلق آدم من الطين ، فمن أين جاء إبليس بهذه المقولة الكاذبة ؟ من

أدرى إبليس أن عنصر النار افضل من عنصر الطين ؟! ثم كيف يجرؤ إبليس على أن يشرع لنفسه ؟! إن الذي يضفي الخيرية على الأشياء هو الله ، فهل اخبره الله أن عنصر النار افضل من عنصر الطين ؟! ولو كان الأمر كذلك لكانت الملائكة أولى بهذا الصنيع من إبليس لأنها مخلوقة من النور . وحتى إذا سلمنا جدلاً بان النار افضل من الطين فهل هذه حجة لعصيان الله ، إن هذه ليست بحجة ولكنه "الحسد يتضح من هذا الرد والغفلة للعنصر الكريم الزائد علي الطين الذي يستحق التكريم ، وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود"[1] . وبهذا الكفر والعصيان اصبح إبليس أول من شذ عن الكون الخيّر حيث اختار الشر متزعما بذلك هذا الاتجاه الشاذ الشرير ، الذي ليس له حجة من عقيدة أو منطق غير عقيدة الهوى ومنطق السفه .

بعد هذا الانحراف عن الخير اصبح لإبليس هدف واحد ، وهو أن يجر الإنسان ألي هاوية الشر ، قال تعالى : { قال فاخرج منها فإنك رجيم ، وان عليك لعنتي ألي يوم الدين قال رب فأنظرني ألي يوم يبعثون قال فانك من المنظرين ألي يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ألا عبادك منهم المخلصين }[ص / ٨٢] . من هذه الآيات الكريمات يتضح الأتي :

١- أن التمرد على الله ومنهجه ورسله ليس له جزاء إلا الطرد من رحمة الله .

٢- أن الجنة لا مكان فيها للتمرد والعصيان والكبر ، لذلك لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر .

٣- اتضاح غاية إبليس في الحياة ، وهى إغواء بنى آدم .

٤- بداية المعركة بين الشيطان وذرية آدم .

٥- استحالة القضاء على حزب الخير ، إذ أن هناك دائما فئة مخلصة ليس للشيطان سلطان عليها وهى حزب الله .

خُلق أبو البشر -آدم- في احسن تقويم { ولقد خلقنا الإنسان في احسن تقويم }[التين / ٤] . "وحسن التقويم هنا شامل للتكوين الجسماني البالغ الدقة والتعقيد العقلي

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، جـ٥ ، ص ٣٠٢٨

الفريد... بالإضافة إلى التكوين الروحي العجيب ... وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني ، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين"(٢) .

وعلى هذا فنحن المسلمين نُقبح – ومن منطلق عقائدي وعقلي – ذلك العبث الذي يقول به أصحاب نظرية التطور ، تلك النظرية التي ترتد بالإنسان إلى المستوى الحيواني . فآدم خُلق في اكمل هيئة ، وليس ثمة تطور اللهم إلا ذلك التطور في الوسائل التي يبتكرها الإنسان بين الحين والآخر لكي يحسن من أحواله المعيشية ، وغير ذلك فليس ثمة تطور حدث في جوهر الكيان الإنساني ، أما في فكر الإنسان وسلوكه فقد حدث العكس ، حيث وقع الإنسان في هوة سحيقة ارتدت به أسفل سافلين ، قال تعالى : { ثم رددناه اسفل سافلين }[التين / ٥] .

طُرد إبليس – زعيم الشر – من الجنة وتصدر آدم المخلوقات قربا وأفضلية عند الله سبحانه ، ووفرت له في هذه الجنة كل لوازم الحياة ، قال تعالى :{ وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظللين }[البقرة / ٣٥] ، ولكن إبليس لا يرضى لآدم هذا النعيم ، وهذا المقام الرفيع ، لقد أعلنها حربا صريحة على آدم وذريته { قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ألا عبادك منهم المخلصين }[ص / ٨٢].

عاش آدم في هذا النعيم يكتنفه الخير من كل جانب : خير قربه من ربه سبحانه ، وخير فطرته ، وخير الجنة ، وليس أمامه من "المختارات الشريرة" شيئاً . غير أن إرادة الله اقتضت اختبار آدم – الذي كان سبب في فتنة إبليس وتمرده وعصيانه – فكان لابد له أن يكون بعيدا عن ظن إبليس ، وكان لابد له أيضاً أن ينال هذه الدرجة العالية بجهده ، وإخلاصه،وصدقه مع الله . ولم يكن اختبار الله سبحانه له صعب بل سهل يسير يتمثل في نهيه عن أكل شيء واحد موجود بين ملايين الأشياء أو المختارات الخيرة ، قال تعالى :{ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين }[البقرة / ٣٥] . كل المختارات الموجودة في

(٢) المرجع السابق .

الجنة خير وحتى هذه الشجرة المنهي عنها هي خير وإلا لم توجد في الجنة لان الجنة ليس بها شر .

وعليه فهذا الاختبار سهل في حاجة إلى جهد كبير ، ولكن الصعوبة في هذا الاختبار السهل تأتي من حيث يترصد إبليس وينتظر الفرصة حتى يضل هذا المخلوق – المفضل عليه عند الله – ويجره إلى اسفل سافلين ، ويقدم لله صدق ظنه الذي يرى أن هذا المخلوق لا يستحق هذه المكانة ، وانه كان الأفضل والأولى بها .

وتمر الأيام وآدم في النعيم وإبليس يترصده لعله ينسى أمر الله له في غمرة هذا النعيم ، ويفكر إبليس بدوره هو الآخر في حيلة يزل بها آدم من هذا المقام العالي ، وكان أن واتته الحيلة الآتية " إنها حيلة تضخيم الممنوع " – المتمثل في تلك الشجرة - والتهويل من أمره . ونجح إبليس في ذلك حتى استطاع أن يضخم هذا الممنوع ويجعله يفوق كل المختارات الخيرة لدى آدم ، ذلك لان هذا الممنوع - كما اوهم إبليسُ آدم بذلك - يقدم لآدم ما لا يمكن أن يقدمه غيره من المختارات الخيرة ، لأنه يحدث ارتقاء في طبيعة الجوهر الإنساني ، إنها نقلة في النوع من المستوى الإنساني إلى مستوى آخر أعلى ، إلى المستوى الملائكي حيث الخلود الدائم الذي لا يشوبه فناء ، قال تعالى :{ فوسوس إليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى }[طه / ١٢٠] .

وهكذا خُدع آدم ، وأُهم بان المستوى الإنساني اقل من المستوى الملائكي ، وان وجوده مفتقر إلى الخلود . والحق أن الأمر ليس كذلك ، ليس الوجود الإنساني مفتقر إلى الخلود – دون المستوى الملائكي - لان الخلود في حق كل المستويات بيد الله سبحانه ، وقد كتب الموت على كل حي قال تعالى :{ كل نفس ذائقة الموت }[العنكبوت / ٥٧] . لذا فقد وقع آدم في المعصية حينما ظن أن موجودا غير الله بيده أمر ما ، ولكنها معصية النسيان وعدم الخبرة في مواجهة الشر . وستظل هذه الشجرة تعمل عملها في حركة الصراع بين الحق والباطل في ظل مقولة " الممنوع مرغوب" .

وهكذا استطاع إبليس أن يكسب له مساحة في الكيان الإنساني . لقد اخترق الكيان الإنساني من خلال هذا الثقب المسمى بـ "النفس الأمارة بالسوء " ، ذلك الثقب الذي

يُؤتى الإنسان دائما من قبله ، انه ثقب قابل للضيق والاتساع ، يضيق في ظل قوة الإيمان ويتسع في ظل غفلة الإنسان ونوم إيمانه .

ولقد نسي آدم ولكن إبليس لا ينسى ، وستنسى ذرية آدم ولكن إبليس لم ولن ينسى ، لقد اختار إبليس لنفسه طريقا ، نعم انه طريق الشر ، ولكنه أجاده وعرف كيف يسير فيه . أما آدم فقد وضع في الخير واكتنفته نعم الله وسكن الجنة واصبح اقرب الخلائق إلى الله ، انه لم يتعب ولم يجاهد لكي يصل إلى هذه المرتبة ، ولذلك يتضح - وكأنه سنة من سنن الله في الحياة - أن "ما أخذ بيسر فقد بيسر" . وكان لابد من العقاب ، والله عادل لا يظلم ، لقد طرد إبليس من الجنة لعصيانه ، بيد أن ثمة فارق جوهري بين عصيان آدم وعصيان إبليس ، عصيان آدم لا إرادي أوقعه فيه النسيان والحرص على الحياة وضعف العزيمة ، قال تعالى :{ ولقد عهدنا إلى آدم فنسي ولم نجد له عزما}[طه / ١٥٥] . أما عصيان إبليس فهو عصيان إرادي فيه إصرار وكبر ، قال تعالى:{ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى }[طه / ١١٦] . ومادام المعصية بعيدة عن الإصرار ، أو جاءت بعده توبة نصوحا فان باب رحمة الله مفتوح لمن طرقه ، قال تعالى : { ثم اجتباه ربه فتاب عله وهدى }[طه / ١٢٢] . بيد أن اكتناف الله لآدم برحمته لم تكن لترفع عنه العقوبة - الطرد من الجنة - كما أن التوبة من جريمة تستوجب الحد لا ترفع الحد .

كان لابد من الخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ، مسرح الصراع ، حيث إن الجنة ليست دار صراع بل دار خير وأمان ولا مكان فيها للغل والحسد . إذن كان لابد من الهبوط إلى الحياة الدنيا - دار الصراع ودار الاختبار - ليختبر فيها آدم وذريته ليتبين استحقاق من يستحق منهم الجنة ممن لا يستحقها . وهذا الاستحقاق لا يتحقق إلا من خلال الثبات على الفطرة الخيرة ، أو الارتقاء إليها بعد كل ذلة أو سقوط ، ومن سنن الله في خلقه ألا يرتقى أحد لهذا المكان إلا باستحقاق .

ولكن آدم ذل وهو في الجنة على الرغم من أن المختارات الخيرة - كما قلنا - كانت تكتنفه من كل جانب ، أما الآن فقد هبط إلى الأرض ، تلك الدار التي يمكن أن تكون المختارات الشريرة فيها متساوية مع المختارات الخيرة إذ أن كل أمر في قانون السماء يقابله نهي ، كما أن آدم نسي وهو في الجنة رغم قربه من الله سبحانه أفلا ينسى بعد أن فقد كل

ذلك ؟ إذن فما الضمان الذي يعاونه - وذريته من بعده - في صراعهم ضد الشيطان ؟ وما الحصن الذي يلوذون إليه عند كل ذلة ؟ وما المنهج الذي يصحح مسارهم عند كل انحراف ؟ وما الطريقة التي تساعدهم على الثبات على الفطرة أو الارتقاء إليها عند كل ردة إلى اسفل ؟

إن الذي يجيب على كل هذه الأسئلة ، ويحطم كل هذه المخاوف هو القانون الإلهي ، قال تعالى : { قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[البقرة / ٣٨] ، { قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى }[طه / ١٢٣] .

وطرفي الصراع كما حددها قانون السماء هو آدم وذريته وإبليس وجنده . بينما يهدف إبليس إلى جر الإنسان من موقع الأفضلية والصدارة عند الله - مستعينا في ذلك بالنفس الأمارة بالسوء - يهدف آدم إلى الحفاظ على هذه الصدارة - مستعينا في ذلك بالفطرة والرسالة -.

ومن هذا المنطلق فنحن المسلمين نرفض التفسير المسيحي - كما قدمه القديس أوغسطين - للتاريخ ، والذي يزعم فيه أن حركة التاريخ ناجمة من الصراع الدائر بين الله وبين الشيطان ، وما الإنسان إلا أداة لهذا الصراع . وهذه نظرية سيئة مشينة لا تستقيم مع العقل السليم للآتي :

أولا : أن القول بان الصراع بين الله وبين إبليس فيه تحقير لله سبحانه وتعالى ووضعه في مستوى مخلوقاته ، وفيه - في الوقت نفسه - تعظيم لإبليس ورفعه إلى مستوى خالقه .

ثانيا : أن الزعم بان الإنسان هو أداة الصراع يجعل من الإنسان دمية تتقاذفها أيدي الله وأيدي الشيطان ، في ذلك سلب لإرادته ، ومن سلب الإرادة رفعت عنه المسؤولية ، ورفع المسؤولية رفع الجزاء . فهل تنكر النصرانية الجزاء ؟

ب - ما بعد الهبوط :

هبط آدم ألي الأرض في جنوب بلاد الرافدين _ كما رجح المؤرخون - والتي كانت مهيأة في ذلك الزمن لاستقبال سيد المخلوقات وخليفة الله في أرضه . كانت الأرض كثيرة

الخيرات وفيرة الثمار ، وذلك أن آدم في حال هبوطه من الجنة - بنفسه المملوءة بالحزن - لا يمكن أن يكون مهيأ للمشقة التي تجدها البشرية في التعامل مع البيئة ، فكان توافر الخيرات رحمة من الله لآدم وزوجه ريثما يتعود على البيئة الجديدة ، وتستقر نفسيته ، ويعرف كيف يتعامل مع عالمه الجديد .

بدأ آدم عليه السلام يشارك أحياء الأرض في كثير من الأفعال التي تقتضيها سنن الكون من مأكل ومشرب ولباس وتناسل وغير ذلك ، وكان - كما قلنا - لا يجد مشكلة في التعامل مع عالمه الجديد ، ذلك أن الله كان قد : { علم آدم الأسماء كلها }[البقرة / ٣١] . وكان مما شارك فيه أحياء الأرض فعل الإنجاب ، فانجب ابنين امتلكا بعض جنات الأرض بأنهارها وثمارها وحيواناتها ، وهذا يؤكد - كما علمنا الإسلام - أن الملكية الخاصة ولدت مع ميلاد البشرية ، أما ما قلته البشرية الكاذبة بان المجتمع الأول كان مجتمعا شيوعيا يشترك فيه الكل في ملكية كل شيء فكذب وجهل وهوى .

أراد كل من الأخوين أن يتقرب إلى الله ليكون الأقرب إليه ، فتقرب أحدهما بأحسن ما عنده ، واخلص فيه النية لله ، بينما تقرب الآخر بأسوأ ما عنده ، فتقبل الله من الأول ولم يتقبل من الآخر ، فوقع في نفسه الحسد من أخيه ، فسولت له نفسه قتل أخيه فقتله ، قال تعالى :{ واتل عليه نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فُتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخي فاصبح من النادمين }[المائدة / ٢٧ - ٣١] .

منذ هذه اللحظة استطاع الشيطان أن يصدق ظنه على جزء من ذرية آدم ، استطاع أن يكسب نصيبا من هذه الذرية ، نصيب يحمل لواءه في مواجهة لواء الخير . وبذلك امتد الصراع ليشمل النفس البشرية والمجموعة البشرية على السواء بعد أن كان محصورا في حدود النفس البشر فقط . وبذلك اصبح ابني آدم أول تجسيد واقعي لنوازع النفس

الإنسانية ، أحدهما يمثل أول نموذج واقعي" للنفس اللوامة " التي تمثـــل حـــزب الله ، في مواجهة أول نموذج واقعي" للنفس الأمّارة بالسوء" التي تمثل حزب الشيطان .

وهكذا بدأت البشرية أول خطوة من خطوات تاريخها باعتداء صارخ من جانب حزب الشيطان على حزب الله ، جاءت أول خطوة لتشير إلى الشر والعدوان الكامنين في أعمـق طبيعة حزب الشيطان ، ذلك الحزب الذي فقد ذاته وسقط من مكانه الذي وضعه الله فيـه ، سقط إلى اسفل سافلين ، أدنى أدنى مستوى من مستويات الوجود ، أي المستوى الحيواني ، حيث عجز عقله عن أن يرتقي إلى مستوى الغراب .

مضى الحدث ومضى ورائه غيره من الأحداث ، وتكاثرت البشرية ولكنه تكاثر شـب على أخلاق الأنانية – والشر اللتين زرعهما الشيطان في الأرض منذ فعلة ابن آدم الشنيعة – حتى انتهى بهم الحال إلى عبادة الأصنام .

الفصل الثاني

[عصر نوح عليه السلام]



تمثل هذه الفترة تدخل العناية الإلهية لرفع الإنسانية مما آلت إليه من إفساد وكفر، ذلـــك الكفر الذي كان يزداد يوما بعد يوم ، وذلك لأن التكاثر في البشرية كان يقوم على أساس كافر فاسد . يتوارثه الأجيال جيل بعد جيل . فكان لابد من بناء الحياة البشرية من جديـد على قواعد الخير .

اتخذت البشرية - بإيحاء الشيطان وأعوانه - لها أصناما تعبدها من دون الله ، ترجـو نفعها ، وتتقى شرها ، فبعث الله لها نوحا عليه السلام فدعاها إلى إفراد الله تعالى وحـــده بالعبادة ، فلم يؤمن معه إلا قليل رغم طول الزمن الذي لبثه نوح عليه السلام في قومـه ، حيث لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، لم يترك فيها وسيلة من وســائل الدعـوة إلا دعاهم بها تعالى :{قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنتم صادقين }[هود /٣٢-٣٣] . وأوحى الله تعالى إلى نوح - الذي لم ييئس ولم يتكاسل أبداً ولم يثنيه إعراض القوم الدائم عن الاستمرار في الدعوة بكل الوسائل - أن أحدا من قومه لن يؤمن بعد إلا من قد آمن منهم ، قال تعالى : {وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يعملون }[هود/ ٣٦] ، من أجل هذا دعا عليهم نـوح عليـه السلام، قال تعالى : {وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا}[نوح/٢٦-٢٧] .

واستجابة لدعوة نوح أوحى الله إليه أن يصنع الفلك لتحمله واتباعه أثناء عقـاب الله سبحانه لقومه . وجاء الطوفان ليعاقب أولئك الذين أعرضوا عن منهج الله ، وسقطوا سواء على مستوى ذواتهم أو على مستوى الجماعة ، فعلى مستوى ذواتهم سيطرت عليهم النزعة الشريرة قال تعال على لسان نوح عليه السلام : {وإني كلما دعوتهم لتغفر لهـم جعلـوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا}[نـوح/٧] . وعلـى المستوى الجماعي كانوا يتواصون بالثبات على الإثم والعدوان والشرك :{وقالوا : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا }[نوح / ٢٣] . فليس أذن ثمة أمل يشير إلى إمكان انتصار أحد من هؤلاء القوم على نفسه الشريرة .

انتهى نوح عليه السلام من صناعة السفينة "وركب بها من قد آمن معه ، وســاق الله السحاب فهطلت أمطار غزيرة، وانبجست ينابيع كثيرة ، وطغى البحر في منطقة الخليـج

العربي ، وارتفعت مياه البحر المتوسط حتى اتصلت المياه بعضها مع بعض ، وامتلأت المنطقة بالمياه وفاضت ، وتحركت السفينة باتجاه الشمال حتى رست على جبل الجودي في شرقي تركيا اليوم ، أو ما يسمى الآن جبل (أرارات) ، حيث كانت تلك المرتفعات تعتوا على المياه ، ثم انحسر البحر ، وهدأت الأمطار ، وغاضت وجفت العيون ، وخرج ركاب السفينة منها ، واستقروا هناك وبدا انتقل مقر السكان من جنوبي بلاد الرافدين إلى المنطقة الجبلية في الشمال وبدأت زيادة السكان مرة ثانية في تلك الجهات ، وتكاثر أبناء سيدنا نوح عليه السلام -سام وحام ويافث - الذين ركبوا معه السفينة([1]).

شمل الطوفان كل أحياء الأرض ، ولهذا أمر الله سبحانه نوح عليه السلام أن يحمل فيها جميع الأحياء ، من كل نوع زوجين ، ولو كان هناك أحياء مماثلة في غير هذه البقعة من الأرض الذي حدث فيها الطوفان ما كانت هناك حاجة لحمل كل هذه الأزواج من الأحياء ، قال تعالى : {فأوحى إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبي في الذين ظلموا إنهم مغرقون}[هود/٢٧]. وهكذا عادت البشرية أمة واحدة مؤمنة كما بدأت أمة واحدة { كان الناس أمة واحدة فاختلفوا }[يونس /١٩] .

وكثرت البشرية مرة أخرى ، واختلفت ، والاختلاف يولد الصراع ، والصراع يولد الفرقة ، فكان الأضعف هو الذي يترك المكان دائما للأقوى ويرحل إلى مكان آخر، ولهذا كانت الحرب ضرورة لانتشار البشرية في ثلاث مناطق رئيسية هي : المنطقة التي استقرت بها السفينة ، وبلاد الشام ، شمال شرق أفريقيا (مصر)وهذه هي المناطق الثلاثة إلى زارها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فيما بعد.

ولما كانت مناطقها التي وصلت إليها حديثا لا توجد فيها حاجاتها الأساسية من طعام ولباس ومأوى اضطرت أن تتخذ مما تقدمه لها تلك البيئة من مواد ، فمن أقام منها في المناطق الحارة لم يكن بحاجة إلى لباس فظل عاريا ، وإنما ستر عورته بلحاء الشجر وأوراقه ، ومن عاش منها في البلاد الباردة اتخذ من جلود الحيوانات التي وجدها واقتات بها لباس وريشا ، وكما استفادت من موارد بيئتها في اللباس ، استفادت منها في الطعام والسكن ،

(١) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي جـ١، ص٣٦ .

فهذا الإنسان الذي عاش في المناطق الحارة قد عاش على جمع الثمار والتقاط النباتات، والجذور الدرنية ، وسكن جذوع الأشجار ، وعلى أغصانها ، وبنى من أطرافها أكواخ على فروعها ، وذاك الذي عاش في المناطق الباردة قد أقام حياته على لحوم الحيوانات واتخذ من عظامها أدوات له ، وبنى من الثلج له كوخا ، يأوي أليه شتاءً ، وفي الصيف من الجلود والإهاب أقام خياما يسكن فهيا ويجمع صيده . وكما كانت هذه الجماعات قد وجدت في أماكنها الجديدة التي حلت فيها أشجارا غير التي اعتادت أن تراها في بيئتها القديمة وعرفت نباتات لم تكن تعرفها من قبل ، وتعرضت لحيوانات لم تكن تتعرض لها في السابق ، لذا فقد أطلق كل بطن من القبيلة على هذه الأشياء أسماء خاصة يعرفها هو لا سواه ويدعوها بها دون غيره ، ومن هنا لم تعد تعرف البطون لغة بعضها الآخر بل عاش كل في متاهه وضل كل في مجاهله "(١).

وكما أثرت البيئة الجديدة على الإنسان في مسكنه وملبسه ولغته فقد أثرت أيضا في صفاته الجسمانية ، حيث وجدنا سكان المناطق الحارة يتميزون باللون الأسود والأنف الكبير الذي يستقبل قدرا كبيرا من الهواء للحصول على اكبر قدر من الأكسيجين ، بينما سكان المناطق الباردة يتميزون باللون الأبيض والأنف الصغير اللذين يتفقا وبرودة الجو ، وأما سكان المناطق المعتدلة فيختلفون عن هؤلاء وهؤلاء في الكثير من الصفات . فاختلاف الصفات الجسمانية من طول وقصر ولون وشعر ولون العينين وشكل الشعر ولونه ...الخ إنما هي من اثر البيئة التي ظلت تعمل عملها في سكانها حتى تحولت هذه الصفات بمرور الزمن إلى صفات وراثية .

غير أن الجاهلية (حزب الشيطان) اتخذت من لون البشرة وسيلة للسيطرة والقهر وسفك الدماء ، معتقدة أن أفضليتها بلونها الأبيض على غيرها من الأجناس الملونة ، وهذه هي طبيعة حزب الشيطان انه يشرع لنفسه ولمصلحته على حساب الآخرين ، ولذلك نقول أن الحياة الكريمة للإنسانية لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل حزب الله ، لأنه في ظل هذا الحزب لا فضل لامة على أمة ، ولا لشعب على شعب ، ولا لفرد على فرد إلا بالتقوى ، قال تعالى :{ إن أكرمكم عند الله اتقاكم }[الحجرات / ١٣] .

---

(١) المرجع السابق .

ومن الملاحظ أن البشرية في تلك الفترة كانت على قدر كبير من التقدم الصنـــاعي ، فالسفينة التي صنعها نوح عليه السلام تؤكد ذلك ، فصناعة السفينة تعتمد على الخشب ، ولابد لنشر الخشب من منشار ، ولابد من وجود المسامير مما يعنى أن الإنسان عرف المعادن ، وعرف طرق استخراجها ، وعرف طرق تحويلـــها مـــن صورتهـــا الطبيعيـــة إلى آلات يستخدمها في صناعاته ، ومن هنا نقول أن هذا العصر عرف الصناعة الشاملة المنظمـــة ، فصناعة سفينة تجري في موج كالجبال يدل على دقة فائقة في صناعتها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن المجتمع كان متقدما في مجالات أخرى كالطب والفلك(١).

ونتيجة لتعدد التجمعات البشرية ، وتعدد القبائل تعددت رسل الله ، فأرســـل الله في كل أمة رسولاً يذكرها بمنهج الله ، قال تعالى :{ وان من أمة إلا خلا فيها نذير }[إبراهيم / ٤] . وإزاء هذه الرسل تباينت مواقف الناس فآمنت طائفة وكفرت طائفة ، ولذلك فقد تعددت أحزاب الله وأحزاب الشيطان ، وستستمر هكذا حتى تتحد في ظل رسالة محمـد – صلى الله عليه وسلم – العالمية .

---

(١) د / جمال عبد الهادي وآخرين : التاريخ بين الحقيقة والتضليل ، ص ٨٥ .

الفصل الثالث

[عصر إبراهيم عليه السلام]



ولد إبراهيم عليه السلام ببابل من ارض السواد (الوركاء أو أور) بـأرض الرافدين ، وينتسب إلى أبيه آزر ، وينهى نسبه - كما حكى كثير من المؤرخين - إلى سام بن نوح عليه السلام ، أي انه وقومه من سلالة المسلمين الناجين من الطوفان ([1]). وفي هذه الفترة كان قد اصبح للشيطان رصيد في الميراث التاريخي للبشرية ، قال تعالى :{ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين }[الأنبياء / ٥١ - ٥٢] .

أراد إبراهيم - بوحي من ربه - أن يخلص هذا المجتمع من أوحال الشرك فوجد عليه السلام - وبوحي من ربه أيضا - أن اقرب طريق لانتشال الإنسان من هذا السقوط هو أيقاظ الفطرة ، وكاد عليه السلام أن ينجح في ذلك ونطقت الفطرة فعلا ، غير أن القوم أصروا على العناد والكفر واضعين أصابعهم في آذانهم أمام صرخات الفطرة التي أكدت لهم فساد عقيدتهم ، قال تعالى :{ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا انه من الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا : فآتو به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا : أأنت فعلت هذا بإلهتنا يابراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم انتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون }[الأنبياء / ٥٥ - ٦٦] .

وجادل إبراهيم عليه السلام الحاكم الذي ادعى لنفسه الإلوهية ، قال تعالى :{ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال : أنا احي وأميت قال إبراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فات به من المغرب فبهت الذي كفر }[البقرة / ٢٥٨] .

وقبل أن يدعوا قومه ويدعو الحاكم فقد دعى أهل بيته ، قال تعالى :{واذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

يغني عنك شيئا }[مريم /٤١-٤٢] . فكان في مقابل ذلك موقف كله جهل وتهديد ووعيد من والده الذي قال له : { أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجـــرني مليا }[مريم / ٤٦] . ولكن التهديد والوعيد يقابلان – من جانب إبراهيم عله السلام – بالرحمة والبر ، قال تعالى :{ سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيـــا }[مـــريم / ٤٧].

هكذا كان موقف حزب الله بقيادة إبراهيم عليه السلام الذي أراد أن ينتشل هـــؤلاء من براثن الكفر ، وهو في محاولته هذه إنما أراد أن يحطم الأغلال والحواجز الـــتي تحتجـــز وتحجب صوت الفطرة ونداءها ، ولقد وجد إبراهيم - بوحي من ربه - أن اقرب طريق إلى الفطرة إنما هو إيقاظ العقل المعطل باستخدام الحجج وتقديم البراهين والأدلة ،ذلك الطريق الذي هو دائما طريق أهل الحق ، قال تعالى : { قل هاتوا برهـــانكم إن كنتـــم صـــادقين }[البقرة / ١١١] . ولكن حزب الشيطان يقابل هذا الإلزام العقلي والمنطقي بالأتي :

أولا : عماء عقلي ، يجعلهم يضعون عقولهم تحت أقدامهم ، ويصيبهم بالصمم أمام كـــل الأدلة القاطعة التي قدمها إبراهيم إليهم ، كما جعلهم يتشبثون بميراث الآباء والأجداد دون التعرض لها بنظر أو تدبر .

ثانيـــا : العناد والإصرار على الكفر : الذي دفعهم بدوره إلى إخماد صوت الفطـــــرة في أنفسهم .

ثالثـــا : اللجوء إلى القوة والبطش لإخماد صوت الحق : وهذا الأمر يحدث عند كل انهزام عقلي ، فلم يقتل ابن آدم أخاه إلا بعد أن انهزم القاتل عقليا ونفسيا أمام أخيه ، وكذلـــك فعل قوم إبراهيم معه بعد انهزامهم عقليا ونفسيا فحاولوا قتله حرقا بالنار . إن البطش دائما هو أسلوب حزب الشيطان .

وبعد أن أدى إبراهيم عليه السلام الأمانة التي حمله الله سبحانه إياها إلى قومه ، كـــان لابد له أن يقطع الصلة بينه وبينهم لما أصروا عليه من رفضهم لمنهج الله فتبرأ منهم ليعلـــم اتباع الحق انه لا صلة ولا علاقة ولا رابطة لمن رفض رابطة الدين ، قال تعالى :{ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآؤا منكم ومما تعبدون مـــن دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة حتى تؤمنوا بـــــالله

وحده }[الممتحنة / ٤] . وكان من نتيجة هذا الموقف المتعنت لقوم إبراهيم أن رحل من بلاد الرافدين إلى بلاد الشام ثم إلى مصر - وكانت هذه هي مناطق التجمع البشرى الرئيسية في العالم آنذاك - وهو في كل أسفاره هذه إنما يقصد نشر دين الله ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور . فظل في حركته هذه يكسب اتباعا حتى اصبح لديه من اتباعه من يستطيع أن يقاوم الباطل بهم - بعد أن رباهم تربية إيمانية جعلتهم يتفوقون على ذواتهم - فخرج بهم إلى الشام ، وجادل أهلها وبين لهم فساد عقيدتهم بالحجج والأدلة العقلية .

ويخشى الكهنة والحكام - كما يقول السحار - من هذه الدعوة وخطرها الذي استفحل ، فيقررون إبادة القلة المؤمنة ، وكان إبراهيم في ذلك الوقت قد بلغ القدرة بحيث يقاوم الباطل . فاعد لهم ما استطاع من قوة وخاض معركة حامية الوطيس بالخناجر والرماح والفؤوس ضد المشركين ذوى القوة والسطوة والطاغوت . وتتدخل إرادة الله وتهزم القلةُ المؤمنةُ الكثرةَ الباغية ويفتح الله على نبيه إبراهيم دمشق . ويدخل دمشق - كشان حزب الله دائما - لا ناقما حاقدا بل داعيا مجاهدا ، وبعد أن تخضع لسلطان الله وشريعة الإسلام يتابع مسيرته في الأرض كي يبلغ دعوة الله ، فتدين له سورية بكاملها حتى يقترب من إليا - بيت المقدس - ويدخلها ، وهناك يحقد الكنعانيون عليه ، فتمضى وفودهم إلى مصر طالبة إنقاذ بيت الله - القدس - من شر إبراهيم ، ويبعث ملك الهكسوس بجيش إلى القدس وتدور معركة عنيفة ... لم تنتهي لصالح الطرفين بشيء ، فيعود المصريون خائبين ولكنهم حملوا سارة أسيرة(١). ولكن هذا الصراع ينتهي بالصلح وفك اسر سارة وإعطائها جارية لها وهى هاجر التي تزوجها إبراهيم عليه السلام بعد أن سمحت له زوجته سارة بذلك .

ووجه إبراهيم - عليه السلام - لوطا - عليه السلام - بوحي من ربه - إلى أهل سدوم في الأردن ، ولقد كانت مهمته في غاية الصعوبة لأنه واجه قوم رسموا اقبح صورة لحزب الشيطان وانحرافه عن الفطرة ، قال تعالى :{ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم

(١) الغضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ، ص ٧٥.

مسرفين ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله ألا أمرته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين }[الأعراف/٨٠-٨٤] .

وهكذا تكشف لنا قصة قوم لوط - كما يقول الأستاذ سيد قطب - عن لون خاص من انحراف الفطرة([1]). وعن قضية أخرى غير قضية الإلوهية والتوحيد . أن الاعتقاد في الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه . وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشرية ذكرا وأنثى . وان يجعلها شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ، وان يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل ، وان يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى . ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء مجهزين عضويا ونفسيا لهذا الالتقاء ... ويبدو انحراف الفطرة واضحا في قصة قوم لوط ، حتى أن لوطا ليجابههم بأنهم بدعا دون خلق الله فيها ، وانهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين ، قال تعالى :{ ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون }[الأعراف / ٨٠ -٨١]([2]). وهكذا يتضح أن حزب الشر دائما في انحراف تام عن الفطرة لأنه في انحراف دائم عن الشرع ، ومن خرج عن الشرع - كما قلنا سابقا - فقد خرج عن الفطرة ، ولا يخرج عن الفطرة إلا كل منحرف عن الشرع .

هاجر إبراهيم إلى حبروت - الخليل - وهناك رزقه الله إسماعيل([3]). ثم جاء الأمر من الله لإبراهيم بالتوجه بابنه إسماعيل وهاجر زوجته إلى ارض الله في الجنوب حيث تركهم لله وعاد([4]). ثم رزقه الله من سارة ابنه الثاني إسحاق ، الذي رزق هو الآخر بيعقوب . وتربى إسماعيل بين القبائل العربية ذات الفطرة النظيفة التي حافظت عليها الصحراء وطبيعتها الجافة ، والتي اقتضتها الإرادة الإلهية أن تربى في الصحراء إعدادا لها لحمل لواء حزب الله

---

(١) الصحيح عندنا أن انحراف عن الفطرة .

(٢) الغضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ، ص ٧٨.

(٣) المرجع السابق ، ص ٨١.

(٤) المرجع السابق .

في الوقت الذي يريده الله . ومن نسل إسحاق جاء يعقوب (إسرائيل) أبو اليهود ، أولئك الذين اقتضتهم إرادة الله حاملين لراية الحق ، في فترة زمنية قبل العرب امتدت ابتداء مـــن أبيهم يعقوب وحتى عيسى عليه السلام عليه السلام ، ولكنهم لم ينجحوا في حمـــل هـــذه الراية وفشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً . فاليهود أمة فاشلة ساقطة .ويعلم إبراهيم عليه السلام ، قبل أن يتوفاه الله ، حزب الله أمرا في غاية الأهمية ، آلا وهو أمر التوريـــث ، توريـــث الإيمان والتوحيد ، قال تعالى : { يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتـــن إلا وانتـــم مسلمون }[البقرة / ١٣٢]



الفصل الرابع

[عصر موسى (موسى والأمة الساقطة)]



أُرسل موسى عليه السلام إلي أبناء قومه من اليهود أبناء يعقوب (إسرائيل) ابن إســحاق بن إبراهيم عليه السلام ، والذين دخلوا مصر في عهد يوسف عليه السلام . وفي مصـــر اكتسب اليهود كثيراً من صفات الذل والمهانة والسخرية والعبوديــة لغــير الله ، حيــث الفراعنة سكان مصر يذبحون أبنائهم ويستحيون نساءهم ، لما كان يبدر منهم من المواقــف المشينة والخيانات المتكررة .

وبالغ الفراعنة في اضطهادهم لليهود مبالغة وضعتهم في مصاف دعاة الوطنية المتعصبين . فالباحث في ذلك المجتمع يجد أن هؤلاء الفراعنة كانوا عنصريين أكثر من دعاة العنصريــة والقومية والوطنية الحديثة ، والظاهر أن اليهود قد أخذوا هذه العنصرية مــن الفراعنــة فزعموا – فيما بعد – أنهم أبناء الله وأحباؤه أي" شعب الله المختار" وإنه لذلك لن يدخلهم النار ولا يعذبهم أبدا .

جاء موسى عليه السلام إلي هذا الشعب المستعبد ليخلصهم من ذلك السخرية وذلـك الاستعباد ، ويجعلهم سادة وأئمة يحكمون الأرض بمنهج الله الذي أنزله الله عليه ، وكــان المتوقع أن يسارع اليهود بنصرة هذا النبي ، ولكن يبدوا أن السخرة والمهانة والذل قـــد تحولوا بمرور الزمن إلي صفات وراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، لذا فقد جاء موقفهم علي غير ما يتوقع حيث تكاسلوا في استجابتهم لنبيهم ، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد بـــل وصلت بهم السفاهة إلي حد الشك في رسالته وإيذائه . كان علي موسى أن يــنزع هــذا الشعب من أسرين ، أسر فرعون ، وأسر نفسه – وهو الأهم – ويســير بهــم إلي الأرض المقدسة حيث أمره الله ، وكان عليه أن يوقظ هذا الشعب النائم ويحيي مواته ، وكان عليه أن يواجه من ناحية أخري عناد الفراعنة وعنصريتهم ، فنفذ أمر الله ، واستخلص شعبه هذا – بآيات الله ومعجزاته الربانية – من براثن الفراعنة ، وخرج بهم إلي أرض فلسطين .

وفي الطريق إلي فلسطين تبين أن هذا الشعب غير صالح لحمل هذه المسئوليات الجسام ، لأنه شعب منهزم علي مستوي ذاته ، فهو عاجز عن مقاومة شهوات بطنه قال تعــالي :{ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر علي طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض مــن بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو ادني بالذي هــو خــير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباء وبغضب من الله ذلك

بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون }[البقرة /٦١]. وقالوا : " من يطعمنا لحماً قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكرث والبصل والثوم ... والآن يبست أنفسنا ليس شئ غير أن أعيننا على هذا المن" [عدد / ١١] .

والساقط على مستوي ذاته ساقط على مستوي الآخرين ، والمنهزم أمام نفسه منهزم- لا محالة - أمام الآخرين . إذ كيف يمكن لشعب مدلل أن ينتصر علي غيره ؟ لذا كانت النتيجة العادلة لانهزام هذا الشعب أمام نفسه أن ينهزم أمام الآخرين . قال تعالي :{ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا علي أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون }[المائدة / ٢١-٢٢] ، {قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين }[المائدة /٢٤].

ومن هنا يبدو التحول من قطب الخيرية إلي قطب الشر واضحاً ، لذا كان لابد من عقاب ، عقاب من لون جديد ، فحيث كلت أيديهم فلم تحمل راية الكفاح في الوقت الذي تؤيدهم فيه المعجزات ، وحيث كانت سنة الله في الدعوات أن الطريق إلي النصر مفروش بالأشواك ومخضب بالدماء ، فعلى هؤلاء العجزة المتثاقلين إلي الأرض أن يفسحوا الطريق لغيرهم من القادرين ، وعلي الذين قابلوا رزق الرازق بالذل والمهانة أن يسلموا الراية للجيل الصاعد حتى يدخل الأرض المقدسة التي كتب الله لهم . قال تعالي : { قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس علي القوم الفاسقين}[المائدة /٢٦] . وهكذا جاء العقاب من جنس العمل .

ولم يكن رفض اليهود لأمر نبيهم وتخلفهم عن الجهاد وعن دخول الأرض المقدسة هي الجريمة الوحيدة التي اقترفوها ، بل إنهم اقترفوا الكثير من الجرائم في حق الله ، وفي حق البشرية ، بل وفي حق أنفسهم وذرياتهم ، فانحرفت بهم جرائمهم هذه عن منهج الله سبحانه ، وغلبت عليهم شقوتهم فلم يروا إلا ما رأته أعينهم وأنكروا ما وراء المادة ، ولذلك امتدت أيديهم إلي رسالة نبيهم موسى بالتحريف والتبديل والإخفاء والتأويل .

وكان من نتيجة غلوهم المادي أن خرجت عنهم إلى الوجود غالبية المذاهـــب الإلحاديـــة والمادية .

والعجب كل العجب أن اليهود مازالوا يعتقدون صدق فكرهم الكاذبة القائلة أنهـــم " شعب الله المختار " ، والحق أنهم " حزب الشيطان الأشرار " . وستظل هذه الفكرة الخبيثـــة هي الفكرة الأساسية التي تحرك اليهود في كل وقت ، وســـتدفعهم دائمـــا إلي الرغبـــة في السيطرة علي العالم بالاستيلاء علي مقدرات الشعوب وأقواتها ، ومنهجهم في ذلك " الغايـــة تبرر الوسيلة " ، فغايتهم هذه لا تمنعهم من تسخير النساء ، وترويج المخدرات ، والتعـــامل بالرشوة ، والتلاعب بالأفكار البراقة كالإنسانية وحقوق الإنسان التي تلعب بها منظمـــاتهم الفاسدة كالماسونية وتوابعها ، والسيطرة علي وسائل الإعلام والســـينما ، والتغلغـــل في المنظمات العالمية كالأمم المتحدة ، ومساعدة النظم الفاسدة كالنظام الشيوعي ، وتســـخير المفكرين لخدمة الأهداف اليهودية مثل ماركس ونيتشه وداروين وسارتر لبث أفكـــارهم الخبيثة في أوساط المفكرين ، وإعطاء الجوائز للمنحرفين عقائديا وفكريا مثل جائزة نوبـــل التي منحت للأديب المصري نجيب محفوظ الذي يسخر في بعض رواياته بالله وأنبياءه .



الفصل الخامس

[عصر عيسى عليه السلام]



أصبح اليهود - بكثرة عصيانهم وتمردهم علي أنبيــاءهم - لا يعرفــون معروفــا ولا ينكرون منكراً ، ولا يؤمنون إلا بما يرون ، ولا يعتقدون إلا فيما هو ماثل أمام أعنيـــهم . لقد سيطرة المادية علي سلوكهم وأفكارهم فكان لا بد من تصحيح المسار علي يد نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام .

جاء عيسى عليه السلام ليصحح مسار أولئك الذين انحرفوا عن منــــهج أنبيائــهم ، ولذلك لم يأت بشريعة جديدة ، وفي ذلك يقول:" ولا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل" [متى ١٧:٥] .

كان على عيسى عليه السلام أن يخفف من وطأة المادية علي النفوس التي ســقطت في قاع هذه المادية ، وكان لا بد له عليه السلام أن يعمل علي إفساح المجال للــروح لكــي تسمو ، وللفطرة لكي تنطق بالحق ، فكانت حياته كلها معجزات منذ ميلاده وحتى رفعــه الله إلى السماء ، معجزات تخرج الروح من أسرها وترتقي بالفطرة من دنوهــا ، فكــانت معجزات الإحياء من الموت والإبراء من الأمراض المزمنة ، ورد البصر في العميان بإذن ربه ... الخ . ولكن المادية مازالت تسيطر ، وشهوة البطن مازالت تلح ، فينزل الله مائدة مــن السماء بناءاً علي طلبهم قال تعالي :{ وإذا قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يســتطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء }[المائدة / ١٢٢].

وإزاء نبوة عيسى عليه السلام انقسم بنوا إسرائيل إلى حزبين يتبع أحدهم النبي الكريم مكونين حزب الله ، وحاملين راية الحق ، ويتبع الأخر الشيطان ليحملوا راية الباطل ، قــال تعالى : { فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا علي عدوهــم فأصبحوا ظاهرين }(*) [الصف /١٤].

ثم بالغ اتباع المسيح عليه السلام - من بعده - في هذه الروحانية حــتى انتــهوا إلي رهبانية ألزموا بها أنفسهم أمام الله رغبة في التقرب إليه وإرضاءه ، فبالغوا في اعتزال الدنيــا

(*) استمر ظهور أهل الحق على أهل الباطل فطرة طويلة من الزمن تزيد على ثلاثة قرون ، حــتى جــاء الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٥م ، واستطاع أن يغلب أهل الباطل - من القائلين بالاثنين والتثليــث - على أهل الحق الموحدين بقوة السيف والبطش .

وإهمال الجسد ... غير أهم لم يتحملوا هذه المشقة القاسية المخالفة لسنن الفطرة . فالإنسان عقل وجسد وروح ، لكل متطلباته ، والإنسان السوي هو ذلك الذي يستطيع أن يوازن بين متطلبات الروح والعقل والجسد ، فمن أهمل مطلب أحدهم فليس بسوي . ولكن اتباع عيسى عليه السلام أخذوا علي أنفسهم عهداً ولا بد أن يوفوا به ، ولكن الوفاء صعب ، وما دامت علاقتهم بالله وسيلتها القلب فلا شيء أذن من اقتراف الآثام والذنوب ثم يفعل الله ما يريد بعد ذلك ، وأما علاقتهم بالناس فهي علاقة ظاهرية ، وليس ثم مشكلة أمامهم في ذلك ، فمن اليسير أن يخدع الإنسان الواحد العالم كله بثوب يرتديه ، وبحركات ظاهرية جوفاء ، وترنيمات كاذبة لا صلة لها بالمعاني السامية ، ومن هنا لم يراعي رهبان النصارى – كإخوانهم من أحبار اليهود – تلك الرهبانية التي ألحوا كثيراً علي ربهم أن يكتبها عليهم قال تعالي :{ ورهبانية ابتدعوها فما رعوها حق رعايتها }[الحديد /٢٧].

فالنصارى منافقون ، تطابقوا مع شريعة نبيهم ظاهرياً ، ولم يتطابقوا معها روحياً ، وهم في ظل ذلك يقدمون تنازلات كثيرة في أهم أمور دينهم وعقيدتهم([1]) . وفي الوقت الذي يزعمون فيه حب السلام ويتظاهرون بالتسامح والأخوة والمحبة ، في ذلك الوقت تدمر دباباتهم وطائراتهم مساكن ومدارس ومستشفيات المخالفين لدينهم وخاصة المسلمين ، ويدعون الرحمة بالحيوان والنبات ، في الوقت الذي يذبحون فيه الأطفال والنساء والشيوخ بغير رحمة ، ويدعون الديمقراطية في الوقت الذي يقيدون فيه حرية الشعوب بالحديد والنار عن طريق عملائهم . وعن هذه الرهبانية الكاذبة خرجت معظم المذاهب المثالية الحديثة (كمثالية كنط).

وكان من أهم الأمور التي بعث بها عيسي عليه السلام – إلي جانب تصحيح مسار الخراف الضالة من بني إسرائيل – أن يبشر بالرسالة الخاتمة التي سيأتي بها النبي الخاتم محمد صلي الله عليه وسلم ، قال تعالي على لسان عيسي عليه السلام :{ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد }[الصف / ٦]. ويقول المسيح مبشراً بأمة محمد صلي الله عليه وسلم : " لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة أخري تعمل أثماره [متي ٢١

---

(١) من ذلك أنه كان من أصول عقيدة النصارى أن اليهود هم الذين قتلوا عيسى عليه السلام ثم أصدرت الكنيسة في هذا العصر وثيقة برأت فيها اليهود من دم عيسى !!!

:٤٣] ، ويبشر بمحمد صلي الله عليه وسلم فيقول " ومتي جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب ، ورح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي" [يوحنا ٢٦:١٥] والمعزي هذا هو محمد صلي الله عليه وسلم .

ولكن اليهود لا يرضوْن لهذا الدين الجديد أن يسود ، فتكون مؤامرتهم لقتل عيسى عليه السلام فينجيه الله سبحانه من كيدهم ، ويرفعه إليه قال تعالي :{ وقولهم أن قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم بذلك من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقنا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً }[النساء / ١٥٧ -١٥٨].ويترصد اليهود بالدعوة لوقف تيارها الذي طغي وانتشر ، وأمام هذا الانتشار الواسع للدعوة المسيحية يوحي الشيطان إلى اليهود بفكرة اختراق المسيحية ، ويكفيهم هذا العمل يهودي متعصب يدعي (شاول) أو (بولس) الذي سمي نفسه (بولس الرسول) . والذي استطاع أن يقدم عقيدة جديدة تختلف تماماً عن عقيدة المسيح حيث رفض الناموس الموسوي – الذي عده المسيح شريعة لدينه السماوي – وقال بألوهية المسيح ، فكان بذلك أول من قال بإلهين ، ثم أضيف القول بألوهية الروح القدس في المجمع القسطنطيني الأول ٣٨١م(٢) . معتقدين بذلك بفكرة التثليث .

وهكذا يحتار العقل النصراني ويضطرب ، وينقسم النصارى إلى فرق وطوائف تحارب بعضها البعض ، حيث تزعم فرقة أن المسيح إله وتزعم أخرى أن الله ثالث ثلاثة ، وتزعم غيرهن ألوهية المسيح وأمه ويسعى كل فريق ليؤكد عقيدته فيحرفون الكلم عن مواضعه ، ليرضوا أهوائهم وسادهم وليشتروا به ثمنا قليلاً .وعلي الرغم من أن اتجاه التوحيد كان هو الأقوى والأعم إلا أن الاتجاهات الباطلة فرضت علي الناس بقوة السيف ، علي يد الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٥م . وبهذه الفعلة الشنيعة يندثر صوت التوحيد ويعلو صوت الباطل ، وينتقل النصارى من أنوار الخير إلي ظلمات الشر ليمثلوا مع اليهود قطبي الشر .

---

(٢) الشيخ أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ، ص ١٢٧



الباب الثالث

[مرحلة بعثة محمد صلى الله عليه وسلم]

تمهيـــــد :

الفصل الأول : عصر النبوة (مرحلة البناء) .

الفصل الثاني : عصر الخلفـــاء الراشــدين (اختبــار المدرســة المحمدية).

تمهيد :

لقد أعطى الله سبحانه للبشرية جمعاء بشعوبها وقبائلها الفرصة لتأخذ حظها من الرسالة قال تعالي :{ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر /٢٤] نذير يخرجها من الظلمات إلي النور ، نذير يؤهلها لحمل راية الإسلام (حزب الله) ، فيؤمن من يؤمن منـــهم فيحملـــوا الأمانة إلى اجل مسمى ثم تأتي أجيال تتكاسل عن الاستمرار في هذا الطريق الشاق فيتثاقلوا إلي الأرض ، قال تعالي :{ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعـــوا الشـــهوات فسوف يلقون غياً } [مريم /٥٩]. وليس ثمة وسيلة لتصحيح مسار الأمـــة الضالـــة إلا بإرسال رسالة جديدة ورسول آخر يصحح المسار .

وبينما الأمر كذلك كانت العناية الإلهية تعد شعباً آخر في أحضان الصحراء الجافـــة ، إعداداً يتكافأ وتلك المسئولية العظيمة التي ستلقى علي عاتقه فيما بعد . إن هذا الشعب هو الشعب العربي ، الذي حافظت الصحراء علي نقاء فطرته وأكســـبته صفـــات الرجولـــة والشجاعة ، وغيرهما من الصفات اللازمة لحمل الرسالة الخاتمة التي سيبعث بهـــا رســـول العالمين محمد عليه الصلاة والسلام ، ليخرج البشرية ، كل البشرية ، من الظلمـــات إلي النور .

ويمتاز المجتمع الإسلامي في حركته التاريخية – عن غيره من المجتمعات – بعدة سمـــات هي :

السمة الأولى :"وضوح معالم الطريق بصفة مستمرة" : وتتضح هذه السمة مـــن خـــلال أمرين:

الأول :" يسر فهم الدين" ، حيث قال سبحانه وتعالي :{ ولقد يسرنا القرآن للذكر فـــهل من مدكر } [القمر /٤٠] فالدين واضح ميسر ليس فيه رموز وطلاسم ، ومـــن ثم لا نجد في ديننا الإسلامي الحنيف كهنة يمتلكون مفاتيح فهم هذه الطلاسم أو تلك الرمـــوز ، ولهذا الأمر يعد الاتجاه الشيعي – الذي يزعم أن كل نبي يحتاج إلي وصي يحمل عنه معرفـــة أسرار الدين وباطنه – بدعة عظيمة في الدين .

والثاني :" حفظ الله سبحانه وتعالى لهذا الدين (قرآن وسنة)" ذلك الدين الذي يتضمـــن

المعالم الرئيسية لطريق حزب الله ، وبهذا الحفظ ضمن سبحانه وتعالي لأمته المسلمة عـــدم الانحراف عن طريقه الله قال تعالي : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } [الحجرات / ٩]. وقال النبي صلي الله عليه وسلم :" تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهمـــا كتاب الله وسنة رسوله" (١) .

السمة الثانية :"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" : واللذين يمثلا النقد الذاتي الذي يصحح مسار الأمة عند كل انحراف عن الطريق المستقيم . وفي ذلك يقول الأستاذ أنور الجنـدي : " لقد كان العلماء والأئمة والمفكرون علي طول التاريخ الإسلامي قادرين علي رد المسلمين إلي المفهوم الصحيح للإسلام ، ومقاومة الانحراف الفكري والاجتماعي ، هؤلاء الدعـــاة والمجاهدون هم نقاد المجتمع الذين عارضوا دائما الانحراف ، ومنعوا العامة أن يجرفها الترف أو النفاق ، وقد كانوا عاملا أساسياً في بناء الإسلام والحفاظ علي أيديولوجيتـــه مـــن أن يضاف إليها ما يغير مضمونها ، أو يحول طابعها ، فقد بذلوا جهداً في المحافظة علي مواجهـة خطر الجارفة ، والانحطاط الخلقي والروحي" (٢) . قال تعالى : { كنتم خير أمة أُخرجـــت للناس تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر }[آل عمران / ١١٠] ، وتفسيرها – كمـا قال مجاهد – كنتم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية .وبهذه الشرائط فضلنا علـى سبعين أمة ، روى الترمذي عن بُهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله " ، وقال حديـث حسن .

السمة الثالثة :" استمرار الخيرية " : يقول النبي صلي الله علية وسلم :" الخير في وفي أمـتي إلي يوم القيامة " (٣) ، ويقول صلي الله عليه وسلم " لا يزال لهذا الأمر أو على هذا الأمر عصابة على الحق ولا يضرهم خلاف من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله "(١) .

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي (١٧٦) – الموطأ (٨٩٩)- السلسلة الصحيحة للألباني (١٧٦١) – التوسل للألباني (١٣) .

(٢) الغضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ص ١٤٤ .

(٣) الحديث مشهور المتن وله أسانيد كثيرة وشواهد عديدة في المرفوع وغيره [العجلوني : كشف الخفـاء ، جـ١ ، ص ٤٧٦] .

السمة الرابعة :" التجديد الذاتي لأمر الدين ": فبينما كانت الأمم السابقة لا تستطيع تجديد دينها إلا برسول جديد ، نجد أن الأمة الإسلامية قد أُكرمت بالقدرة الذاتية علي تجديد دينها تجديداً ذاتياً ، حيث يبعث الله من داخل هذه الأمة علي رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، قال صلى الله عليه وسلم :" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها "([2]). وقد ارتبط هذا المفهوم في أذهان الناس بأنه فرد واحد ، والصحيح أنه جماعة ، أو أفراد متفرقون في مناطق مختلفة في العالم الإسلامي كل يقوم بدور قد لا يقوم به آخر ، فيكملوا بعضهم البعض .

هذه السمات الأربع تجعل الدولة المسلمة تصحح مسارها التاريخي باستمرار ، وتتخطى كل العقبات التي يمكن أن تقف في سبيل تقدمها .

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخرجه الطبراني في الأوسط عنه أيضا بسند رجاله ثقاة ، وأخرجه الحاكم من حديث ابن وهب وصححه ، وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث [المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٨٢].

(٢) أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٤٠ ، رواه أبو داود عن سليمان بن داود المهري عن ابن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شرحبيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة ، كلهم ثقاة وأبي هريرة في أعلى مراتب العدالة والتوثيق).

الفصل الأول

[عصر النبوة (عصر البناء)]



(أ) من هنا بدأ محمد (صلى الله عليه وسلم) :

بعث الله محمد (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة الخاتمة ليعيد ترتيب أوراق الإنسانية الضآلة ، جاء (صلى الله عليه وسلم) ليعيد للكيان الإنساني وحدته بربط الدنيا بالآخرة والجسد بالروح ، جاء (صلى الله عليه وسلم) ليضع الإنسان أمام مسئوليته التي لا مفر منها ،جاء (صلى الله عليه وسلم) لتحرير البشرية من أثر الطواغيت وتعبيدها لله وحده . ولكن من أين يبدأ(صلى الله عليه وسلم) ؟

أيبدأ بهدم تلك الأصنام التي ملأت بلدته – مكة – ودنست البيت الحرام ؟ وما يفيد هدمها الظاهري إذا كان لهذه الأصنام معابد في الصدور أعظم من تلك المعابد الماثلة أمام العيان في الواقع الخارجي وأرسخ ؟ إنها معابد ضربت بقواعدها في أعماق الكيان الإنساني منذ زمن بعيد .

أدرك محمد (صلى الله عليه وسلم) _ بوحي من الله _ أنه لابد من أن يهتم بالإنسان الفرد ، يبني فيه التوحيد ، ويهدم فيه تلك المعابد الجاثمة على صدره ، يقينا منه (صلى الله عليه وسلم) بأنه مع كل خطوة يخطوها باتباعه نحو التوحيد يكون قد هدم ركنا حصينا من أركان معابد الطواغيت ، لهذا فقد انطلق (صلى الله عليه وسلم) من النفس البشرية يزكيها ليغلب فيها جوانب الخير على جوانب الشر ، ومن هذا المنطق كون (صلى الله عليه وسلم) الجماعة المسلمة التي حمت البشرية _ فيما بعد _ من كل طواغيت الأرض والنفس.

وبينما كان هذا الأمر يمثل الشغل الشاغل لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، كان الشغل الشاغل للشيطان وحزبه أن يوقفوا هذا الزحف ، أن يطفؤا هذا النور ، ولكن هيهات هيهات أن ينالوا ذلك من أُناس قائدهم محمد صلي الله عليه وسلم ودستورهم القرآن الكريم ، وسلوكهم السنة المطهرة ... فلم يكسبهم عداء الشيطان واتباعه إلا قوة وثباتا علي الحق .

وهكذا فشل الشيطان وحزبه – من يهود ومشركين ومنافقين – في إطفاء نور الله ، وما أن تفوق حزب الله بقيادة محمد صلي الله عليه وسلم علي نفسه حتى أصبح تفوقه علي

العدو في الحروب العسكرية أمر يسير ، وكان - كما يقول الأستاذ أنور الجندي - أن تحقق للإسلام أن ينشر ظله علي الجزيرة جميعا فانطوت تحت لواء الإسلام ، ثم أتم الرسول الحلقة بإفراد الحج للمسلمين ، فلا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وبذلك قام مجتمع الإسلام الأول منتظما في الجزيرة العربية ، وقد أتم الله الرسالة وأكملها ، وتم نزول القرآن ، وكان الرسول صلي الله عليه وسلم قد أعلن عموم رسالته بإبلاغ الإسلام إلي الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية ، وأرسل رسله يحملون الرسائل إلي عواهل الفرس والروم والحبشة ومصر معلنا إياهم ومبلغا . وقد تم التوسع والانتشار وتكوين الجماعة الإسلامية الكبرى ... وباختيار الرسول صلي الله عليه وسلم للرفيق الأعلى كانت رسالة الإسلام في أيديولوجيتها الكاملة قد تمت واستكملت ، ولم يدخل عليها أي إضافات أخري من بعده ([1]).

(ب) وظيفة الدولة الإسلامية وغايتها :

الدولة الإسلامية - بأفرادها وبكيانها العام - موظفة عند رب الكون بأجر عظيم وهو دخول الجنة ، ويحكمها في أداء وظيفتها قانون السماء الذي يرتكز علي القلب الإنساني والذي متي آمن لا يخشى إلا الله وشعاره في ذلك { لا إله إلا الله } ذلك الشعار الذي يعني في أبسط معانيه : "أن لا رب ولا إله ولا رازق ولا مانع ولا محيي ولا مميت ولا ضار ولا نافع إلا الله وحده" .

وللدولة الإسلامية غايتان : إحداهما داخلية ، والأخرى خارجية أما الغاية الداخلية ففيها تتجه الدولة إلى ذاتها تنقيها وتربيها وتقويها ولا يكون ذلك إلا عن طريق الخطوات الآتية :

١-بناء الفرد المسلم بناءً عقائدياً أخلاقياً تتميز به شخصيته عن غيره من أبناء الديانات الأخرى .

٢-بناء الأسرة المسلمة بناءً عقائديا أخلاقياً يجعل منها مدرسة لتخريج أبناء أسوياء يخدمون دينهم وينفعون وطنهم الإسلامي الكبير.

---

(١) الغضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ، ص ١٣٢.

٣-بناء الشعب المسلم بإيصال الدعوة إلي كل بيوته وأفراده .

٤-بناء الحكومة الإسلامية العالمية التي تحافظ علي كيان الدولة الداخلي ، وتعمل علي تحقيق غاية الدولة الخارجية.

أما الغاية الخارجية فتتمثل في "تعبيد الناس لرب العاملين" ، وذلك بردهم لفطرتهم بواسطة تطبيق منهج ربهم ، ذلك المنهج الذي يزيل ما يعتري نفوسهم من أوساخ الماديات ، فإن أبى بعضهم أو أكثرهم إلا عبادة الشيطان والانتماء إلي حزبه فلا أقل - عند ذلك - من إخضاع الناس لقانون رب العالمين ، وذلك قول رسول الله صلي الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علي الله "(١) . وقول ربعي بن عامر لرستم الفرس عندما سأله لماذا . جئتم فقال : "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلي سعتها ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام" .

ولا يتم ذلك إلا بالآتي:

١-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخيرية الأمة الإسلامية لا تتحقق في كونها تدعوا نفسها فقط ، بل في كونها تدعوا غيرها من أهل الملل الأخرى كما قال سبحانه وتعالي : {كنتم خير أمه أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}[آل عمران / ١١٠].

٢-قتال الكفار الذين يحُولون بين الدعوة والشعوب لأمرين : الأول : إزالة الفتنة : قال تعالي :{ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله }[الأنفال /٣٩] . الثاني : تعريف الشعوب بالإسلام حتى لا يكون لهم حجة عند الله ، فإما أن يؤمنوا وإلا سقطت حجتهم ، وأصبحوا مستحقين لعذاب جنهم . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية خاضت الدولة الإسلامية وستخوض الحروب ضد كل عائق أو طاغوت أو صنم يحول بينها

(١) قال الحافظ السيوطي في الجامع الصغير هو متواتر [العجلوني : كسف الخفاء ،ج١ ، ص ٢٢٣].

وبين تحقيق هذه الغاية ، تحمي كل مستجير بها ، وتأمن كل خائف حتى يسمع كـــلام الله.

(ج) مفهوم الحضارة في الإسلام :

إذا كانت الحضارة هي الاستقرار والأمن ، والسعادة النفسية بتأمين أهداف الإنســـان وحاجاته المادية الأساسية المتطورة ، والتي تحقق خدمته ورفاهيته ، فانه يمكن القول أن أسس الحضارة وأصولها قد بلغت أوجها في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم . يتضح ذلـك إذا عرفنا أن الإنسان عاش قبل الإسلام ، في أكثر جزيرة العرب لا يأمن على نفسه ولا علـى عرضه لكثرة الغارات التي تحدث ، والأيام بين القبائل التي لا تنتهي ، فإذا أنتقل الإنســـان إلى مدينة واستقر بها ، وترك حياة الترحال والانتقال قالوا : تحضـــر فالاســـتقرار بدايـــة الحضارة . فلما جاء الإسلام وتأسست دولته الأولى في المدينة المنورة أيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ساد الأمن وزال الخوف وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، ونال كلّ حقه حيث العدل والمساواة ، وحصل على حاجاته الأساسية . وبدأ المسلمون بعد ذلك ينطلقون إلى الدعوة لأفكارهم وعقيدتهم ، ويحققون بذلك مهمتهم في الحياة وبالعبادة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فدانت لهم الجزيرة العربية ، وانطلقـــوا خارجـــها يتممون مهمتهم ، وبهذه الدعوة وبهذه الفتوحات كانوا سعداء جدا ، وبذلـــك وصلـــت الحياة في الدولة الإسلامية أيام رسول الله (ص) والخلفاء الراشدين إلى الســـعادة التامـــة بحيث لا يريد الإنسان أكثر مما هو عليه _ حسب زمنه _ من حيث الحاجات الإنســـانية والعمل العقيدي من عبادة وجهاد ... ولما كانت تحقق لكل إنسان كل مبتغاه وما يتمنـــاه فهو في سعادة ، وهو في أوج الحضارة وعلى قمتها[1] ، حيث بدأت الحضارة الإســـلامية تنتج مظاهرها الأساسية من علم وأخلاق وإنتاج ، دون عناصرها الترفيهية مـــن زخرفـــة وموسيقى وفن ... وغيرها من العناصر التي تنتج الترف قاتل الإنسان والحضارة .

---

(١) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، الدولة العباسية ، جـ٥ ، ص٣٩ .

الفصل الثاني

[عصر الخلفاء الراشدين]

(اختبار المدرسة المحمدية)

١- اختبار الأفراد (أبو بكر الصديق _ عمر بن الخطاب)

لقد ترك المعلم الأول محمد (صلى الله عليه وسلم) المدينة المنورة ، بعد أن ربى بها رجالاً نجحوا أعظم نجاح في تاريخ البشرية ، ولم يعرف نبي أو رسول ترك أتباعا كاتباع محمد (صلى الله عليه وسلم).

ولقد تأكد نجاح هذه المدرسة على يد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٥١ ق.هـ _ ١٣هـ) ، حين أصر على قتال المرتدين بعد وفاة معلمه (صلى الله عليه وسلم) . أصر هذا الخليفة العظيم على استمرار مسيرة التوحيد بعيدا عن أي تنازلات معلومة من الدين بالضرورة ، ذلك أن هؤلاء الأتباع قد تعلموا في مدرسته (صلى الله عليه وسلم) أنه لا ينبغي لهم أن يقدموا أي تنازلات لوثنية ما ، كتلك التنازلات التي قدمتها النصرانية للوثنية الرومانية كضريبة للاعتراف بها في الإمبراطورية الرومانية . ولهذا كان الرجل سيفا مسلطا ، وحساما بتارا علي رقاب الفتن الهوجاء والقلاقل الرعناء ، والتي تقتضي حسماً وشدة وقوة ، ففيه مزاجان متعادلان من القوة والهوادة ، وكل منها تبرز خصائصها في الوقت المناسب الذي يقتضيها .

وفي عهد أبي بكر لم نجد موقفا يحتاج إلي قوة وشدة وضراوة أكثر من موقف المرتدين ، حيث دارت الحرب بينهم وبين رجال أبي بكر بضراوة اشترك فيها عشرات الآلاف من كل جانب ، راح ضحيتها مئات بل آلاف من هؤلاء ومن أولئك . وكان أثر حرب الردة في الإسلام حاسماً ولولا موقف أبي بكر وقوة موقفه لاضطربت الأمور ، وافلت الزمام من يده ، وتغير التاريخ تماما ، وانتقلت الدعوة والرسالة من حال إلي حال . ولو أن أبا بكر لم يقمع هذه الغارات ، وتلك البراكين الثائرة لكانت النتيجة أوهي وأمر . وكان من ثمرة هذا النصر المؤزر أن ازدادت شوكة الدولة الإسلامية وهيبتها كل الأقطار ، ولولا انتصار أبي بكر في هذه الحرب الضاربة لما بدأ غزو العراق والشام ، ولما تقدمت جيوش المسلمين لفتح الإمبراطوريتين العظيمتين وقتذاك الرومية والفارسية ، وبالفعل تأسست دولة إسلامية قوية راسخة علي أنقاض دولتي الفرس والروم وطمست الحضارة الإسلامية حضارتهما.

ويستمر نجاح هذه المدرسة المحمدية علي يد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ) ، حيث استطاع هذا الخليفة بما ألهمه الله من ذكاء ، أن

يثبت أركان الدولة الإسلامية وينقلها إلي الساحة العالمية نقلة حقيقية ، فاسقط _ بتوفيق الله _ دولة الشرك العظمي ، تلك الدولة التي كانت تعرف باسم الإمبراطورية الفارسية ، حيث فتُحت العراق والمدائن علي أثر معركة القادسية ، وفتُحت فارس على اثر معركة نهاوند . كما خاضت جيوشه معارك حاسمة ضد الدولة الرومانية حررت خلالها الكثير من البلاد والعباد وعبدتهم لله سبحانه وتعالي ، حيث فتُحت بلاد الشام علي أثر معركة اليرموك وفتُحت مصر عام ٢١ هـ .

وكما كان المجتمع والأفراد في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم وفي عهد أبي بكر متطابقين تماما مع أنفسهم وفطرتهم وعقيدتهم فكذلك كان الأمر في عهد عمر رضي الله عنه . حيث كانت السمة العامة للمجتمع الإسلامي أنه مجتمع مساواة تامة لا مساواة شعارات أو مساواة نسبية ... وكان عمر – كما كان أبو بكر – يشعر ويحس بالعبء الثقيل الملقى علي عاتقه ، لذا كان دائم التفكير بالرعية ، يخشى علي نفسه من التقصير بواجباته فيكون حسابه عسيراً أمام الله ، وهذا ما يخافه ويرهبه ، لذا فقد أجهد نفسه فكان قليل النوم ضئيل الطعام بسيط اللباس ، وأضني جسمه ، رأتعب أهله ومن أتي بعده ، وأثقل علي ولاته (١) .

وكان مع أهله شديداً : فكان إذا نهى عن شيء جمع أهله فقال لهم : إني قد نهيت الناس عن كذا ، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلي اللحم ، فإن وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، وإني والله لا أوتي برجل منكم وقد نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني ، فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر .ويمنع أهله أن يتدخلوا في أمر من أمور المسلمين ، كما يمنعهم في الربح في التجارة إذ يظن أن في ذلك ممالأة لهم لمكانهم منه . ويصلي بالليل حتى إذا انتصف أيقظ أهله ويتلو الآية الكريمة :{ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى}.

وكان عمر – كما كان أبو بكر – مع الولاة يختار القوي الأمين منهم فليس المهم أن يكون الوالي صالحاً فقط فإن صلاحه لنفسه وضعفه يعود علي الأمة . وإنما يجب أن يكون قوياً فقوته للأمة كلها وعدم صلاحه لنفسه... وكان يشترط علي الولاة حين يستعملهم بأن

(١) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، حـ٣ ، الخلفاء الراشدون ، ص ٢-١ ، ٢٠٢.

لا يظلموا أحداً في جسمه ولا في ماله ، ولا يشغل منصبه في فائدة خاصة أو مصلحة له أو لأهل بيته ، ويكتب بذلك كتاباً للوالي ويشهد عليه عدداً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار .ويقول للوالي : إني لم استعملك علي دماء المسلمين ، ولا علي أعراضهم ، وإنما استعملك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل...

وكان مع الرعية -كما كان أبو بكر - خير أمير إذ كان يمر علي النساء اللواتي ذهب رجالهن إلي الجهاد ، ويطلب منهن أن يذكرن حاجاتهن في البيع والشراء ، ويسير إلي السوق ووراءه أولادهن وجواريهن ، ويؤمن لكل صاحبة بيت طلبها . وإذا جاء البريد من الثغور أوصل الرسائل إلي أصحابها ، وطلب من يقرأ هذه الرسائل لمن لا تعرف القراءة أو قرأها بنفسه إن أرادت صاحبة العلاقة ، وقبل أن ينصرف يخبرهن بسير البريد ويحدد لهن الوقت إن كن يردن الكتابة لأزواجهن ... وكان عمر يطوف بالأسواق ، ويقرأ القرآن . ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم . وكان يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه من يشاء ، وليس علي داره باب ولا حجاب ... وكان مع الجند نعم القائد ... وكان مع الذميين نعم الحاكم العادل كان يفرض علي الذميين ألا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وركوبهم ، وما عدا ذلك فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا في أمور قليلة معروفة ، وكان إذا أسلم الذمي سقطت عنه الجزية ، وإذا ثبت أن عليه دين يستغرق ماله كله ، يعفي من العشر ومن الجزية . وكتب إلي ولاته يأمرهم أن يمنعوا المسلمين من ظلم أحد من أهل الذمة وأوصي بأهل الذمة أن يوفى لهم عهدهم ، ولا يكلفون فوق طاقتهم .

وكان الصحابة - في عهدهما - ينصحون الخليفة ، ويعيشون معه قضايا الدولة ، ويرون تعبه الشديد من اجل الرعية وحرصه الكبير علي مصلحة المسلمين فيقولون له : رحمك الله أتعبت من بعدك . وكانوا مع الرعية صورة مصغرة من الخليفة ، فالناس جميعا يضعونهم موضعهم ، وهم يلينون لهم كما يلين عمر...

وأما الرعية فكانوا - في عهدهما - كتلة واحدة متراصة يشعر كل من بقي في مقره أنه المسؤول عن أسر المجاهدين الذين في الغزو ، وبخاصة أنه يري الخليفة بنفسه يقوم بهذه المسؤولية ويتحمل التبعات ، وتشعر الأسر بالترابط والمودة ما دام يجمعها جامع العقيدة

ويربطها رابط الموقف الواحد وهو أن الرجال في الجبهات وعلي الثغور يعملون لإعـــلاء كلمة الله والأبناء والأمهات والمسنون ينتظرون نتائج المعارك وحوادث الجهاد ... فأخبـار النصر سرور للجميع بل وكلهم فيه مشاركون ، وعام المجاعة الذي عرف بعام الرمادة وهو عام ١٨هـ قد جاع الناس جميعا ، فاشتركوا بالضراء ، وتناولوا ما عند بعضهم جميعـا ، وعندما بدأت تصل الأقوات من الأمصار بدأت توزع علي الأفراد في المناطق التي أصابهـا البلاء ، وعمها الضر بلا استثناء ، فكل بيت يناله ما ينال جواره بغض النظر عن الأسبقية في الإسلام والأفضلية وبغض النظر عن العقيدة التي يدين بها أبناؤه ، فالمسلمون والذميـون علي حد سواء ، ينال الجميع الخير كما أصاب الجميع الضر .

وأما الذميون الذين هم أهل من أهل الكتاب من نصارى ويهود ، ويضاف المجـوس إليهم ، وهم الذين عاهدوا المسلمين ، ولم ينتقضوا عهدهم ، وحافظوا علي مواثيقهم ، فلم يأووا عدوا ، ولم يراسلوا خصما ، وقد عاشوا سعداء شملهم عدل الإسلام ، فأقاموا آمنـين علي أملاكهم وأموالهم وأبنائهم لا يعتدي علي أحد منهم ، وإن حدث شيء أصاب العدل موقعه فأخذ لهم حقهم ونال المعتدي جزاءه ، وكانت المساواة بين الناس جميعا وبلا استثناء ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا نواح قليلة ، وكانوا يدفعون الجزية ، ولا تعـدل ما يدفعه المسلم من زكاة ، ولا يخرجون للقتال ، وهم آمنون ، ولهم الحق بالتقاضي حسب شرائعهم ،كما لهم الحق في التقاضي بشرع الله المطبق في المجتمع الإسلامي .

وهكذا كان المجتمع – في عهد الشيخين – سعيداً بكل أفراده ، فاضلاً بكل سـلوكه ، متماسكاً بكل لبناته ، تسوده المساواة ، وتنطلق فيه الحرية ، وتعشعش فيه المودة ، وتعيش فيه الرحمة ([1]) .

٣- اختبار المنهج الإسلامي (عثمان بن عفان - علي بن أبي طالب) :

تعد هذه الفترة اختبارا جيدا للمنهج الإسلامي إذ أن صدق المبدأ لا يتحقق إلا في ظل الأزمات ، ولذا مرت الأمة في هذه الفترة بأزمات قاسيات لا يتحملها دين ولا تصمـد

---

(١) للمزيد أنظر : " التاريخ الإسلامي ، جـ٣ ، الخلفاء الراشدون " لمحمود شاكر .

أمامها نحلة من النحل ، يقول أحد المستشرقين لقد تعرض الإسلام في هذه الفترة لمحنة لــو تعرض لها غيره من الأديان لم قامت له قائمة بعدها أبدا .

تسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه (٤٧ ق هــ /٣٥ هــ) الراية ، فوجد أعــداء الدولة الإسلامية من اليهود والمنافقين والحاقدين في تسامحه فرصة للنيل من المسلمين ومــن الخلافة الإسلامية والأخذ بالثائر ، إذ لم ينس اليهود يوم " خيبر " ، ولم ينس المجوس ســقوط دولتهم علي يد عمر رضي الله عنه الذي ضحي بنفسه في مقابل ذلك . ولكـــن اليـــهود والمجوس وأعوانهم لا يرضون بقتل الأفراد فقط ، بل يبغون قتل الدولة الإسلامية كلـــها ، وإطفاء نور الله سبحانه وتعالي ، وتعبيد الناس للطاغوت قال تعالي :{ ود كثير من أهـــل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تـــين لهـم الحق}[البقرة / ١٠٩].

لقد وجد اليهود وأعوانهم في حكم عثمان رضي الله عنه فرصة كبيرة لتنفيذ مخططاتهم السرية ، فانطلق اليهودي الحاقد عبد الله بن سبأ ينشر الأكاذيب علي الخليفة الجليل خادعا البلهاء والغوغاء ومظهرا رغبته في الإصلاح الاجتماعي فالتف حوله الكثير مــن الدهمـــاء والمنافقين . وهكذا بدأت نوزع النفس الشريرة ممثله في اليهود وأعوانهم تعمل عملـــها ، خاصة وأن هذه النوازع الشريرة كانت مكبوتة في عهد الخليفتين السابقين أبي بكر وعمـــر رضي الله عنهما حيث كانت نفس المجتمع الخيرة هي المسيطرة عليه . وكان مـــن نتيجـــة دعوته الفاسدة هذه أن التف حوله الكثير من الغوغاء والدهماء في الكوفة ومصر والبصرة . وتحركوا جميعا وفق مخطط واحد ودقيق علي الاتجاه إلي المدينة وقتل الخليفة ، وقد كان مـــا خططوا له ، حيث قتل عثمان رضي الله عنه في عام ٣٥ هــ . وهكذا بدأت هوة الشـــر تنفرج بعض الشيء حيث طغت النفس الشريرة علي طائفة من أفراد المجتمع ، مما نجم عنـــه تغيير في الصورة الظاهرية للأفراد ، وبالتالي تغيير في الصورة الظاهرية للمجتمع ، حيـــث زاحمت النفس الشريرة – ممثلة في ابن سبأ واتباعه من الغوغاء والجهلة الدهماء – النفـــس الخيرة المؤمنة التي لونت بلونها المجتمع في عهد الخليفتين السابقين أبي بكر وعمر رضـــي الله عنهما .

ثم تولي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أمر الخلافة علي الرغم من أنه كان زاهد فيها إلا أنه أضطر لقبولها من أجل إنقاذ المسلمين من فتنة عمياء يمكن أن تحدث فيما لو رفض ، والخوف من تفرق الكلمة ، وإعادة الثقة والطمأنينة إلى نفوس سكان دار الهجرة ، وإبعاد المتمردين والأعراب والمنحرفين عن المدينة ، وإقرار الأمن ، وإعطاء الهيبة للخلافة ، وتطبيق منهج الله في الأرض . ومع هذا فكان رضي الله على علم بأن السير في هذا الطريق وهو أخذ البيعة وتسلم أمر الناس حالة صعبة وفيه مشقة كبيرة وعناء شديد ؟ إذ لا يستطيع الخليفة إقامة الحدود علي الحياة والتحقيق معهم إلا بعد مرور مدة ريثما يستتب الوضع ، ويتمكن الحكم ، وتستعيد الخلافة هيبتها ، وهذا ما لا يدركه فئة من الناس فيطالبونه بالقصاص وهو غير قادر عليه ويسألونه إقامة الحدود علي القتلة وهو لا يستطيع إذ لا تزال المدينة بأيديهم ، ولابد من إخراجهم قبل ذلك وتوزيعهم في الأمصار ، أو إرسالهم إلى الثغور وتفريق كلمتهم (1) . ولقد كان من نتيجة تعارض وجهات النظر في أمر هؤلاء الغوغاء قتلة عثمان – بين قائل بضرورة القصاص فوراً وبين وجهة نظر علي رضي الله عنه بالانتظار حتى تهدأ الأمور – أن حدثت موقعتا "الجمل" "وصفين".

وعلي الرغم من تباعد وجهتي النظر هذه إلا أنهما قد اقتربا تماما علي يد القعقاع بن عمرو الذي أرسله علي إلى البصرة حيث عائشة وطلحة والزبير وجيشهم ، فاستطاع أن يقنعهم بضرورة الانتظار حتى تستتب الأوضاع وتهدأ الأمور ثم يقوم بالقصاص منهم فاستحسنوا رأيه وقالوا : إن وافق علي هذا الرأي صالحناه عليه . ورجع القعقاع إلي علي راضيا وأنبأه بما حدث ، فسر علي بذلك أشد السرور وأعظمه .وأقبلت الوفود من البصرة إلى معسكر علي بذي قار – بالكوفة – والتقي المضري مع المضري ، والربعي مع الربعي ، واليمني مع اليمني ، وكل يتحدث في الصلح ، وظن الناس كل الناس أن الأمر قد استقام ، وإن الصلح قد أصبح وشيكا ، ودعوا أهل البصرة عليا أن يأتي إليهم ، وأراد علي الرحيل وقال : إلا من أعان على عثمان بن عفان فلا يرتحل معنا . وهنا شعر الغوغائيون من قتلة عثمان أن الصلح سيدور عليهم وأنه إذا تم لابد من أن يكون عليهم ، وستطالهم

(1) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ –٢٧٠ .

العقوبة ... وتداولوا الرأي وعبد الله بن سبأ اليهودي لا يعجبه رأي حتى توصلوا إلي انشاب القتال إذا ما أقترب الطرفان بعضهم من بعض ([1]) .

وهكذا ظلت جماعة أبن سبأ تعمل على تأجيج الفتنة ، وزيادة اشتعالها لأنهم يعلمون أن المسلمين إذا اتفقوا ، فإنهم سيقبضون علي قتله عثمان ، والذين قتلوا عثمان هم من فرقة ابن سبأ الضالة . ومن هنا يبدو لنا خطر المنافقين الذين هم أشد على الإسلام والمسلمين من الكفار ، فهؤلاء كانوا يظهرون الإسلام والتقوى والورع ، وهم يبطنون غير ذلك ، واتخذوا من إسلامهم ستارا وقناعاً لأعمالهم الشريرة .

وأما معركة صفين فلقد كانت من أجل عزل معاوية بن أبي سفيان من ولاية الشام ، والتي تولاها منذ عهد عمر رضي الله عنه ، فأحبه أهلها ، ولآن لهم فأطاعوه ، وحزمهم فانقادوا له ، ولم يريدوا غيره ، فعندما حدثت الفتنة في المدينة وتسلم الغوغائبون الأمر ، وقتلوا الخليفة عثمان بن عفان مظلوماً ، وخرج النعمان بن بشير إلى الشام ومعه قميص عثمان المملوء بالدماء وعليه أصابع زوجته نائلة مقطعة ، وعرضه علي الناس فثاروا وبكوا أولا لقتل الخليفة مظلوما وهو شيخ طاعن في السن وكان قتله علي يد رعاع الناس ، وثانيا لأنه لم يستطيع بعد ذلك أحد أن يحرك ساكنا بل أن هؤلاء الرعاع قد سيطروا علي دار الهجرة ... وكل هذا جعل عامل الشام معاوية بن أبي سفيان ينتظر في إعطاء البيعة في الخلافة الجديدة ، وهذه ما رآه و رآه معه عدد من الناس ، ويعد اجتهادا([2]) .

ولقد كانت هذه المعارك بحق تدور بين أحبة أوقع الشيطان بينهم ، يؤكد ذلك عدة أمور : منها أن القعقاع بن عمرو التميمي أحد قادة جيش علي وحكمائه أثناء المعركة مع طلحة وهو يقاتل جريحا فقال له : يا أبا محمد إنك جريح فحبذا لو دخلت أحد البيوتات . فبطل يري قائد خصومه جريحا فيطلب منه الخلود إلى الراحة من أجل العافية أم يجهز عليه ! ، وجاء ابن حرموز بعد المعركة يستأذن عليا وقال : قل له : قاتل الزبير ، فقال علي : أأذن له وبشره بالنار . فهل يفرح بقتل قائد خصومه أم يتأثر ثم يقول إن قاتله لا شك في النار ؟ ، وزار علي عائشة بعد المعركة وضرب من تكلم عنها ، وقال عندما شيعها في غرة رجب

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٢) المرجع السابق .

مع أخيها محمد بن أبي بكر أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ، وأعطاها مبلغا كبيرا من المال ، وسير في ركبها عدد من النساء . وعندما زارها في دار عبد الله بن خلف كان عدد من الجرحى المختبئين في تلك الدار ، وهو يعرف مكانهم ومكان غيرهم ، وقد تجاهل شيئا وكأنه لم يعلم شيئا . إذا لم يكونوا خصوما كما يصور ذلك بعضهم فلو كانوا كذلك لنالوا من نالوا (١) .

أما في معركة صفين بالقرب من نهر الفرات – فلقد أقام الفريقان عدة أيام يلتقون على الماء ، ويسعى بعضهم إلى بعض ، وربما يسمرون معاً دون قتال ، ولكنه جدال ومناقشات تحدث ... ولما أتيحت لهم فرصة التصالح لجئوا إلى التحكيم ، الذي رضي به الطرفان إلا فريقا من جيش علي وهم الخوارج . والحق أن هذه المعارك قد أدت إلي عدة نتائج سلبية علي العالم الإسلامي هي كالتالي :

١-توقف الفتوحات الإسلامية لأن سيوف الفتح شغلت فيما بينهما ، وتشتت قوي المسلمين .

٢-سقوط عدد كبير من المسلمين قتلي في الحروب التي درات بين المسلمين ، ومن هؤلاء القتلى كبار الصحابة أمثال : عمار بن ياسر ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله إلي جانب استشهاد علي كرم وجهه علي يد أحد الخوارج ، ويدعي عبد الرحمن بن ملجم في السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ.

٣-خروج مجموعة كبيرة من جيش علي ، وإعلانهم التمرد عليه ، شكلوا فرقة عرفت في التاريخ الإسلامي باسم الخوارج.

٤-مخلفات الفتنة وأثارها متجسدة – إلى اليوم – في الفرق الضالة ، كالنصيرية التي تؤله عليا رضي الله عنه ، وكغلاة الشيعة الذين يكفرون الصحابة كلهم إلا أربعة فقط .

غير أن هذه المعارك وتلك الانقسامات لها جوانب إيجابية أهمها : أنها كانت بحق أعظم دليل على ربانية هذا الدين الذي خرج سالما من هذه الهوة السحيقة . لا ريب أن الأمة انقسمت وزاد من انقسامها مقتل الإمام الجليل علي كرم الله وجهه ، غير أن هذا لم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

ينعكس علي أصول الإسلام بجديد ، وكل ما في الأمر أن كل فرقة قد أولت كثيرا من الآيات والأحاديث النبوية لترضي أهوائها ، وحينما حاول البعض الكذب علي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هب رجالات المسلمين من العلماء والفقهاء إلي ابتكار منهج جديد يدل علي عظمة العقلية الإسلامية في الدفاع عن تراثها الرباني . وهذا المنهج هو ما أسموه بعلم الجرح والتعديل ، وهو أسلوب يبين صدق رواه الحديث أو كذبهم ، ولقد كان هذا المنهج من أعظم ثمار هذه الاختلافات . وفوق ذلك كله فقد خرج الإسلام سالما آمنا فدل بذلك علي صدقه وربانيته ، ولو حدث واحدا من هذه الأحداث لدين من الديانات غير الربانية لانهار ولم تقم له قائمة مرة ثانية ، ولكنه الدين القيم الذي تعهد الله بحفظه .

كما أن عليا رضي الله عنه- رغم كل هذه الأحداث والانحرافات السلوكية - قد سار في الناس سيرة عمر التي عرفت بالحزم ، فقد منع الصحابة من مغادرة المدينة ، وكان يحمل الدرة ويؤدب الناس بها ، ثم الخيزرانة عندما لم يجد الدرة ، ويمر بالأسواق ينظر في الأسعار ويراقبها ، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، ويجلس للناس في المسجد يحل مشكلاقم ويقضي لهم ، ويعظ الناس ويخطبهم. وبمقتله – رضي الله عنه – انتهت مدة الخلافة الراشدة التي سارت علي منهج رسول الله (ص) ، وبدأت عهدها زاوية الانحراف تنفرج تدريجيا([1]) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ -٢٨٣

الباب الرابع

[مرحلة الحكم الوراثي]

الفصل الأول : العصر الأموي (عصر الفتوحات الثاني)

الفصل الثاني : العصر العباسي (عصر الميراث الثقيل)

الفصل الثالث : عصر الدول (الإسلام لا يموت)

الفصل الرابع : حركة التجار والمتصوفة (القوة الذاتية للإسلام)

الفصل الخامس : العصر العثماني (عصر القوة وإعادة الفتوحات)

تمهيـــد :

أهم ما يتضح هنا أن الانحراف بدأ تدريجيا ، وبدأ أول ما بدأ في الجانب السياســي أي في جانب الحكم حيث بدأ يسوده الحكم الوراثي ، الذي يقوم على مبدأ توارث الحكم من الآباء إلى الأبناء ، وهذا النظام يختلف عن النظام الأساسي للإسلام في جانبـــه السياســي والذي يقوم على نظام البيعة . ولكن وعلى الرغم من أن هذا المبدأ فيه خروج واضح على النظام الإسلامي إلا انه لم يخرج تماما عن روح الإسلام ، حيث ظـــل النظـــام السياســي الإسلامي يحتفظ بعناصره الإسلامية الصافية مثل عنصر الشورى ، والأخذ بمبدأ الأغلبية في القرارات المصيرية . هذا إلى جانب أن النظام الإسلامي في كل جوانبه الأخرى – التشريعية والاقتصادية والاجتماعية – قائم لم يمسه أي انحراف . كما أن الحكم الوراثي حقق أكـــبر انتصارات الإسلام والمسلمين ، ونشر الإسلام في غالبية ربوع الأرض فدخل الناس في دين الله أفواجا .

الفصل الأول

" العصر الأموي (عصر الفتوحات الثاني)"

انتهت الأحداث الدامية السالفة الذكر بتولي معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه أمـــر الخلافة. وأهم ما يوصف به هذا العصر أنه عصر الفتوحات، حيـــث اســـتعادت الدولـــة الإسلامية قوتها ودحرت الجيوش النصرانية التي أرادت التوغل في الأراضي الإسلامية.

لقد قدم معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه خدمة عظيمة لدينه، وأعاد قوة الدولـــة الإسلامية وهيبتها في نفوس حزب الشيطان في الداخل والخارج،كما قدمت هذه الدولـــة خدمات جليلة للإنسانية جمعاء حيث هدمت كثيراً من الوثنيات التي كانت جاثمـــة علـــى نفوس الكثير من البشر في المشرق والمغرب، فدخل كثير من الأمم في دين الله أفواجاً بعـــد أن تحرر واقع هذه الأمم وصدورهم من العبودية للطواغيت، وخُليَ بين الناس وفطرتهـــم فاختاروا الإسلام، يقول المؤرخ لورد ستروب عن أسباب نجاح التوسع الإسلامي في ذلـــك العصر: " وعندنا أن العامل الأول في نجاح التوسع الإسلامي لم يكن هو التطلع إلى السلطان والثروة كما يظن بعض المؤرخين الأجانب ، ولم يكن مصدر النصر الوحيد هو ضعف هـــذه الدولة ، ولكن العامل في الحقيقة إنما هو عمق مفهوم الإسلام وسلامته ، وقربه من الفطـــرة الإسلامية ، ومطابقته للواقع "([1]) .وكانت هذه الفتوحات قد اتجهت في عهد معاويـــة – رضى الله عنه – وخلفائه من بني أُمية إلى شمال القارة الإفريقية واسيا الصغـــرى والبحـــر المتوسط وبلاد ما وراء النهر (بيكند – بخارى – مدن خوارزم – سمرقند – فرغانة – كاشغر على حدود الصين) والسند ، كما فتحت الأندلس .

هكذا قدم معاوية بن أبي سفيان وخلفاؤه خدمات جليلة لدينه وللإنسانية جمعاء ، غـــير أن الرجل المركب من عظم ولحم ودم قد اخطأ خطأ كبيراً ، وسن سنة ليست من الدين في شيء عندما حول الحكم الإسلامي القائم على نظام البيعة إلى النظام الوراثي . وعلى الرغم من هذا الانحراف في طريقة اختيار الخليفة وتحويل الحكم الإسلامي إلى حكم وراثي ، إلا أن خلافة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـــ) جاءت لتؤكد إمكانية العـــودة إلى التطابق مع الفطرة ، ولما لا تتوافر هذه الإمكانية ؟! فالطريق واضح ومعالمه بارزة أعـــنى المنهج الإسلامي الذي يكفل لكل من التزم به العودة .

---

(١) الغضبان المسيرة الإسلامية للتاريخ ، ص ١٣٧ .

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك ، وبعد إلحاح الناس إذ انه في البداية رفضها حيث وقف بالناس في المسجد مناديا انه لا يريد الخلافة ، ومعلنا علـــى الناس جميعا انه قد خلع البيعة من أعناقهم ، وطالبا منهم أن يختاروا غيره ، فضجوا وضـــج المسجد بالصيحات : " لا نريد غيرك "، وتحت إصرار الناس قبل الخلافة وعدها بلاءً ابتلاه الله سبحانه به . وكجده عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – استشعر عمر بن عبد العزيـز عظم المسؤولية وثقلها ، فكان ينهك قواه في إقامة مصالح المسلمين ، فنُحل جسمه من شدة إجهاده في العمل ، وتورعه من أموال المسلمين ، ومع ذلك فكان يبكى خوفا من الله خشية أن يكون قد قصر في أداء واجبه وعمله ، وكان كما يصفه بعض أصحابه :" كان يبـــدو وكأن النار لم تخلق إلا له ". ومما يدل على حرصه على المسلمين وفهمه الكبـــير لمقـــاصد الإسلام انه رفض ذات مرة صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة قـــائلاً :" الأكبـــاد الجائعة أولى بالأموال من الكعبة" . وكان رضى الله عنه –كجده عمر– رحيم بالراعيـــة ، أرسل إليه أحد ولاته على وهو والي خرسان يستأذن باستخدام قليل من العنف والقوة مـــع أهلها ، واصفا أهلها بأنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فرد عليه بقوله :" كذبت بل يصلحهم العدل والحق . فابسط ذلك لهم واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين" . وأرسل إلى جميع ولايات الدولة الإسلامية منشورا للناس يقول :" من ظلمه إمامه مظلمة فلا أذن له عليّ" . وفرض لكل من يأتيه شاكيا بظلم مبلغا لا يقل عن مائة ولا يزيد عن ثلاثمائة دينـــار ، حسب المسافة التي يأتيها الشخص .

وكان رضى الله عنه يمثل الصورة الحقيقية للإسلام ، بناحيتها الباطنية والظاهرية، ممـــا دفع الكثير من أهل الذمة إلى الدخول في دين الله أفواجا ، فقلت الجزية التي تدفع للدولـــة الإسلامية ، حتى أرسل إليه أحد الولاة يطلب السماح بأخذ الجزية منهم – رغم دخولهـــم الإسلام – معللا ذلك بأنهم دخلوا الإسلام من اجل أن تسقط عنهم الجزية ، فرد عمـــر بقوله :" إن الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا" .

وهكذا حقق عمر الأمن والسلام والطمأنينة لرعايا الدولة الإسلامية من مسلمين وغير مسلمين . كما قام بعدة إصلاحات مادية – كنتاج طبيعي للتطابق مع المنهج الإســـلامي – زادت من قوة الدولة الإسلامية وعظمتها، منها : أنه فرض لكل فرد من بيت المال ما يغطى

حاجته في المسكن ، والأثاث ، والفرس الذي يركبه ، ومن كان غارماً قضي دينه . انشأ دور الضيافة للمسافرين ، وأبناء السبيل في أنحاء الدولة الإسلامية . وكفل حاجات العلماء والفقهاء حتى يتفرغوا للعلم . وجعل رواتب الولاة كبير حتى يتفرغوا لأعمالهم ، وخوفا من أن تمتد أيديهم إلى الرشوة . وكفل الأيتام ووضع مطابخ لعامة الناس . وقام بإصلاح الأراضي الزراعية ، وحفر الابار، وتعبد الطرق ، وبناء المساجد . وبالإضافة إلى هذا فقد قدم خدمة جليلة للإسلام تتمثل في تدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خوفا من ضياعها وإدخال الكذب فيها . وبهذا استطاع رضى الله عنه أن يرتفع بالدولة ، كل الدولة – على مستوى الفرد والمجتمع والجيش – إلى مستوى التطابق مع الفطرة والرسالة ، فعمت السعادة وزاد الإيمان ، وانتشر الخير واختفى الشر بدرجة كبيرة ، كما اختفى الفقر أيضا حيث كان جامعوا الزكاة يبحثون عن الفقراء والمساكين فلا يجدوا أحدا . وهكذا صنع الإسلام أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وعمر بن عبد العزيز وسيصنع غيرهم من بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن فيها ، وما ذلك إلا لأن المنهج موجود كامل غير ناقص ، فإذا قصدته الأمة راغبة الرفعة والعلو لبى طلبها بغير نقصان .

وكل دولة تشيخ ، وشيخوختها في بُعد أبنائها عن مبادئها التي قامت عليها وعدم تعصبهم لهذه المبادئ ، وشيخوخة دول الإسلام في بُعد أبناء الإسلام عن مبادئ الإسلام . والوراثة في الحكم بُعد عن الإسلام لذلك فقد أودت هذه الفكرة بحياة الدولة الأموية ، وأسرعت بشيخوختها ، لا لأن الدولة تعصبت للعرب كما يقول بعض القائلين . فمن أين اكتسب الأمويين حق توارث الحكم ؟ لم يكن الأمويون من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لهم السبق في الإسلام . فإن كان هناك حق لأحد في وراثة الحكم فالأولى به آل البيت ، وبنى العباس بن عبد الطلب من آل البيت ، فهم أذن أولي بالخلافة من بني أمية ، وبمعاونة الفرس قامت دولة بني العباس وسقطت دولة بني أمية .

ولقد توافرت عدة عوامل في أواخر دولة بني أمية ساعدت العباسيين على إسقاطها ، وهذه العوامل هي :

أولا : انغماس الخلفاء في اللهو والترف : وتجلت هذه الظاهرة الخطيرة عقب وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك ، وتولى الخلافة من بعده في سنة ١٢٥هـ /٧٤٣م الوليد بن يزيد بن

عبد الملك ، فقد طلب هذا الخليفة الملذات ، من معاقرة للخمر وانصراف إلى الصيـد . ثم جمع إليه المغنيين والندماء في قصور الترف التي أقامها في بادية الشام ، واغفل تماما أمـور الدولة . وصارت الدولة الأموية تتعرض للاضطراب الإداري ، وتفقد الاستقرار الذي كان سمة من سمات عظمتها ، وغدت أمور الدولة في يد القيان وغيرهم من أصفياء الخلفـاء في اللهو والمجون . وأخذت بذلك تتصدع أركان الدولة الأموية ، وتعاني من معالم الاضمحلال والفساد.

ثانيا : انقسام البيت الأموي : وظهر مع انغماس الخلفاء في اللهو ، انفجار الأطماع الكامنة لدى أبناء البيت الأموي نحو الاستئثار بالسلطة العليا لأنفسهم من دون الخلفاء القـائمين بالأمر . وكان السبب في قيام تلك الظاهرة سوء نظام الوراثة الأمـوي في الخلافـة ، ولا سيما أيام الفرع المرواني ، إذ كان الخليفة يعهد إلى أبنائه من بعده بالخلافة الواحد منهم بعد الآخر على التوالي . ولكن كثيرا ما حاول الخليفة التخلص من هذه الالتزامـات بإبعـاد اخوته وإقرار الخلافة لأبنائه . وزاد هذه الظاهرة خطورة تطلع أبناء البيت الأموي من غير الأسرة الحاكمة إلى اغتصاب السلطة لأنفسهم . وبلغت تلك الانقسامات مرحلة الهدم لهيبة الدولة الأموية على عهد الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فقد ثار عليه بن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وانتهى الصراع بقتل الخليفة سنة ١٢٦هـ / ٧٤٤م ، وتـولى يزيد بن الوليد الخلافة .

ثالثا : انطلاق العصبية القبلية : وقد لازم انقسام أبناء البيت الأموي انفصام الوحدة الـتي جهد خلفاء بني أُمية الأُول ، ولاسيما منذ خلافة معاوية على السيطرة عليـها ، وذلـك بالتنسيق بين القبائل العربية ، سواء أكانت من عرب الجنوب أو عرب الشـمال ، ودون تمييز فريق على الأخر . وكانت تلك القبائل قد تفرقت عقب الفتوح في سائر أرجاء الدولة الإسلامية ، وغدا لها وزن كبير في إدارة تلك الدولة ومرافقها . وقد انهار هذا الانسـجام حين استعان أبناء البيت الأموي ، أثناء صراعهم الداخلي على السلطة بالقبائل التي ينتمون إليها . فقد اعتمد الخليفة الوليد على القبائل اليمنية بالشام للإطاحة بخلافة ابن عمه الوليد بن يزيد ، وأثار هذا العمل ثائرة قبائل عرب الشمال التي اشتهرت بالقبائل القيسـية . ثم

امتد هذا التعصب[1] ... إلى سائر أرجاء الدولة . وصار الوضع في الدولة يسير سريعا نحو الانحلال الداخلي والزوال التام[2].

---

(١) التعصب هنا – كما هو واضح – هو تعصب بين القبائل العربية بعضها البعض لا تعصب ضد الأجناس الأخرى ، كما يحلو لبعض المؤرخين أن يقول .

(٢) د / إبراهيم احمد العدوى : تاريخ العالم الإسلامي ، جـ١ ، عصر البناء والانطلاق ، معهد الدراسات الإسلامية ، د . ت ، ص ١٨٩ – ١٩٠ .



الفصل الثاني : العصر العباسي
(عصر الميراث الثقيل)



انطلق العباسيون في حكمهم من مقولة أن :" قيادة المسلمين بعد الرسول الكريم يجب أن تكون من أهل بيت النبي "صلى الله عليه وسلم " ، ولقد قربت هذه المقولة نظام الحكم العباسي من نظرية " حق الملك المقدس "التي كانت سائدة في الفرس ، حيث اصبح الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ... وهذا بلا ريب يخالف نظام الحكم الإسلامي الحقيقي على نحو ما شرحه الخليفة أبو بكر في قوله : " إن أحسنت فشجعوني ، وان أسأت فقوموني "(١) .ولقد أثرت هذه الفكرة في العامة حتى ساد بينهم فكرة ترمى إلى أن الأمر يجب أن يبقى في بنى العباس ، حتى تنتهي الأرض وما عليها . ولقد أدت هذه الفكرة بدورها إلى امتداد عمر الخلافة العباسية (١٣٢/ ٦٥٦هـ)(٢).

وعلى الرغم من هذا الانحراف في طريقة اختيار الخليفة ، إلا أن الدولة العباسية انطلقت في حكمها من الإسلام ، فكان الإسلام هو مصدر العمل السياسي والإداري ، وكانت العقيدة الدينية الإسلامية هي أساس الرابطة الجامعة بين شعوب الدولة العباسية ، على الرغم من اختلاف أجناسهم والوا لهم وقومياتهم . وسيتضح هذا الحكم الإسلامي على كل المستويات الفردية والاجتماعية والسياسة الخارجية .

لقد أُنيطت الدولة العباسية بأخطر مهمة كُلفت بها دولة من دول الإسلام ، وهى مهمة الحفاظ على الميراث ، سواء كان هذا الميراث عقائديا أو ماديا ، واقصد بالميراث المادي الفتوحات الإسلامية التي أُحرزت في العصور السابقة ، والحقيقة التي لا ريب فيها أن الحفاظ على الشيء اكثر صعوبة من الحصول عليه ، لذا فقد كان الشغل الشاغل للعباسيين هو تأميم حدود الدولة الإسلامية . ولقد نجحت الدولة العباسية في ذلك نجاحا كبيرا حيث استطاعت وضع سياسة تحفظ هيبة الدولة أو الخلافة الإسلامية لدى أقوى جيرانها ، واشدها عداءً لسلطانها ، وهى الإمبراطورية البيزنطية أو " إمبراطورية الروم ". وكانت هذه الإمبراطورية تحقد على العرب بسبب ما قاموا به من فتوحات حملت راية الإسلام إلى كثير من بقاع العالم ، وانتزعت من أراضى الإمبراطورة اسمن أقاليمها في الشام ومصر وشمال أفريقيا . وكان خط الحدود بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية قد وقف

---

(١) د . إبراهيم احمد العدوى : تاريخ العالم الإسلامي ، جـ١ ، ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٦

عند سقوط الخلافة الأموية عند منطقة الأطراف التي تفصل جنوب آسيا الصغرى والتابعة للبيزنطيين عن شمال الشام والعراق من أملاك الدولة الإسلامية ... وقد تعرض هذا الخط من الحدود إلى أخطار شديدة من جانب البيزنطيين ، وذلك في الفترة التي شهدت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ،ولكن ما إن استتب الأمر للعباسيين حتى بادروا إلى تقوية خط الحدود التابع لدولتهم ، ودعم الحصون العديدة التي يضمها هذا الخط الدفاعي . ثم نظم العباسيون حملات عديدة ، استطاعت أن تعبر هذا الخط الدفاعي وان تهدد عاصمة البيزنطيين نفسها ، وهي القسطنطينية . واضطرت السلطات البيزنطية إلى دفع الجزية سنويا للدولة العباسية طلبا للسلام .

وقد أخذت سياسة العباسيين تجاه البيزنطيين شكلا قويا ومنظما عند اعتلاء الخليفة هارون الرشيد العرش (١٧٠هـ) ، إذ عمد إلى تحصين المدن والمعاقل المواجهة للثغرات التي ينفذ العدو منها من جبال طوروس ... وبدأت إغارات الدولة العباسية تخرج بانتظام وفي أوقات معينة من السنة ، صيفا وشتاءً للإغارة على بلاد الروم ، وهي آسيا الصغرى وتهديد العاصمة البيزنطية نفسها ... واشتهرت تلك الإغارات العباسية البيزنطية باسم الصوائف والشواتي(١).

هذا على المستوى الخارجي ، أما على مستوى الخلفاء أنفسهم فقد كانوا- أو معظمهم - على درجة عالية من الحماسة للإسلام والعمل من أجله . فالسفاح (عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس) .(١٣٢-١٣٦هـ)كان متعبداً . وكان المنصور (عبد الله بن محمد) (١٣٧ - ١٥٨هـ) تاركا للهو واللعب ، وحسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم ، متدينا كثير الخير . وكان المهدي (محمد بن عبد الله) (١٥٨ - ١٦٩هـ) جوادا كريما محببا إلى الرعية فمذ تولى الأمر اخذ في رد المظالم ، واخرج ما جمع أبوه وفرقه بين الناس ، ولم يعطي أهله ومواليه . وكان الرشيد (هارون بن محمد) (١٧٠ - ١٩٣هـ) يقود غارات الصوائف والشواتي بنفسه ، حتى قيل انه يغزو عاما ويحج عاما آخر ، وكان تقيا ورعا يخشى الله في أموره كلها ، فقد كان يصلي في اليوم مائة ركعة نفلاً ... وكان يستمع إلى الوعاظ والناصحين ، ويبكي من خشية الله .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

ولقد فرض هذا المبدأ الإسلامي على الخلفاء العباسيين مقاومة الحركات المارقة ومحاربتها باعتبارها تهديدا ليس للدين الإسلامي فحسب ، بل للخلافة العباسية القائمة على حماية الدين الإسلامي وتعاليمه السامية . وكانت اشد تلك الحركات الدينية خطورة هي : الراوندية والمقنعية والخرمية والزندقة ، ولقد تولى قيادة هذه الحركات نفر من دهاة الفرس وأصحاب المطامع منهم . ولقد قضى أبو جعفر المنصور على الحركة الراوندية . على حين أطاح ابنه المهدي بالحركة المقنعية . وانتهت حركة الخرمية التي قادها بابك الخرمي على عهد الخليفة المعتصم . وهيأت هذه الخطوة العباسية الموفقة ضد الحركات الدينية المارقة السبيل أمام السلطات العباسية للتصدي لأخطر تلك الحركات الهدامة واشدها عنفا وهي حركة الزنادقة([1]).

ولاشك أن هذه الحركات الباطلة الهدامة قد عرضت حياة المجتمع الإسلامي لخطر كبير حيث كان هدفها إشاعة الإلحاد بنشر الأباطيل والخرافات وزرع الشك في الأديان في نفوس الناس ، وتزيف التاريخ ، وإشاعة مظاهر الفجور والفسق ، والدعوة إلى ارتكاب المحرمات ، التي إذا انغمست فيها أمة من الأمم أصابها الانحلال والفناء والزوال . وإزاء هذا الخطر الداهم استعانت السلطات الحاكمة بالعلماء ، فكونت هيئة علمية لتفنيد أباطيل الزنادقة ودعواهم الفاسدة . حتى يعود إلى الصواب من ضل السبيل ، وليدرك سائر الناس الشباك التي نصبها هؤلاء الأعداء للإيقاع بهم في مهاوي التهلكة([2]) . وهكذا استطاعت السلطات الإسلامية بفضل جهود العلماء أن تكمل رسالتها في هدم هذا التسلل الاجتماعي الخطير ... وحفظت للأمة الإسلامية سلامتها وكيانها المتين وهيئة لأبناء تلك الأمة متابعة رسالتهم في خدمة الحضارة الإنسانية في ظل إدارة ساهرة يقظة([3]).

وعلى ما سبق يتضح أن المسلم – في هذا العصر – تطابق – والى حد كبير – مع فطرته لأنه تطابق والى حد كبير مع رسالته – الإسلام – وقد برز هذا التطابق واضحا جليا في قدرة الدولة العباسية على الحفاظ على الميراث المادي والمعنوي ، فاستطاعت أن ترهب

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١١.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٧.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٠.

أعدائها في الخارج ، وان تحفظ على المسلمين دينهم وعقيدتهم أمام طغيان النفس الشريرة المتمثلة في الفرق الضالة والزنادقة .

هذا هو العصر العباسي الذي زادت فيه الحضارة الإسلامية ازدهارا ، فقد كان العلم ونتائجه ، وكان البناء والعمران وشق الأقنية ، والزراعة ، والتجارة ... ومع انتهاء عصر المتوكل (٢٤٧هـ) انتهى هذا العصر وبدأ العصر العباسي الثاني ، عصر الانحطاط والسقوط . ولقد بدأ هذا الضعف أول ما بدأ من النفس ، فالنفس مصدر القوة ومصدر الضعف في المجتمع . وان بحثنا عن سبب ضعف النفس وجدناه يتمثل في فيرس الترف إذ أن مظاهر الحضارة قد بدأت تنحو منحىً جديدا ، حيث اتجه الكثير من المسلمين نحو مظاهر الحضارة الترفيهية فعاشوا في الغناء والموسيقى والشراب . وكنتيجة ضرورية لهذا الترف بدأت الحضارة تتراجع تدريجيا ... وفي مواجهة هذا المرض الخطير ظهرت حركة الزهد والتصوف ، ولكن هذه الحركة لم تكن بالتي ترفع النفوس إلى مستوى التطابق الحقيقي بالفطرة ، بل كل ما تستطيع أن تصنعه أن تجعل مؤشر الهبوط يهبط إلى الهاوية ببطأ.

وكنتيجة لهذا المرض النفسي ظهرت مجموعة آفات أخرى أسرعت بهبوط المؤشر إلى الهاوية .

فأما الآفة الأولى فقد كانت كامنة في نظام الحكم العباسي نفسه ، أعني " نظام الحكم الوراثي" . فالعباسيين من آل البيت ولكنهم – في نظر الشيعة – ليسو من أبناء الحسن والحسين ، وهذا ما يسلبهم الحق الشرعي في الخلافة . فهم – في نظر الشيعة – مغتصبون للسلطة ، معتدون ، ظالمون ، ولهذا وقف الشيعة موقفا معاديا للعباسيين ، وقاموا يعملون ضدهم . فمن جانب ثاروا ضدهم ، واستمرت حركاتهم ، ومن جانب آخر اتهموهم بالظلم ، ورموهم بالمفاسد ، وأوجدوا الدعاية ضدهم والسخرية منهم ومن تصرفاتهم ... وأشاعوا الكذب على الخلفاء العباسيين وخاصة الأقوياء منهم والصالحين أمثال هارون الرشيد الذي كان – كما بينا – يحج أو يغزو والمتوكل الذي أحيا السنة ، وعضد الدولة الذي كان قويا[1]. وهكذا وقع التاريخ العباسي تحت تأثير الشيعة الذين شوهوا تاريخ

(١) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، جـ٥ ، ص ١٧ .

هؤلاء العظماء وغيروا وجه العهد . وفي النهاية سقطت بغداد بعد خيانة الوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي الذي ظاهر المغول وأطمعهم بالسير إلى بغداد ثم أسلمهم إياها .

وأما الآفة الثانية فتتمثل في خطر الفكر الوارد ، فقد ضم الإسلام في أرضه الواسعة كثيرا من الأجناس من ترك وفرس وعرب وبربر وأحباش وغيرهم ، وكانت هذه الأجناس أو الشعوب ذات أديان وأفكار قبل دخولها الإسلام ، فلما انتقلت إلى الإسلام ظلت هذه الأفكار وتلك المعتقدات تؤثر في أدمغة قلة من أصحابها ، وتطفو الى السطح كلما حانت لها الفرصة . هذا بالإضافة إلى أن الحركات الهدامة نشطت من جديد ، وكان ابرز هذه الحركات في هذا العصر هي حركة القرامطة التي أفسدت في ديار الإسلام فسادا كبيرا .كما نشط اليهود والنصارى والمجوس في دس الكثير من الشبهات ضد الإسلام ورموزه .

وأما الخطر الثالث فهو الخطر المتمثل في قوة المغول والصليبين . وقد جرت محاولات كثيرة لإنقاذ الخلافة العباسية من السقوط ، إلا أن هذه الخلافة قد شاخت ، ومن السنن التاريخية والكونية الربانية إن الشيخوخة لا يمكن أن تعود شبابا ، فكل شيخوخة نهايتها الموت لا محالة . إذن كان لابد لهذه الخلافة أن تزول من الحياة . وكانت أزالتها في هذه المرة على يد قوة وثنية ، وصليبية . فقد كان الغزو المغولي أو التتري موجة من الموجات العاصفة التي واجهت عالم الإسلام ، واستمرت تجتاحه بعنف على دفعات متوالية خلال قرنين ونصف ... وقد اقترنت غزوات التتار بغزوات الصليبين ، وارتبطت بها وفق مخطط عسكري في محاولة وضع عالم الإسلام بين فكي الكماشة قوامها الصليبيون والتتار الذين كانوا على صلة بالقوى الأوربية التي تدعم الحملات الصليبية.

وإذا كانت الغزوات التتارية والصليبية قد تحطمت على يد المماليك بقيادة سيف الدين قطز في معركة عين جالوت والأيوبيين بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين فما كان ذلك بالذي يحول دون موت الخلافة العباسية التي شيعت جنازتها على يد هولاكو قائد المغول عام (٦٥٦هـ) ، ولكن جاءت هذه الانتصارات لتؤكد أن الإسلام قاهر لا يُقهر ، حيّ لا يموت ، وانه قادر على بعث موات الأمم باستمرار . ثم إن حركة التاريخ أصبحت في غير حاجة إلى هذه الخلافة التي كان لابد لها أن تموت لتفسح المجال لآخرين لكي يقوموا بدورهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، ولتعود المسيرة نحو الفتوحات وإخراج الناس

من الظلمات إلى النور . ولهذا يمكننا أن نسمى العصر العباسي الثاني بأنه عصر الـــدول لا عصر الخلافة . فالتتار لم يأتوا ليهزموا الإسلام ، وإنما جاءوا لينفذوا سنة الله في خلقه والتي اقتضت زوال الدولة أو الأمة التي تخلفت عن منهج ربها ، يؤكد هذا أن التتار أنفسهم قـد تحولوا إلى الإسلام بعد ثمانين عام فقط من ظهورهم في بلاد الإسلام ، حين أعلن الإمبراطور " تاجدار أوغل" والذي تولى السلطة عام ٦٨١هـ اعتناق الإسلام .

الفصل الثالث :

[عصـــر الـــدول]

(الإســـلام يتحدى)

يمتد هذا العصر من العصر العباسي الثاني وحتى قيام الخلافة العثمانية تقريبا، إذ بمجيء العصر العباسي الثاني بدأ الخليفة يهتز، وتضيع هيبته، مما أدى إلى قيام الكثير من الدول داخل جسد الخلافة ... وكانت هذه الدول تقوى وتتسع بمقدار إيمان حكامها وأفرادها بالإسلام، وتضيق وتفنى بمقدار ضعف هذا الإيمان. وإذا كانت بعض هذه الدول قد لعبت هذه الدول دورا كبيرا في الدفاع عن الإسلام وأرضه ضد الأعداء المتربصين بهما، إلا أن بعضها قد لعب دورا كبيرا في العمل على هدم الكيان الإسلامي من الداخل، النوع الأول من الدول يشبه النفس الخيرة للإنسان والنوع الثاني يمثل النفس الشريرة له. ولذا سنتعرض لنموذجين اثنين فقط من هذه الدول، الأول يمثل النفس الخيرة للمجتمع، والثاني تمثل النفس الشريرة له.

أولا: نماذج من "الدول التي تمثل النفس الخيرة للمجتمع".

١- الدولة الأموية في الأندلسي: أسس هذه الدولة عبد الرحمن بن معاوية عام ١٤١هـ. وجعل عاصمتها قرطبة... وقد استطاعت هذه الدولة - ولفترة طويلة الزمن - أن تهدد الفرنجة (فرنسا حاليا). وإزاء قواتها انكمشت المقاومة النصرانية الأسبانية في الشمال الغربي من شبه جزيرة ا يبريا ... وأمام منعة هذه الدولة الفتية ارتد جيش الفرنجة الذي أرسله شرلمان ملك الفرنجة عام ٧٧٨م. ولقد أكدت هذه الوقعة لملوك أوربا منعة الدولة الأموية الأسبانية، وقدرتها على القضاء على أية محاولة للهجوم عليها مرة أخرى. والتاريخ يؤكد أن هذه الدولة كانت قوية حصينة تنشر العدل والرحمة والأمن والسلامة عندما كانوا متمسكين بالإسلام، فلما تخلوا عن دينهم ووصلت حضارتهم إلى مرحلة الترف دخلت دولتهم - في القرن الحادي عشر الميلادي - في دور طويل من التفكك الداخلي بين أجزائها. على أيدي ملوك الطوائف: حتى زال سلطان المسلمين نهائيا من أسبانيا، وذلك حين استسلم أبو عبد الله ملك غرناطة عام ١٤٩٢م.

٢- الدولة الطولونية بمصر [٢٥٤- ٢٩٢م / ٨٦٨- ٩٠٥م: أسسها أحمد بن طولون، بعد أن تمكن من إقرار الأمور في البلاد، والقضاء على الفتن التي قامت بها، فسادت الطمأنينة بين الناس، وشمل الرخاء البلاد ... ثم ضم إليها الشام حيث

استطاع صد الهجمات المتتالية على بلاد الشام من أسيا الصغرى .وبهذا اســـتطاعت الدولة الطولونية أن تؤدى رسالتها في الدفاع عن أرض الإسلام ضد الروم . في وقت عجزت فيه الخلافة العباسية عن القيام بأي عمل إيجابي في ذلك الميدان ... وبلغ مـــن قوة هذه الدولة أن خشي أباطرة الروم سلطان أحمد بن طولون وراسلوه لعقد هدنــة معه . واستمرت هذه الدولة بقوتها هذه في عهد ابنه خماريه الذي اتبع سياسة أبيـه في نشر الأمن ، والاهتمام بالفقراء والمحتاجين ، والاهتمام بمرافق الدولة ، ثم خلفة حكـام ضعفاء انغمسوا في اللهو والترف والصراع من اجل السلطة فضعفت الدولة ثم زالت ، لتفسح المجال لدولة أخرى تقوم بمهمتها . وهى الدولة الإخشيدية .

٣- **الدولة الإخشيدية** [٣٢٣-٣٥٨ه = ٩٣٥-٩٨٩م : أسسها التركي الأصـــل محمد بن طغج الإخشيد . بعد ما قدمه من خدمات في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الدولة الفاطمية التي كانت قد قامت في تونس ببلاد المغرب ... كما استطاع القضـاء على الفتن والقلاقل الداخلية . وصار قادر على دراسة أحوال العالم العربي المجاور له ، وعمل على خلق وحدة بين أرجائه تحفظ له سلامته من العدوان الخارجي المتصل مـــن جانب الروم . فضم الشام ،بعد عامين ، ليستطيع الوقوف في وجه الروم البـيزنطيين ، فخشيه أباطرة الروم وراسلوه للمصالحة ... وبالإضافة إلى ذلك قام بضم مكة والمدينة لينول شرف الإشراف على الحرمين الشريفين . وتنطبق سنة الفناء والزوال على هـذه الدولة حيث عادت الفوضى إلى البلاد حين كثر الطـــامعون في الدولـــة . فـــزادت هجمات الفاطميين حتى سقطت على يد المعز لدين الله الفاطمي عـــام٣٥٨ هـــــ.. وهكذا سقطت الدولة الإخشيدية لتترك المكان لغيرها ، ولكنها تركت المكان هـــذه المرة لترعة شريرة في نفس المجتمع الإسلامي وهى الدولة العبيدية الباطنية الخبيثة .

٤- **الدولة الأيوبيـة** : أسسها صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي الأصل على أنقاض الدولة الفاطمية [عام ٥٧١١ -١١٧٤م] . وانطلق في تأسيسه لهذه الدولـــة مـــن النفس البشرية يربيها ويؤدبها بأدب الإسلام ، فانشأ من أجل ذلك معاهد الدراســـة الفقهية السنية ، والتي عرفت باسم المدارس ، فادى بذلك خدمة جليلة للمســـلمين حيث أزال هذه الترعة الشريرة من المجتمع المسلم تلك التي تســـمى باســـم الدولـــة

الفاطمية الباطنية . ثم اتجه صلاح الدين إلى حرب الصليبيين – الذين كانوا قد استولوا على عدة مدن إسلامية وأسسوا فيها عده إمارات وتابع سياسة الجهاد ضدهم حتى انتصر عليهم انتصاراً ساحقاً في حطين عام [٥٨٣هـ–١١٧٨م] . ثم استولى على كثير من مدنهم بعد ذلك. ثم خلف صلاح الدين خلفاء ضعفاء سيطرت عليهم الأهواء ، فاختلفوا فيما بينهم طمعا في الحكم . فكان لا بد لهم أن تزول دولتهم لتفسح المجال لدولة جديدة فتية هي دولة المماليك . فسقطت هذه الدولة عام ٦٥٠هـ–١٢٥٠م بعد أن أدت للإسلام ثلاث خدمات جليلة : الأولى" تربية أهل مصر تربية إسلامية صافية على مذهب أهل السنة والجماعة" . الثانية" تتمثل في القضاء على نزعة من نوازع النفس الشريرة" في جسد الإسلامي . الثالثة" تتمثل في طرد الصليبيين من بيت المقدس" قبلة المسلمين الأولى وأحد أهم معالم المبدأ الإسلامي الأرضية .

٥- **الدولة المملوكية :** أسسها أحد المماليك وهو السلطان أيبك عام ١٢٥٠م ... وفي عهد سلاطين المماليك بلغت مصر مبلغا عظيما من القوة ، يؤكد ذلك قدرتها على صد كثير من الأخطار الجسمية التي هددت البلاد الإسلامية عامة والشرق العربي خاصة ، فقضوا على الخطر المغولي الذي أزال الخلافة العباسية من بغداد عام ٦٥٦هـ – ١٢٥٨م ، وأخرجوا جيوش الصليبيين من الشام . فلما أصابهم الترف بسبب أموال التجارة عليهم . دب فيهم الضعف ، في الوقت الذي تطورت فيه الدولة العثمانية التركية واتسعت بحيث شملت أجزاء كبيرة في أسيا الصغرى والبلقان ، حتى غدت ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على العالم الإسلامي فحاربت المماليك وقضت على دولتهم ودخلت مصر عام ١٥١م .

٦- **الدولة السلجوقية [٤٤٧-٥٩٠هـ] :** أسسها طغرل أحد أحفاد سلجوق زعيم أحد قبائل الغزو التركية السنية المذهب في نيسابور ،ثم انتقلت عاصمتهم إلى الري ثم أصفهان ثم مرو . وتوسعت وامتدت على أنقاض دولة البويهيين الشيعية المذهب . وانطلاقا من الإيمان استطاع ثلاثة من ملوك هذه الدولة أن يحفظون للدولة هيبتها ، وان يتجهوا بالفتوحات نحو بلاد الروم ، وهم طغرل بك(٤٤٧-٤٥٥هـ) ، وألب

أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ) ، وملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) فَفُتِحت على أيديهم ارمينا، ومناطق أخرى من أسيا الصغرى . وفى عهد ألب أرسلان تجسد الإيمان بكل معانيه على الأرض في هذا الرجل وقلة من جيشه ، حيث وقعت المعركة الشهيرة بمعركة "الجيش المكفن" أو "ملاذ كرت" ، حيث استطاع خمسة آلاف جندي بقيادة ألب ارسلان عام (٤٦٢هـ-١٠٧١م) هزيمة الجيش الروماني النصراني المكون من مائة ألف جندي ، وأسر قائدهم الإمبراطور رومانوس ديوجنيس ، فمهد بذلك الطريق لفتح القسطنطينية ، بل ولقد كانت هذه المعركة هي السبب الرئيسي في الحروب الصليبية ، حيث اهتزت أوربا لهذه الهزيمة الشنعاء ، وكانت أول حملة صليبية بعد ستة عشر عاماً من هذه المعركة . فمن منطلق الإيمان قدم هؤلاء المؤمنين القليلو العدد أنفسهم لله فانتصروا – وخلد ذكرهم في الدنيا والآخرة – على مائة ألف جندي نصراني ، وهو مستحيل بكل المقاييس الواقعية والعقلية ، ولكنه حزب الله ينتصر بالإيمان بربه لا بقلة عدد عدوه ... ومن منطلق الإيمان يعفوا ألب ارسلان عن الإمبراطور النصراني المهزوم ، ولكنه يشترط عليه أن يقيم مسجداً في عاصمته "القسطنطينية" . مما يؤكد ثبات غاية المسلمين دائما وهى إخراج الناس من الظلمات إلى النور . وهكذا أدت الدولة السلجوقية خدمات جليلة للمسلمين وللإسلام وللبشرية ، عندما كان منطلقها الإيمان ، وغايتها الله سبحانه ، وقدوتها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . فلما سيطر الهوى والتنافس على الحكم بين أبناء البيت السلجوقي أخذت الدولة تسير من ضعف إلى ضعف اكبر وذابت في المحيط الإسلامي ، وتركت مكانها لدول أخري لتقوم بدورها في خدمة الإسلام والمسلمين مثل الدولة الخوارزمية ، والدول التي سميت بالاتابكيات" (1).

٧- **الدولة الغزنوية [٣٧٠ _ ٥٨٢ هـ] :** أسسها محمود الغزناوي بن سبكتكين في غزنة بخرسان علي أنقاض الدولة السمانية الشيعية المذهب . انطلق محمود الغزناوي في حكمه من الإسلام فعمل على إقامة دولة إسلامية قوية تمكنه من نشر الإسلام ، ومن

---

(١) الأتابك كلمة تعنى الوالد أو الأمير أو الربي ، حيث كانوا يشرفون في البداية على تربية أبناء السلاطين.

اجل ذلك ضم المناطق الإسلامية التي تقع تحت نفوذ أمراء همهم الأكـــبر الاســـتئثار بالحكم ، ثم شن حربا ضارية ضد الباطنية ، وسيطر على إقليمها ، واشـــتبك مـــع ملوكهم في العديد من المعارك التي استمرت لمدة ٢٥عاما حقق فيها انتصارات رائعة ، حتى جعل من دلهي عاصمة ثانية لدولته . ولم يكن فتح محمود الغزنوي للهند فتحــــا بالسيف ، بل كان فتحا للقلوب ، ولذلك كان فتحا مستديما استمر حتى يومنا هــذا ، وهو ينطلق في فتحه هذا من التزامه القوى بتعاليم الإسلام ، وعدلـــه ، وأخلاقـــه ، وسيرته الطيبة . هذا بالإضافة إلى ما قام به من إصلاحات في ميادين مختلفة ، كتعبيـــد الطرق ، وبناء الجسور ، وبناء المساجد ، ودور العلم ، وتشجيع العلماء والفقـــهاء ، وطلاب العلم .

٨- **الدولة الحمدانية في الموصل والشام [٣١٧ - ٣٥٨هـ] :** أسسها حمدان بن حمدون زعيم قبيلة تغلب وجعل عاصمتها الموصل . ولقد اتسعت هذه الدولة علـــى طول منطقة الأطراف الإسلامية المتاخمة لأراضي الدولة البيزنطية في جنـــوب آســـيا الصغرى... وبهذا غدا قيام الدولة الحمدانية ضرورة لصد هجمات البيزنطيين في وقت أضحت فيه الخلافة الإسلامية نهبا للفوضى والقلاقل الداخلية ، هذا إلى جانب أن هذه الخلافة ليست لديها قوة حربية كافية ... ولم يقف الحمدانيون عند صد الهجمات بل تعدوا ذلك إلى الإعارات على الدولة الرومانية نفسها والاستيلاء على الكثـــير مـــن الحصون . ثم ماتت هذه الدولة بعد تنافس أبناء البيت الحمداني على السلطة .

٩- **الدولـة الأتـابكية :** أسسها عماد الدين زنكي (ت ١١٤٦م) ، وجعل عاصمتــــها الموصل ... وانطلاقا من الإسلام استهل زنكي أعماله ضد الصليبين بانتصـــار كبـــير عليهم في معركة سماها " نصر الأنصار " حيث استطاع بها طرد الصليبيين من " إمــــارة الرها " والتي كانت تعد أهم معاقل الصليبيين في شمال العراق . واستمرارا في سياســـة والده استطاع نور الدين محمود أن يبلغ بالدولة أعظم مجدهــا واتســاعها ، حيـــث استطاع أن يتخلص من الفتن الداخلية ، واستطاع أن يقف في وجه الحملة الصليبيـــة الثانية ويردها خائبة إلى أوربا ... وعلى اثر ذلك انضمت دمشق ... ثم وصلت قواته إلى مصر وسيطرت عليها حين استعان الوزير الفاطمي شاور بنـــور الديـــن محمـــود

ليساعده على خصمه ضرغام الذي استنجد بالصليبيين ... ومنذ ذلك الوقت غـدت مصر محور الارتكاز لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، حيث استطاع صـلاح الدين الأيوبي أن يعلن سقوط الخلافة الفاطمية الشيعية ، وان يحاصر الصليبيين ، ويبدأ الجهاد ضدهم على جبهة طويلة تمتد من مصر إلى الشام .

١٠- **الدولة المرابطية [٤٤٨-٥٤١هـ] :** أسسها يوسف بن تاشـفين (٤٠٠-٥٠٠) أحد تلاميذ العالم الفقيه" عبد الله بن ياسين" وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى الرباط الذي أنشأه هذا العالم الجليل في صحراء المغرب كما سميت " بدولة الملثمـين" لأنهم كانوا يلثمون وجههم . عاش يوسف ما يقرب من مائة عان قضـى معظمـها مجاهداً ، وغازيا يرفع كلمة الله تعالى عالية ، ودخل معارك كثيرة ، فبلغـت شـهرته الآفاق ، وبايعه في الأندلس وحدهما ثلاثة عشر ملكا ووزيـراً . وكـانت معركـة الزلاقة[١] عام ٤٧٩هـ من أهم المعارك التي خاضها يوسف بن تاشفين ضد الجيـوش النصرانية في الأندلس بقيادة" الفونسو" ، حيث جاء بجيش جرار مستغل تفرق ملـوك الطوائف الذين استنجدوا بيوسف ، وكانت نتيجة هذه المعركـة أن هـزم جيـش النصارى ولم ينج منهم إلا مائة فرد فقط ... وبهذا أعاد يوسف بن تاشفين إلى الأمـة الإسلامية هيبتها في نفوس الأعداء وخاصة النصارى . وواصل خلفاء يوسف من بعده حركته الجهاد ، واستطاعوا أن يفتحوا عاصمة إمبراطورية غانا[كومي صاع] واسـلم ملكها ومعه معظم شعبه ، وضم المرابطون إلى الرقعة الإسلامية حوالي نصف مليـون كيلومتر ... ثم انتهت هذه الدولة لتترك الفرصة لدولة الموحدين لتمـارس دورهـا التاريخي في إحياء حركة الجهاد الإسلامي .

ثانيا : نماذج من" الدول التي تمثل النفس الشريرة في المجتمع المسلم":

١- **الدولة بنى البويهية [٣٢٢هـ - ٩٤٣م] :** أسسها أبو شجاع بويه ، وجعـل عاصمتها شيراز ، واخذ في التوسع على حساب الولاة المسلمين المتنازعين فيما بينـهم

(١) سهل يقع على مقربة من البرتغال حاليا .

... ثم اتجه إلى بغداد ودخلها ، وأذل خليفتها ، وأصر على ذكر اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة ، وان يسك اسمه في العملة أيضا ، واصبح الحاكم الفعلي لبغداد ، ثم قبض على الخليفة المستكفي ، وسمل عينيه عام ٩٤٦م ، واختار بدله المطيع خليفة ، فاصبح أداة طيعة في أيديهم . وبلغ البويهيون أوج تجبرهم أيام عضد الدولة الذي اتخذ لنفسه لقب شاهنشاه (أي ملك الملوك) . واستطاع أن يجعل من بغداد مجرد ولاية تابعة له ، كما استطاع أن يضم الولايات الصغيرة المجاورة التي ظهرت على عهده في فارس والعراق ، وبذا اصبح اعظم حاكم في الخلافة الإسلامية . ولكن سريعا ما انهارت الدولة البويهية (١٠٥٥م) بسبب النزاع على السلطة ، ولان مذهبهم الشيعي بغضهم إلى السنيين من أهل بغداد.

٢- **الدولة الفاطمية العبيدية :** أسسها عبيد الله المهدى عام (٢٩٦هـ - ٩٠٩م) ، بمعاونة أبي عبد الله الشيعي ، وجعل عاصمتها رقادة ، ثم انتقل إلى مدينة المهدية التي بنها لنفسه وسمها على اسمه ، وهى تقع على ساحل تونس جنوب شرق مدينة القيروان الحالية ... وذلك بعد القضاء نهائيا على الأغالبة حكام تونس من قبل العباسيين . وكشأن دولة بنى بويه بدأت هذه الدولة العبيدية الشيعية تتوسع على حساب الدول الإسلامية المجاورة غربا مثل الجزائر ومراكش ، وشرقا نحو برقة وليبيا ومصر ، ولم يكتف عبيد الله بهذا بل أعلن نفسه خليفة ، فصار في العالم الإسلامي ثلاث خلافات ، وهى العباسية ببغداد ، والأموية بقرطبة ، والفاطمية بمدينة القاهرة . وسار أبناء المهدي على نهج سياسته التوسعية حتى استطاع أحدهم وهو المعز لدين الله الفاطمي فتح مصر عام ٣٥٨هـ - ٩٦٩م ، والاستيلاء عليها من يد الإخشيديين ، ثم واصل الفاطميون توسعهم على حساب المسلمين حتى اشتملت دولتهم على الشام والحجاز ، وغدا اسم الخليفة الفاطمي يذكر في خطب الجمعة في جميع المساجد من المحيط الأطلنطي إلى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق . وغدت الدولة الفاطمية هي الدولة الوحيدة صاحبة السلطان والنفوذ في شرق البحر التوسط ، وبلغ أسطولها مبلغا كبيرا من السيطرة والتفوق على أسطول الإمبراطورية البيزنطية في العدد والضخامة وحسن الاستعداد ... ولكن هذه القوة لم تكن لتوجه إلى أعداء الأمة الإسلامية ، بل إلى صدر

الأمة الإسلامية والى الخلافة نفسها ، لا لشيء إلا لان هذه الخلافة سنية المذهب .

وبدأ خلفاء هذه الدولة يظهرون عقيدتهم الشيعية الباطنية الخبيثة([1]) بعد أن أخفاها خلفاؤهم الأول ، كالمعز لدين الله الفاطمي ، الذي كان يخفي عقيدته في بطون الكتب السرية حتى أنى وقعت على كتاب مخطوط له عن تأويل الشريعة ، يؤمن فيه المعز بالفلسفة إيمانا بحتا ، وخاصة بالأفلاطونية المحدثة التي تناقض الإسلام تماما([2]) . ولكن الحاكم بأمر الله استطاع أن يظهر هذه العقيدة على الناس (عام ٣٨٦هـ - ٩٩٦م) ، فادعى الألوهية لنفسه ، واضطهد أهل السنة ، وامتد اضطهاده إلى الأقباط واليهود فزرع في قلوب الناس كراهية هذه الدولة ، ولذلك عندما استولى نور الدين بن عماد زنكي على مصر ، وحين أعلن نهايتها صلاح الدين الأيوبي لم يأسف على فنائها أحد من الناس .

هذان نموذجان للدول التي قامت في العصر العباسي الثاني ، تمثل أحدهما النفس الحيوة ، التي تبادلت موقع السيادة في الخلافة الإسلامية فيما بينها ، لتقوم بالدور الذي عجزت

---

(١) يؤمن المعز – كالأفلاطونية – بثلاثة آلهة قدماء – منهم ولد العالم ، أو فاض كما تفيض البيضة من الدجاجة – هم : البارئ والعقل والنفس ، ويرى أن الإسلام ظاهر وباطن ، ظاهره اللغة والشريعة التي هي كالثياب لباطنه الذي هو الفلسفة . ويستعمل التأويل في كل جوانب الإسلام ليجعله يتوافق مع الفلسفة ، فينكر العذاب والنعيم الحسيين ، ويؤول الشيطان بأنه المخالفين لمذهبه ، ويعتبر الشريعة من وضع الرسل ، ويرى النبوة مرتبة يستطيع كل فرد أن يبلغها باجتهاد ، وينكر المعجزات المادية للأنبياء ، وينكر كفر فرعون ، ويروم من وراء ذلك كله تعطيل ظواهر الشرع وتحطيم اللغة العربية [انظر : المعز لدين الله الفاطمي: " تأويل الشريعة وحقائقها وممثولاتها وأسرارها " ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية على ميكروفيلم رقم (٢١٢٠) عن اصل بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء (١٣٠) علم كلام، وبحثنا " التأويل وأبعاده العقائدية والفلسفية " المنشور بمجلة كلية الآداب بحلوان عام ١٩٩٩م].

(٢) تؤمن هذه الفلسفة بثلاثة آلهة قديمة خلاقة هي : الواحد ، والذي تصدر منه الأشياء بلا إرادة أو ميل ، بل لأنه وصل إلى كماله . فكل من وصل إلى كماله يلد بالضرورة موجودا أدنى منه . فيلد الواحد العقل الكلي . ويلد العقل الكلي النفس الكلية . وتلد النفس الكلية أشياء العالم الجزئية من سماوات ونجوم وكواكب وأشجار ونباتات وحيوانات... الخ [انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، طبعة جديدة ، دار القلم بيروت – لبنان ، ص ٢٩١ -٢٩٤].

الخلافة عن القيام به نتيجة لتفتتها وانقسامها إلى دول ... وهذا الدور يتمثل في أمور ثلاثة هي :

١-تأمين الخلافة الإسلامية ضد عدوها الخارجي ، والذي يتمثل في : أولاً :"الصليبيين" الممثلين : (أ) في الإمبراطورية الرومانية التي كانت دائمة الخطر الأكبر على الخلافة الإسلامية – فتصدى لها الكثير من الدول الإسلامية على التوالي كما رأينا – مثل الدولة الطولونية ثم الدولة الإخشيدية بمصر ، والدولة السلجوقية بفارس والعراق . والدولة الحمدانية في الموصل . هذا في المشرق ، وفي المغرب ، قامت بهذا الدور الدولة الأموية في الأندلس . ثم دولة المرابطين... (ب) الحروب الصليبية التي هاجمت الإسلام في عقر داره وفى مقدساته ، فتصدت لها دولة الأتابكة ، والدولة الأيوبية والدولة المملوكية في مصر . ثانياً : "المغول" : الذين سفكوا الكثير من الدماء الإسلامية ، وقتلوا الخليفة المستعصم ، واسقطوا الخلافة الإسلامية ببغداد ... فتصدى لهم أولا الدولة الخوارزمية بقيادة علاء الدين محمد خوارزم شاه ، بقدر استطاعته ، ثم وفق الله في النهاية سيف قطز والدولة المملوكية في مصر في القضاء على هذه الجيوش المغولية الوحشية بعد أن دمرت الكثير من البلاد وقتلت الكثير من العباد الذي وصلوا إلى درجه كبيرة من الانحطاط والجبن وسيطرة عليهم الرغبة في الحياة وكراهية الموت .

٢-إحياء نوازع النفس الخيرة داخل المجتمع ، والقضاء على نوازع النفس الشريرة . فأما الأولى" أحياء نوازع النفس الخيرة" فلقد برزت في عمل بعض الدول والحكام في إحياء روح الجهاد وتحبيب النفوس في الغزو والموت في سبيل الله . فظهرت حركة جهاد كبيرة قام بها أبطال عظماء من أمثال الشهيد عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود بن عماد الدين ، والناصر صلاح الدين ، وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس ... الخ ، ولا شك أن هذا كان حال الجنود الذين قادهم هؤلاء الأبطال . وأما الثانية" قتل نوازع النفس الشريرة " فتمثل في القضاء على الفرق الضالة ، وقد قام بهذا العمل الكثير من دول الإسلام قبل الدولة الغزنوية التي استطاعت القضاء على الفرقة الباطنية التي هددت الدولة والمجتمع من الداخل ، والدولة الأيوبية التي استطاعت القضاء على الحشاشين من الشيعية الباطنية أيضا ، وكذلك تمثل في القضاء على الدول الضالة والتي أنتجتها هذه الفرق . مثل الدولة

البويهية في فارس والتي جعلت كل وظيفتها إذلال الخلافة الإسلامية والتوسع على حساب المسلمين ، فتصدت لها الدولة السنية السلجوقية . والدولة الفاطمية الشيعية الباطنية وتصدى لها وقضى عليها كل من نور الدين بن عماد الدين زنكي سلطان دولة الأتابكة ،ثم أعلن موتها على يد صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية .

ولقد كشف التاريخ - كما رأينا - أنه بينما كانت الدول السنية المذهب - ذات الفهم الصحيح للإسلام - تتجه إلى تهذيب المجتمع وإصلاح النفس البشرية والجهاد من اجل إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، كانت الدول الشيعية تتجه - بكافة الوسائل - إلى هدم المجتمع ، والعمل على تخريب الخلافة ، وزرع الشك في نفوس أفراد الأمة ، هذا في الوقت الذي لم يطلق سهم من سهامهم ضد الصليبيين أو غيرهم من أعداء الأمة الإسلامية الحقيقيين . كما لا يهمهم دعوة غير المسلمين وإخراجهم من الظلمات إلى نور الإسلام ، بل كل الذي يهمهم أن يطعنوا المسلمين في ظهورهم ولو كان ذلك عن طريق الخيانة .

٣-دعوة الناس - من غير المسلمين - إلى الدين الحق ، ومحاربة كل الطواغيت التي كانت تحول بين الناس وبين نور الإسلام ، وقد تم هذا الأمر بطريقين : الطريق الأول هو " طريق الدول" : حيث تصدى لهذه المهمة معظم الدول الإسلامية السنية التي تمثل نفس المجتمع الخيرة ، مثل الدولة الغزنوية التي فتحت معظم الهند ، ونشرت الإسلام بين الكثير من أبنائه الذين مازالوا يتمسكون به حتى يومنا هذا ، ودولة المرابطين التي استطاعت أن تنشر الإسلام في السودان الغربي ، وان تفتح إمبراطورية غانة الوثنية ، وان تحول معظم أهلها إلى مسلمين تحملوا بدورهم أمانة الدعوة الإسلامية حتى" اشتهر أهلها وأغلبهم من (السوننك) بحماستهم في الدعوة إلى الإسلام . حتى لتكاد تختص بعض عشائر السوننك بالعمل في الدعوة إلى الإسلام ، وحتى أن كلمة (سوننك) استخدمها بعض الوثنيين مرادفة لكلمة (داع) . واخذ الإسلام يعم ربوع (غانة) الإمبراطورية وينشر بها مدارس التعليم الإسلامي والتصاهر مع أهلها ، مما امتزجت معه الدماء ، حتى أسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة أبيها "([1]). والطريق الثاني هو طريق غير رسمي بعيد عن الدول ، ويتمثل في عمل التجار والطرق الصوفية وهذا ما سيأتي الحديث عنه .

---

(١) د. حسن عيسى عبد الظاهر : الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا ، وقيام دولة الفولاني ص ١١٤ .

وهكذا ورغم كل المصائب والأمراض التي تعرض لها العالم الإسلامي ، من انحرافـــات أحدثتها النفس الأمارة بالسوء (الشيعة والخوارج وغيرهما من الفرق والحركات الهدامـة) والتي نخرت في الجسد الإسلامي حتى أسقطت الخلافة العباسية ، ونشرت الكثير من الآفات والأمراض النفسية داخل المجتمع المسلم . إلا أن النفس الخيرة (الممثلة في الدول الســنية) استطاعت في النهاية أن تقضي على هذه الآفات ، وان تحمي المبدأ الإسلامي في مواجهـــة المبادئ الأخرى : الداخلية المنحرفة للشيعة والخوارج والقرامطة وغـــيرهم ، والخارجيـــة الكافرة الممثلة في مبادئ النصرانية والوثنية وغيرهم . ليس هذا فحسب بل إنها اســتطاعت أن تمتد بالمبدأ الإسلامي إلى الكثير من المناطق التي كانت تحكمها مبادئ أخرى ، وذلـــك رغم كل الظروف الصعبة والأخطار الكثيرة التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي .



الفصل الرابع

حركة المتصوفة والتجار

(الإسلام لا يموت)



لقد أضاف الإسلام عنصرا إيجابيا ثانيا إلى الشخصية الإسلامية ، فلا يكفي في هـــذه الشخصية أن تقف عند حد التقبل السلبي للإيمان ، ولا يكفيها أن تلــتزم - ســلوكيا - بأوامر الدين الإسلامي وتنتهي عن نواهيه ، بل لابد لهذه الشخصية أن تشد الآخريــن إلى نور هذا الدين الحنيف . ومن هذا المنطلق يستطع الإسلام أن يتحرك بالفرد الواحد الإيجابي ، ينشر به ظله وهديه على العباد ، ويقيم خلافته أو دولته أو فئته الخيرة التي تدافع عنــه . وإذا كان هذا الدور قد قام به محمد صلى الله عليه وسلم والصحابة في صدر الإسلام خـير قيام ، فاخرجوا الناس من ظلمات الوثنية إلى نور الإسلام ، وأسسوا دولة قوية اتســـعت وامتدت حتى كانت لا تغيب عنها الشمس ، فإن هذه المهمة قد وقعت هذه المرة على عاتق طائفتين هما : التجار والصوفية . وقد اتسع نشاط هاتين الطائفتين حتى أنها أضافت إلى العالم الإسلامي ما يقرب من نصف مساحته أرضا وسكانا ، وزادت من ثرائه المادي والبشــري كذلك . وكان أولئك التجار المسلمين من غير المحترفين للدعوة أصلا ، ولكنهم اجتذبــوا الناس حيثما حلوا ... بالمثل الطيب والقدوة الحسنة . فكان التاجر مثال للصدق والأمانــة وسط البيئات التي تجول فيها للتجارة ، وعضواً فعالاً في رفاهية تلك البيئـــات وأهلــها . وصار بهذا الخُلق مثلا أعلى للداعي الإسلامي ، وملجأ للناس يجدون عنده ما يهديــهم إلى الدين الإسلامي وتعاليمه .

وشارك التجار في هذا النشاط من الدعوة إلى الإسلام جماعات دينية اشتهرت باســم "الطرق الصوفية" ، قامت غالبا من أهل القرى والنواحي النائية في الصحاري[1]. والـــتي أضحى الاتجاه الصوفي فيها ضرورة لكل مسلم ، فما من مسلم هناك إلا وينتسب إلى طريق صوفي يتخذه له مدرسة ومنهجا لحياته ... وكان للمتصوفة في غرب إفريقيا النصيب الأكبر في حمل الإسلام ونشره في هذه المنطقة ، وذلك بتجردهم لدعوتهم في وقت أن كانت فيـــه الاتجاهات الأخرى (من شيعية وخوارج وغيرهم) - في الشمال الأفريقي - تتسم بالطابع السياسي وتتعاون في إقامة الدول على أسسها المذهبية هناك ، ولم يكن للصوفية من مـأرب

(١) د / إبراهيم احمد العدوى : تاريخ العالم الإسلامي ، ص ٣٣٣ .

في ذلك بل كانت جهودهم موجهة لإصلاح المجتمع من كل جوانبـــه بـــالتعليم والتربيـــة والجهاد([1]).

وانتشرت هذه الطرق الصوفية عن طريق تأسيس "الزوايا" في الواحـــات والقـــرى ، حيث كان لكل زاوية رئيس هو" المقدم" وهو حلقة اتصال بين المريدين وشيخ الطريـــق . وخرج كثير من أولئك الصوفية من قراهم وواحاقم في ركب القوافل التجاريــــة المـــارة بديارهم ، واخذوا يدعون الناس للإسلام على امتداد طرق القوافل الكبرى([2]). وقد نجـــح نفر من أولئك الصوفية المتجولين بالاشتراك مع التجار في تأسيس" رابطة تجارية اجتماعية" صارت مهمتها - إلى جانب تنظيم شئون المال - كسب الأنصار إلى الدين الإسلامي عـــن طريق الثقة والأمانة وكذلك المصاهرة . وكلما كثر أنصار هذه الجماعـــة كلمـــا ازدادت "الزوايا" التي أسسوها ، حتى صارت كل طريقة تكون شبكة واسعة من الزوايا ، تضـــم الإلوف من الاتباع والمريدين ، وتزيد بالتالي من مساحة دار الإسلام وتكثر من أهله . وزاد من قوة هذه الطرق الصوفية أنها صارت جماعات راسخة الأوتاد ، تنظم نفسها على قواعد الإسلام ، ويربطها هذا الدين برباط وثيق . وقلما أتاحت هذه الجماعات في أول أمرها إلى سلطان سياسي ، ولكنها سرعان ما أنجبت زعامات سياسية قوية ، اســـتطاعت بحماســـها الديني ونشأتها السليمة في رحاب الدين أن تبسط راية الإسلام على ما جاورها من نواحـــي ، وتعلى كلمة هذا الدين الحنيف ... واستطاع أولئك التجار المتصوفـــون أن يكســـروا الحواجز الطبيعية ، صحاري كانت أم غابات ، وحملوا الإسلام إلى شتى أرجاء العالم حـــتى دخلوا أفريقيا المدارية والاستوائية ، ووصلوا إلى أسيا الوسطى والجنوبية والشرقية([3]).

وعن طريق أولئك التجار والمتصوفة أو التجار المتصوفة دخل الإسلام المناطق الآتية .

---

(١) د / حسن عيسى عبد الظاهر : الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا ، ص ٣٧٩ .

(٢) هذه الطرق ثلاثة : الأول يمتد من تلمسان بمراكش إلى تمبكتو على نهر النيجر في الوادي الغربي .

(٣) د / إبراهيم احمد العدوى : تاريخ العالم الإسلامي ، ص ٣٣٤ .

١- بلاد السودان (١) :

لقد استطاع هؤلاء التجار المتصوفة أن يصلوا من مصر إلى الأطراف الشمالية السودانية (النوبة) ، كما نفذوا أيضا إلى هذه البلاد عبر الصحراء الكبرى ، حيث وجدوا في هذه الصحراء قوة ساعدهم على الانتشار . ومن الأمثلة على ذلك قبائل الطوارق الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، واستولت عليهم دوافع الحماسة لنشر هذا الدين بين جيرانهم من القبائل . ومن أمثلة ذلك ما قام به أحد شيوخ قبيلة "لمتونة" في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ، إذ حج إلى مكة ، وبحث في المراكز الدينية بشمال أفريقيا عن عالم يستطيع أن يقوم معه على نشر الإسلام بين بعض القبائل الصحراوية الباقية على الوثنية ، ووجد ضالته في فقيه اسمه عبد الله بن ياسين .

وكان عبد الله بن ياسين هذا منذ صغره متحمسا في طلب العلم حتى عدا من أذكياء الطلاب ، فقد درس على أستاذه (وجاج بن زللو) فقيه المغرب الأقصى ، ورحل إلى الأندلس طلبا للعالم حتى بلغ درجة التدريس قبل أن ينتقل إلى الصحراء فقيها نابهاً ، جمع إلى فقه المغرب علم الأندلس ، وهو وإن لم يدون علمه في كتاب شان أهل الصحراء فإنما دونه في عقول ونفوس تلقته وترجمته حياة عملية . وكان قوى النفس ، حازما ، ذا رأى وخبرة وتدبر حسن ، وملكات واعية ، وقدرة على الحركة والبناء والتأثير في التلاميذ والجماهير معاً ، وتطويعهم للدين والالتزام بآدابه ، حتى لقب بإمام أهل الحق . ويذكر القاضي عياض بعضا من تلاميذ عبد الله بن ياسين ممن اشتهروا في الأندلس ومنهم أمراء الملثمين الذين كان منهم (يوسف بن تاشفين) و(على بن تاشفين)وغيرهما ممن كانوا ملوكاً أشبه بالأئمة بفضل التقاليد التي خلفها فيهم(٢).

وجد هذا العالم الرباني انه لابد من تطوير الدعوة واستأنفها من جديد ، فكان أن وقع اختيارهم على مهجر بعيد يقع في حوض السنغال الأدنى ، فأنشئوا الرباط الذي كان نواة

---

(١) المقصود ببلاد السودان هنا جميع الأقاليم النهرية والصحراوية الواقعة جنوب مصر والصحراء الكبرى.

(٢) د. حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا ، ص ١٠٣- ١٠٤.

للمجتمع الإسلامي الجديد ولدولة المرابطين التي لعبت دوراً كبيراً في نشـــر الإســـلام في إفريقيا ، إلى جانب تصديها للصليبيين في الأندلس .

ولقد انطلقت الحياة في الرباط من الاكتفاء الذاتي في ضرورات الحياة مع التعاون التام لتحقيق هذا الاكتفاء في إطار الحياة الإسلامية المثالية ، وعلى أساس من التقشف والعبـادة والتعليم والالتزام بالتعاليم والحزم الصارم في أدائها ، فكانت الصلوات تؤدى في جماعـة ، ومن فاتته ركعة ضرب خمسا ومن تخلف ضرب عشرين ، وعدوا رفع الصوت في المسـجد مخالفة وألزموا بقضاء الفوائت السابقة .

وكان الهدف من هذه التربية هو إيجاد مجتمع جديد يستطيع إخراج الأمم المجاورة مـن ظلمات الوثنية إلى نور الإسلام ، وإحياء الجهاد . وكانت جبهة السودان هدفـا أساسـيا مقدما على غيره في نظر المرابطين . فنشبت الحرب بين الملثمين المرابطـين وبـين ممـاليك السودان ، وأنتصر المرابطون ، ، فحرروا أودغست – تلك المملكـة الإسـلامية الـتي أخضعتها تحت سلطانها إمبراطورية غرناطة الوثنية – – من سلطان أهل الوثنية ، وضموهـا إليهم عام ١٠٥٥م ، وكان لذلك صداه البعيد بالنسبة للمرابطين ، فرفـع مـن شـأنهم وأعطاهم في نظر المجتمع صورة القوة القادرة على حماية وطن الإسلام ، فازداد الناس تجمعا حولهم ... وواصل الاتباع مراحل جهادهم فتوجهوا به شمالا حتى الأندلس ، وكان لهـم دورهم المجيد حيث عززوا كلمة الإسلام ووحدوا صفوف المسلمين هناك . وتوجهوا جنوبا في اتجاه السودان ممتدين إلى المنطقة الوسطي من نهر النيجر حيث تقع إمبراطورية (غانـا الوثنية) ، وكان هدفهم هناك مطاردة الوثنية ونشر الإسلام . وقد كان ، فقوضوا أركـان إمبراطورية غانا الوثنية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر واستولوا على عاصمتـها كومبي صالح (١٠٧٦م) ، وعينوا عليها حاكما من البربر .

٢- في الشرق الأقصى :

وعن التجارة أيضا انطلق الإسلام إلى الشرق الأقصى وفتح المناطق الآتية :

أ- جزائر الهند الشرقية (إندونيسيا) : وبها اندمج التجار المسـلمين مـع أهلـها وتزوجوا منهم ، وتبع ذلك غالبا اعتناق الزوجات للإسلام ، وبذلـك اسـتقر الإسلام في هذه الجزائر بمرور الزمن .

ب- في جزيرة سومطرة : وبسبب نشاط التجار في الدعوة اسلم ملكها وكثير من اتباعه ، وغدت مدينة (اتجية) مركز للدعوة الإسلامية في القرن السابع الهجري ، وتحمس أهل هذه الجزيرة للإسلام فعملوا من تلقاء أنفسهم على نشره بين جيرانهم .

ت- جزيرة جاوة : استقر الإسلام فيها منذ القرن السابع الهجري عن طريق المراكز التجارية التي أقامتها الجاليات الإسلامية على الشواطئ الشمالية لهذه الجزيرة ، ومن هذه المراكز توغل الإسلام في جميع أرجاءها .

ث- جزيرة الملايو : استقر فيها الإسلام في القرن السابع الهجري عن طريق الجاليات الإسلامية التجارية التي انتقلت إليها من جزيرة سومطرة وجاوة ، وأسسوا بها مدينة ملقا (حيث يقوم ميناء سنغافورة في الوقت الحالي) ، ومنها انتشر الإسلام في سائر أرجاء هذه الجزيرة ، وتقبل الناس الإسلام برضا لأنه دين الفطرة ، ولاشتهار مسلمو الملايو بالتسامح الديني . ومن الملايو وجد الإسلام طريقه إلى بلاد سيام والهند الصينية .

ج- انتشار الإسلام في الصين : دخل الإسلام بلاد الصين كذلك مع التجار المسلمين الذين سلكوا الطريق البحري المعروف بين بلاد العرب والشرق الأقصى . واستطاع أولئك التجار أن يحصلوا عل تسهيلات كثيرة من أباطرة الصين منذ استقرارهم في المدن والموانئ الهامة في القرن الثامن الهجري ، إذ منحتهم إمبراطورية (تانج) حرية العبادة وأداء شعائر الدين ، وبنوا لأنفسهم مسجدا في كانتون[1].

وهكذا تبينت عظمة الإسلام وعبقريته في قدرته على الحركة الذاتية - - بعيدا عن طريق الدول - مستخدما في ذلك مجموعات التجار والطرق الصوفية ، والتي قامت بنشر الإسلام - في هدوء تام - فيما يقرب من نصف مساحته وعدد سكانه . ولاشك أن المبدأ الإسلامي في هذا العصر قد زرع جذوره وبقوة في نفوس اتباعه من خلال علاماته ،

(١) د / إبراهيم احمد العدوى : تاريخ العالم الإسلامي ، ص ٣٤٧ .

من قوة ذاتية وفطرة ومساجد وأفراد أبطال (كنور الدين محمود ، وعماد الدين زنكـــي ، وصلاح الدين ، وسيف الدين قطز ، ويوسف بن تاشفين ، وعبد الله بن ياسين وغــــيرهم ...) ، وكان من نتيجة ذلك ، واستجابة لنداء المبدأ لفطر الناس أن كانت حركة الجـــهاد تنمو وتبرز باستمرار ، وخاصة عند شعور الاتباع بالخطر على مبدئهم ، وتأكد في الوقـــت نفسه أن الله سبحانه وتعالى يبعث لهذه الأمة من يجدد لهم أمر دينهم من ملـــوك وحكـــام ودول بل وطوائف مهنية ودينية (التجار والصوفية) . كما تأكد أيضا أن حركة الإســـلام لا ترتبط بالخلافة أو الدول ، فالمبدأ الإسلامي ليس نتاجا لحركة الخلافة أو الدول ، بل أن الخلافة أو الدول إنما هي نتاج من نتائج حركة المبدأ الإسلامي ، فإذا ماتت خلافة قـــامت أخرى وإذا ماتت دولة قامت أخرى باستمرار حتى يرث الله الأرض ومن فيها ومن عليها ، وذلك بفضل مبدأ الإسلام الحي الذي لا يموت .

الفصل الخامس

[العصـــر العثـــماني]

عصر القوة وإعادة الفتوحات

بينما كانت الدولة العباسية تلفظ أنفاسها الأخيرة علي يد التتار الوثنيين ، وبينما كانت الدول الإسلامية في العصر العباسي الثاني تقوم بمهمتها التاريخية في نشر المبدأ الإسلامي والحفاظ عليه ، كانت العناية الإلهية تعد قوة شابة قوية فتية مؤمنة ذكية لكي تحافظ علي استمرار الكيان الإسلامي وامتداده . وشاء الله أن تكون هذه الدولة الجديدة هي دولة آل عثمان التي أُسست على رأس المائة السابعة من الهجرة (٦٩٩ هـ) . أسسها " عثمان بن أرطغرل " (٦٩٩ هـ /١٢٨٠م) وقد ظلت هذه الدولة قائمة تؤدى دور دولة الخلافة الإسلامية حتى عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي أزيح عن السلطة عام (١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م)

هذه الدولة العثمانية العظمي كانت إسلامية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، إسلامية المنطلق ، إسلامية الغاية والحركة . ولعل في وصية مؤسس هذه الدولة المباركة " عثمان بن أرطغرل " " لأبنه أورخان " خير دليل علي ذلك ، حيث يقول :" يا بني ! إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به رب العاملين . وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلا . يابني ! أحط من أطاعك بالإعزاز وانعم علي الجنود ، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك . وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة . يا بني ! انك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العاملين ، وان بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضات الله جل جلاله . يا بني ! لسنا من هؤلاء الذين يقميون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت وهذا يا ولدي ما أنت أهل له "([1]).

وهكذا " شاء الله " أن يعد لهذه المرحلة " آل عثمان " الذين أسسوا دولة رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلي الله علية وسلم نبيا ورسولا ، دولة يقوم نظامها السياسي علي عقيدة التوحيد ، تطبق شريعة الله ، وتقوم علي الشورى ، دولة يقوم نظامها الاقتصادي علي التعامل بالذهب والفضة ، وعدم التعامل بالربا وعدم الاستغلال أو الاحتكار ، وعدم الاتجار بما حرم الله ، دولة يقوم نظامها السلوكي والأخلاقي والاجتماعي على أساس عقيدة الإسلام ، دولة يقوم نظامها التعليمي والإعلامي على قاعدة من العلوم

---

(١) د. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ وحضارة ، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي ن ١٩٩٤، ص١٢.

الشرعية ، دولة تقوم علاقاتها الدولية علي أساس عقيدة الإسلام ... تطبق شـريعة الله في غالب عهدها .وتقيم الحدود ، وتحرم ما حرم الله ، ولا تستحل إلا ما حرم الله "(١).

"ويتضح الطابع الديني وعمقه في الدولة من حرصها علي تطبيق مبـادي الشـريعة الإسلامية تطبيقا صارماً من ناحية ، وعلي المحافظة علي التقاليد الإسلامية من ناحية أخري. فمن الناحية الأولي كانت الدولة تؤكد في شتي المناسبات أنها تلتزم التزاما دقيقـا بمبـادئ الشرع . ونذكر هنا علي سبيل المثال أنها حين أصدرت قانون نامة الذي وضعه السـلطان سليمان المشرع توجت هذا القانون بجملة معبرة وردت في صدره " قانوننا من سلطاني كي شريعي شريفي موافقاتي محرر أولوب " أي " القانون نامة السلطاني الذي يتفق مع الشريعة "(٢). أما من الناحية الثانية وهي المحافظة علي التقاليد الإسلامية ، فنذكر علي سبيل المثال أيضا أن السلطات العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان ، ولذلـك لم يجرؤ أحد مهما كان مركزه ، وسواء كان مسلما أو غير مسلم ، على أن يأكل أو يشـوب في مكان عام في أثناء النهار طول شهر الصيام ."

" وكان من مظاهر الطابع الذي اتسمت به الدولة العثمانية العناية الفائقة التي أبداهـا السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى ... وقد رصدت الدولة العثمانيـة مبـالغ ضخمة لبناء المساجد ، يقول أحد الباحثين :" إن رصيد الاعتمادات المالية الضخمة علـي تشييد هذه المساجد دليل علي عناية السلاطين بمراعاة الشعور الديني المتسلط علي الرعايا العثمانيين . ومن ثم قام التنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تعاقبوا علـي عرش الدولة . ولم يكن سبب التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين " . ولم يكن اهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مقصورا علي

---

(١) د. جمال عبد الهادي وآخران : الدولة العثمانية ، سلسلة أخطاء يجب أن تصحح في التـاريخ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٩٤ ، ص. ٣-٤.

(٢) د. عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج١ ، مكتبة الأنجلـو المصرية ١٩٧٨ ، ص٥٦.

الأقاليم التي كانت مهاداً للعثمانيين عند نشأة دولتهم ، بل امتد هذا الاهتمام إلي الولايات الإسلامية ([1]).

"ومما تجدر الإشارة إليه – ونحن نتكلم عن الطابع الديني للدولة العثمانية – التسمية الإسلامية التي أطلقها السلطان محمد الفاتح علي القسطنطينية عقب استيلائه عليها ٢٩ من مايو ١٤٥٣ ، فقد استبدل بهذا الاسم اسماً جديدا هو إستانبول . وهي كلمة تركية معناها درا الإسلام . ولا يخفي المغزى الديني لهذا الاسم الإسلامي الذي أطلقه السلطان علي عاصمة دينية وسياسية ظلت قرونا واعصرا وادهارا مقرا للكنيسة الشرقية ، كما كانت عاصمة سياسية للدولة الرومانية الشرقية منذ أن أنشئت سنة ٣٣٠ علي يد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧)([2]) "ويبرز الطابع الديني للدولة في اهتمامها الكبير بإقليم الحجاز منذ أن عدا ولاية عثمانية ...وتجلى هذا الاهتمام في عدة امتيازات قررها السلطان سليم الأول ... لولاية حجاز دون سائر الولايات العثمانية ... فكان الحجاز لا يقدم جزية سنوية للدولة علي الرغم من أن السلطان كان يحرص علي فرض هذا الالتزام علي معظم الولايات العثمانية ... فكان الحجاز لا يقدم جزية سنوية للدولة العثمانية ، أما ولاية الحجاز فكانت تتلقى كل عام اعتمادات مالية ضخمة ترصد في ميزانية الحكومة المصرية ... وإلي جانب إعفاء الحجاز كولاية عثمانية من دفع الجزية للدولة تمتع أهل الحجاز – من قبيل الرعاية لهم – بالإعفاء الضريبي من معظم الضرائب الشخصية والعقارية سوي ضرائب علي أصحاب الأغنام والجمال . وتمتع سكان الحجاز أيضا بالإعفاء من التجنيد أو الخدمة العسكرية . كما أبقت الدولة علي الحكم الذاتي الذي كان يتمثل في نظام الشرافة "([3]).

"وهكذا جعلت الدولة العثمانية الدين من دعائم الدولة ، وعبأت الشعور الديني الجارف في أفراد القوات المسلحة البرية والبحرية ، وعملت علي إعلاء شأن الشريعة الإسلامية ... وأنشأت هيئة كانت من أقوي الهيئات في الدولة هي الهيئة الدينية الإسلامية

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤-٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٥ -٦٦ .

الحاكمة .وكان من مبادئ السياسة العليا للدولة في القطاع الديني أيضا منع تسلل المذهب الشيعي إلي منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقية . وقد جعل العثمانيون من أنفسهم حماة للمذهب السني في العالم الإسلامي"([1]) .

هذا هو منطلق العثمانيين ، إنه إيمان بالله جعلهم يتطابقون مع عقيدتهم ، التي ارتفعت – هي الأخرى بهم إلى فطرتهم – فانطلقوا يعبدون الأرض لله رب العاملين ، فكان حب الآخرة التي استرخصوا معها حياتهم الدينوية أثناء حركاتهم الجهادية التي أحبوها حبا جما ... وكان من نتيجة هذه الحركة الجهادية أن امتدت الحدود السياسية للدولة الإسلامية على عهد آل عثمان لتشمل أحيانا إيران والعراق ، وأذربيجان ، وأرمينيا ، وشبه الجزيرة العربية ، وسورية وفلسطين ومصر ، وتونس ، والجزائر ،حتى حدود المغرب ، وشبة جزيرة الأناضول ، وشبة جزيرة البلقان ، وأوربا الشرقية حتى جنوب فيينا وأبواب لينجراد ، بما في ذلك بلجراد وصربيا ، والجبل الأسود ،كوسوفو ، والسنجق ، والبوسنة والهرسك ، أي أن حدودها السياسية امتدت في أفريقيا ، وأسيا ،وأوربا ، من إيران شرقا إلي أسوار فيينا غربا ، ومن الحبشة جنوبا إلي المجر شمالا. وفي ظل الحكم العثماني كان البحر الأبيض والبحر الأسود ، والبحر الأحمر بحارا إسلامية لا مكان فيها لأسطول الفرنجة ، لأن العثمانيين كانوا يعتبرون دخول أي مركب أجنبية خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين ولديار الإسلام([2]). وبالإضافة إلى ما سبق فقد قدمت الدولة خدمات جليلة للإسلام وللعروبة تتضح في الآتي :

أولا : حماية الأماكن المقدسة الإسلامية من مخططات الصليبية البرتغالية :" كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي للبحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . فعلى الرغم من أن الدولة أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي إلا أنها نجحت في منع تغلغله إلي الحجاز حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشية ، وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٢) د. جمال عبد الهادي وآخران : الدولة العثمانية ، ١-٢ .

الحجاز باحتلال ميناء جدة، ثم الزحف علي مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهـــدم الكعبة المشرفة ، ثم موالاة الزحف منها علي المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلـوات الله وسلامه عليه ، ثم استئناف الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس والاسـتيلاء علـى المسجد الأقصى ، وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة في أيدي البرتغـاليين "(١). وحـرص البرتغاليون علي الاستيلاء علي هذه المساجد الثلاثة يؤكد وعيهم بقيمة هـذه المسـاجد باعتبارها من أهم علامات المبدأ الإسلام . ولهذا قررت الدولة العثمانية " اتخاذ اليمن قاعدة حربية للدفاع عن البحر الأحمر ومنع السفن البرتغالية من دخوله ... ثم عممت هذا المنـع علي جميع السفن المسيحية بحيث كان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في ثغر المخـا في اليمن وتعود أدراجها إلى المحيط الهندي ، وكانت شحنات هذه السفن يعاد نقلها علـى سفن إسلامية يعمل عليها بحارة مسلمون وترفأ إلى ثغور البحر الأحمر . وكـانت حجـة الدولة العثمانية في هذا المنع هي أن الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز تطل على ميـاه البحر الأحمر ويجب ألا تدنس بوجود سفن مسيحية تمخر عباب هذا البحر . وقد ظل هـذا الحظر معمولا به حتى القرن الثامن عشر(٢).

ثانيا : الدولة تحافظ على إسلام وعروبة شمال أفريقية :" من الخدمات الجليلة التي أسـدتها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة ، بل لعل من أعظم خدماتها أنها حافظت علـى إسـلام وعروبة سكان شمالي إفريقية من أخطار الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي الذي حملـت لواءه البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصليبية التي اشتهرت باسم فرسان القديس يوحنـا ... وكان من أهداف هذا الغزو أيضا إنشاء ممالك مسيحية تتناثر علـى السـاحل الشـمالي لإفريقية كمرحلة ثالثة وبذلك يغدو البحر المتوسط في المدى البعيد بحيرة مسيحية أوربيـة ، ويعقب ذلك في مرحلة أخري تغلغل صيلبي أوربي جنوبا في داخل القارة الأفريقية . ولكـن تصدت الدولة العثمانية لهذه المشروعات الصليبية الاستعمارية فأصبحت أحلاما وغـدت هباء منبثا "(٣).

---

(١) د. عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية ، جـ٢ ، ص ٨٦٢ - ٨٦٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٦٤ .

ثالثا : إيجاد وحدة على الطبيعة بين الولايات العربية :"ومن الخدمات التي أدتها الدولة للعالم العربي أنها أوجدت بين الولايات العربية التي دخلت تحت سيادتها - من منطقة الخليج العربي إلى الحدود الغربية للجزائر في شمال أفريقية - وحدة على الطبيعة من نوع خاص ، فاحتفظت هذه الولايات بمقوماتها الأساسية : الدين الإسلامي ، واللغة العربية ، والثقافة العربية الإسلامية ، والتقاليد والعادات الموروثة عبر الأعصر والأدهار . وكان سكانها تجمعهم دولة إسلامية واحدة هي الدولة العثمانية ، وينتمون لجنسية واحدة هي الجنسية العثمانية بالتعبير الحديث ، وتضمهم رعوية واحدة بصفتهم رعايا عثمانيين ويشتركون في تبعيتهم لحاكم واحد هو السلطان العثماني . ولم تلجأ الدولة العثمانية إلى إقامة حدود مغلقة بين الولايات العربية أو حواجز مصطنعة بين سكانها فكانت حرية الانتقال والسفر أمامهم مكفولة ومحترمة في جميع الأوقات ... وكانت هذه الوحدة هي أول وحدة تتحقق للعالم العربي إبان الحكم العثماني بعد تفتت وحدته بسقوط الدولة العباسية في حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عقب غزو المغول وتخريب مدينة بغداد وانسياحهم في وادي الرافدين ثم شمال بلاد الشام إلى جنوب فلسطين . ولذلك يري جمهرة من المؤرخين والباحثين أن الوحدة التى تمت على أيدي العثمانيين هي نقطة البداية في تاريخ العرب الحديث... وكانت وشيجة الدين من أقوي الوشائج التي ربطت الجماهير العربية بالدولة العثمانية ، فاخلصوا لها واشتركوا في حروبها ضد التكتلات الصليبية التي واجهتها ، وكان يزداد ولاؤهم لها والتصاقهم بها إذا تعرضت الدولة لهزيمة عسكرية من دولة أوروبية (١).

رابعا : إبعاد الزحف الاستعماري عن الوطن العربي طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون : حيث" ظلت الولايات العربية زهاء فترة ترواحت بين ثلاثة وأربعة قرون من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين بمنأى عن الزحف الأوروبي الاستعماري عليها مد بقيت الدولة العثمانية قوية مهيبة الجانب . فلما دخلت الدولة في دور الاضمحلال ووضح للدول الأوربية أن القوات العثمانية المسلحة لا تستطيع الصمود بنجاح للهجوم الاستعماري بدأ العالم العربي يتعرض للغزو الأوروبي المسيحي ، كما تعرضت لهذا الغزو

(١) المرجع السابق ، ص ٩٣٦ - ٩٣٧ .

أقاليم أخري إسلامية خارجة عن نطاق الدولة العثمانية في إفريقية واسيا والاقيانوسية وغيرها ([1]).

خامسا : "الدولة تضفي الهدوء والاستقرار علي الولايات العربية" . أضفت الدولة العثمانية على ولاياتها العربية نوعا من الهدوء السياسي ولذا فقد " أخلد السكان في الولايات العربية إلى السلبية والخضوع للعثمانيين ، فقد كان العثمانيون مسلمين مثلهم ،وكانوا يعتنقون المذهب السني مثلهم ، ويحرصون على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية . ويحافظون على الشعائر الدينية ... وكان الحكم العثماني حكما غير مباشر ، ولم تضيق السلطات العثمانية الخناق على الجماهير بل تركتهم لشيوخ طوائفهم التي ينتمون إليها ... وتركت للجماهير شئون التعليم والصحة والمواصلات وغير ذلك من المرافق التي تعتبر في الوقت الحاضر من صميم واجبات الحكومة ... وكان كبار العلماء الي جانب نشاطهم العلمي المتعدد والجوانب ، يمارسون زعامة شعبية على الجماهير لم تحاول السلطات العثمانية أن تنال منها ، بل كانت توقدها بل وتخشاها وتعمل علي الإفادة منها عند وقوع انتفاضة شعبية أو أزمة طارئة([2]).

سادسا : "الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية" :ومن المعروف أن المذهب الرسمي للدولة العثمانية كان المذهب السني واعتبرت نفسها حامية لهذا المذهب . وتأسيسا على هذه الحقيقة فإنها منعت انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية في آسيا وأفريقية . وبينما لجأ الشاه إسماعيل الصفوي - الذي سبق العثمانيين إلى العراق - إلى العنف والإرهاب في نشر المذهب الشيعي في أرجاء العراق وقام بقتل أئمة السنة هناك . نجد الدولة العثمانية قد احترمت مشاعر أهل الشيعة واهتمت بتعمير مناطق العتبات المقدسة ويسرت زيارتها أمام شيعة العراق وفارس والهند وأفغانستان وغيرها ... وقد وجدت الدولة العثمانية اقليات شيعية في أجزاء بعض الولايات العربية فأبقت عليها مثل طائفة العلويين والدروز في لبنان . وكان أهل اليمن يعتنقون مذهبا شيعيا هو الأمامية

(١) المرجع السابق ، ص ٩٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٦١ - ٩٦٢ .

الزبدية ووصلت إلى اتفاق بينهم يجمع بين الاعتراف بمذهبهم ومقتضيات السيادة العثمانية في اليمن([1]).

سابعـــا :" الدولة تمنع اليهود من استيطان سيناء ": أصدرت الخلافة العثمانية منذ فتحـــها على يد السلطان سليم الأول م ١٥١٧ عدة فرمانات تمنع اليهود من الهجرة إلى ســيناء . وواضح من صدور هذه الفرمانات أن اليهود كانوا يبغون الهجرة إلى هذا الإقليم المصري واستيطانه على أساس أنه يضم الوادي المقدس طوى الذي كلم الله سبحانه وتعـــالى فيـــه موسى عليه السلام تكليما ،فجاءت الفرمانات لتسد الطريق في وجوه اليهود([2]).

ثامنـــا :" الدولة تحد من هجرة اليهود إلى فلسطين" : لقد عاصرت الدولة العثمانية الحركة الصهيونية التي كانت تنادي بتهجير اليهود المشتتين في أنحاء العالم إلى فلسطين وإنقاذهم من الاضطهاد الذي يتعرضون له في المجتمعات التي يعيشون فيها . وطالبوا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين . وتصدت الدولة العثمانية – على الرغم من اضمحلالها في تلك الفترة – لهـذه الحركة الصهيونية والدول الأوروبية المناصرة لها . فرفضت طلبا ليهود روسيا عام ١٨٨٢م بمنحهم تصريحات لدخول فلسطين ، بعد أن تعرضوا لمذابح في روســيا بســبب اتهامــهم بالاشتراك في تدبير مؤامرة اغتيال اسكندر الثاني قيصر الروسيا ســنة ١٨٨١م . وأمــام تزايد نشاطات الصهيونية العالمية من أجل استيطان فلسطين ولما رأي السلطان عبد الحميـد الثاني أن أبصار اليهود في أنحاء العالم قد ازدادت شخوصا نحو بيت المقدس بفعل الحركـــة الصهيونية التي كانت تغذي هذا التركيز على بيت المقدس ... فقرر عبد الحميد إدخـــال تغيير جذري على الوضع الإداري لبيت المقدس فجعلها سنة ١٨٨٧" " متصرفية " خاصـة تتبع الباب العالي رأسا – وقد كانت صنجقية تتبع باشا دمشق منذ فتح العثمانيون بـــلاد الشام عام ١٥١٦ – والمتصرفية في التنظيم الإداري العثماني عبارة عن منطقة تلي الولايـة تريد أن تقرر لها الدولة وضعا متميزا أو كيانا خاصا فتجعلها قسما إداريا قائما بذاته تابعـا للباب العالي رأسا أسوة بالولاية ... وكان هدف السلطان عبد الحميد الثاني مـــن رفـع الوضع الإداري لبيت المقدس من صنجقية إلى متصرفية مستقلة وجعلها رأسا للباب العـالي

(١) المرجع السابق ، ص ٩٦٤ – ٩٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٦٦ومابعدها .

في إستانبول هو إحكام مراقبة الدوائر العليا في حكومة إستانبول على الحد من حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

وهكذا كان على السلطان عبد الحميد أن يتصدر لأطماع هذه الحركة بكل ما أوتي من عزيمة مما أضاف إلى أعبائه في الحكم وفي مواجهة الزحف الاستعماري الأوروبي على ممتلكات الدولة أعباء ثقالا جديدة في مواجهة الصهيونية العالمية ، ويسجل التاريخ بأحرف من نور مقولة هذا السلطان العظيم ليتودور هرتزل زعيم حركة الصهيونية العالمية ، رغم كل الاغراءات المالية التي عرضها عليه هذا اليهودي الحقير ، مقابل السماح لهم باستيطان فلسطين وإقامة دولة يهودية بها ... يقول السلطان عبد الحميد لمن توسطوا بينه وبين هرتزل : " انصحوا هرتزل بالا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع . إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض . فهي ليست ملك يميني ، بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمة فليحتفظ اليهود بملايينهم . وإذا مزقت إمبراطوريتي يوما فانهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن . أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي ، وهذا أمر لا يكون ، أني لا أستطيع الموافقه علي تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة "([1]). وبالإضافة إلى ما سبق فقد رفض السلطان عبد الحميد الثاني مشروع صهيوني سياسي أضفت عليه الصهيونية ثوبا ثقافيا هو إنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس استهدفت منه استقطاب عدد كبير من الأساتذة اليهود في جامعات العالم والباحثين اليهود إلى فلسطين لتكون هذه الجامعة دعامة علمية للدولة اليهودية المرتجاة في فلسطين ، ووسيلة للتسلل الثقافي الصهيوني على أعلى المستويات إلى فلسطين... ولهذا رفض السلطان عبد الحميد المشروع الصهيوني جملة وتفصيلا ، لأنه رأى فيه تمكينا للحركة الصهيونية في فلسطين([2]).

ولا ريب أن دولة تقوم بهذا الدور لابد أن تكون دولة قوية من الداخل أفردوها مؤمنون علي كافة المستويات من الخليفة حتى الرعية والعبيد ... وكان هذا هو واقع الخلافة العثمانية فقد كان آل عثمان ومعظم السلاطين العثمانيين حريصين على تربية

(١) المرجع السابق ، ص ٩٩٠ -٩٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩٤ - ٩٩٥ .

أبنائهم على حب الجهاد في سبيل الله[1]. وما ذلك إلا لأنهم هم أنفسهم كـــانوا حكـــام مجاهدون يقودون جيوش الجهاد الإسلامي بأنفسهم ، مثل محمد الفاتح الذي قاد الجيـــش الذي فتح القسطنطينية بنفسه ، ومراد الأول الذي فتح " ادرنة " سنة ٧٦٣ هجرية ، وقام السلطان " بايزيد بفتح الجزء الشمالي من " بلغاريا " و " الافـــلاق " ، واقـــترب مـــن " المجر"([2]).

وكان الجيش الإسلامي العثماني – وخاصة الفرق التي تعرف باسم الانكشارية –أيضا شديد الإيمان فقد كانت فرق الانكشارية – المشاة – هي الأخرى تربى تربية عســـكرية إسلامية جعلتها تحتل مكانة هامة في الدولة العثمانية " وترجع أهمية الانكشارية إلى عـــدة عوامل ، من بينها كفايتهم القتالية ، وشجاعتهم المفرطة ووفرتهم العددية وضروالهـــم في المعارك الحربية فكانوا يشكلون ثقلا حربيا رهيبا لمصلحة الدولة في الحروب التي كـــانت تخوضها الجيوش العثمانية دفاعا وهجوما سواء في أسيا ، أو في أوربا ، أو في إفريقية .حـــتى أن وجود فرقة واحدة من الإنكشارية _ كما يقول المؤرخ الإنجليزي فيشر _ في جيـــش عثمان كان كفيلا باستماتة هذا الجيش كله في ميدان القتال ... ويرجع فيشر الاستماتة إلى التربية الإسلامية والعقيدة العسكرية([3]).

وإلى جانب هذا كانت الدولة العثمانية تطبق المساواة بين رعاياها المسلمين على الرغم من إختلاف ألوانهم ولغاتهم وأعراقهم فلم تكن دولة عنصريـــة أو عرقيـــة حـــتى عـــام (١٩٠٩م)(حينما وصل إلى سدة الحكم الثوار العملاء) لقد بلغ عدد اللذيـــن تولـــوا منصب الصدر الأعظم (أي رئاسة الوزراء) من الشعوب التي أكرمها الله بنعمة الإسـلام ، مائتين وتسعين شخصا " .من أصل تركي (١٢٣) ، ومن أصل أرناؤطى (سكان ألبانيـــا) (٤٩) ، ومن أصل بيزنطي (٢٣) ومن أصل سلافي (٦)ومن أصل يوغسلافي (بوشـــناق)(١٣)ومن أصل شركسي (١٤)ومن أصل شيشاني (١)ومن أصل عربي (٤) ومن أصـــل

(١) د . جمال عبد الهادي وآخران : الدولة العثمانية ، ص ٢٣ .

(٢) د. عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية جـ١ ، ص ٤٩ ، ص ٤٩٣ .

(٣) انظر د . جمال عبد الهادي وآخران : الدولة العثمانية ، ص ٦ وهامشها .

أرمني (٣) ومن أصل رومي (١) ومن أصل يهودي (١)([1]) . كما كانت دولة متسامحة مع أهل الملل والديانات الأخرى ، فتحت أبوابها لليهود القادمين من أسبانيا نتيجة الاضطهاد النصراني ، وفي ظلها عاش اليهود والنصارى على إختلاف فئاتهم آمنين على دينهم وأموالهم وأعراضهم ، بل إن السلطان الغازي محمد الفاتح " كان حريصا على أن ينتخب النصارى بطريركهم في إسلامبول بملء حريتهم . وكان جميع الرعايا غير المسلمين يخضعون لنظام الملل ، وهو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفا لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة بل على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا ... وقد منح نظام الملل الرعايا غير المسلمين كيانا ذاتيا خاصاً"([2]) .

وكذلك "وخطت الدولة العثمانية خطوات واسعة في القرن التاسع عشر بوجه خاص لإزالة الفروق الدينية والمذهبية بين رعاياها المسلمين وغير المسلمين . فاستهل السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩ - ١٨٦١) حكمه بإصدار مرسوم يسمي خطي شريف جلخانة تعهد فيه بإدخال إصلاحات معينة ، من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص ، بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وأصلهم القومي ، ونص فيه أيضا على مساواة جميع الأديان أمام القانون([3]). ويحدثنا التاريخ بأنه من أجل هذا العدل وتلك المساواة كان أهل الذمة يحبون الخلفاء أكثر من البابا نفسه ، ومثالا لذلك كان مراد الأول ، ورغم أن الكنيسة أعلنته " عدوا لعيسى " " وكافرا " إلا أن تبعته من المسيحيين الذين استظلوا بحكمة كانوا يحبونه ، فقد كان مراد يعاملهم المعاملة الشرعي ... وهذه المعاملة كانت هي العدل بعينه وهي أفضل من معاملة البابا لهم . يقول المؤرخ البيزنطي هالكو نديلاس عن مراد الأول :" قام مراد بأعمال هامة كثيرة ... وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون نظر لفروق العرق والدين "([4]) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٣) د / عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية : جـ١ ، ص ٩٦ - ٩٧.

(٤) د / محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ١٥ .

وهكذا كانت الدولة العثمانية الإسلامية دولة قوية ، استمدت قوتها مـــن شـــرع الله وتطبيقه في كل مجالات الحياة ، فارتقت بأفرادها وتطابقت مع فطرتها وقهرت نوازع النفس الشريرة في داخل رعاياها ، كما قهرت الشيعة الذين يجسدون هذه النـــوازع في داخـــل نفس المجتمع ، فوقفوا في وجه الدولة الصفوية التي كانت تنمو وتكبر وتمتد يمينا وشمالا علي حساب العالم الإسلامي – كشأنهم دائما – ليس هذا فحسب بل أنهـــا أرادت أن تضـــرب العثمانيين من الخلف ... وبعد القضاء أو الحد من النفوذ الشيعي الصفوي الفارسي امتدت الفتوحات العظمية لهذه الدولة العظمية . هذا عندما كانت الدولة متمســـكة بالإســـلام وشريعته الغراء ، فلما تخلت عنهما فقدت سر عظمتها ، وهذا ما أكده العثمانيون أنفسهم في وثيقة من الوثائق الرسمية التي صدرت عن الدولة العثمانية وهي الوثيقة المعروفة باســـم خطي همايوني والتي صدرت في سنة ١٨٥٦ وكان مما ورد فيها :" لا يخفى أنه منذ ابتـــداء ظهور دولتنا العلية كانت الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة في غاية المراعاة الكاملة ، ولذلك كانت قوة سلطنتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد في غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد ولا امتثـــال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة . ولهـــذا تحولت تلك القوة إلى ضعف ، والراحة إلى التعب ، والعمار إلى الدثار ، وأية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول إلي الاضمحلال".

وعندئذ برزت نوازع النفس الشريرة في صور عدة نذكر منها تذمـــر الانكشـــارية وطغيانهم وجبروتهم فبعد أن " كان الانكشارية سلاحا رهيبا حادا باترا اســـتطاعت بـــه الدولة أن تمضي قدما في التوسع الإقليمي المرحلي . وكان الجيش العثماني يضارع أقـــوي الجيوش الأوربية ثم غدوا مركز قوة خطير في حياة الدولة تعرضت بسببه لإخطار جسيمة ، استشرى نفوذهم وازدادوا إدراكا لأهميتهم ومقدرتهم القتالية فداخلهم الغرور ... فكانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة يقتلون بعضهم ، ويتدخلون في تعيين غيرهم في المناصب التي تخلو بقتل أو عزل شاغليها . وأصبح كبـــار موظفي الدولة يخشون الانكشارية ويتملقون رؤساءهم ، وينفذون أوامرهم خوفـــا مـــن بطشهم . وبلغ من عتو الانكشارية أنهم كانوا لا يحفلون بتنفيذ الأوامر العسكرية الـــتي

تصدر لهم من قيادة الجيش[1]. وحيث تضعف النفس الخيرة في المجتمع تبرز النفس الشريرة ، وتسعي إلى السيطرة على النفس الخيرة وعلى المجتمع والدولة ، فظهر الفكر القومي المنحرف الذي نجح في التغلب - ظل غياب الوعي الإسلامي في تلك الفترة - على كيان الدولة الإسلامية ، فكان من نتيجة هذا النجاح أن تسلم حزب الاتحاد والترقي الحكم وعزل السلطان عبد الحميد . ولقد ساعد هذا النجاح خيانة الثورة العربية الكبرى التي ضربت الترك في المدينة المنورة من الخلف وغدرت بهم .

كان لابد للخلافة العثمانية إذن أن تموت ، لا بفعل هذه الخيانات والانحرافات وحدها ، ولكن بسبب ضعف النفس الخيرة وسيطرة النفس الشريرة علي الفرد والمجتمع والدولة ، ثم تأتي هذه الخيانات والانحرافات كأعراض ظاهرة لهذا المرض الداخلي ... كان لابد لهذه الخلافة أن تموت ، ولو تركت وحدها لماتت ، ولكن يأبى الله إلا أن ينال المنافقون إثم قتل هذه الخلافة ... إذ أن المنافقون يظهرون دائما في حالات الضعف التي تتعرض لها الدول الإسلامية - كما تظهر النفس الشريرة في حالات ضعف النفس الخيرة - ليعبروا عن كفرهم ونفاقهم ، ولذا فقد أطل المنافقون برؤوسهم عند احتضار هذه الخلافة العظمية المباركة لينالوا منها ومن الإسلام ومن المسلمين ، فكان أن ظهر عبد الله بن سبأ مرة أخرى ولكن بوجه آخر هو وجه يهودي من يهود الدونمة الذين تظاهروا بالإسلام ليكيدوا للمسلمين وللإسلام وللخلافة ، وهذا الوجه القبيح هو وجه مصطفى كمال أتاتورك ، والذي لعب دورا كبيرا في ضرب الإسلام وإزهاق روح الخلافة بالإجراءات الآتية :

أولا : تقرر في أول نوفمبر ١٩٢٢ الفصل بين السلطنة والخلافة : بمعني إلغاء السلطنة كنظام من أنظمة الحكم في الدولة والإبقاء على الخلافة ، وتقرر أن يقوم المجلس الوطني الكبير " بيوك ملت مجلس " باختيار الخليفة وتعيينه من بين أمراء أسرة آل عثمان ، ولكنه لا يكون سلطانا بل خليفة فقط . (وترتب على ذلك) أن أخرج السلطان محمد السادس من استانبول مبعدا في ١٧ من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٢ ، وحملته سفينة حربية إلى مالطة ، فكان آخر سلاطين الدولة العثمانية . وبهذا الغي نظام السلطنة .

ثانيا : إلغاء منصب شيخ الإسلام .

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٩٤ ، ٤٩٦.

ثالثا : إلغاء الخلافة في ٣ مارس (آذار) ١٩٢٤ ... وقد غادر استانبول في الرابع من مارس ١٩٢٤ آخر خليفة عثماني وهو عبد الحميد بن عبد العزيز ،و أُسدل الستار على نظام الخلافة . وبات العالم الإسلامي بدون خليفة .

رابعا : إلغاء وزارة الشئون الدينية والأوقاف .

خامسا : إدخال تعديل هام على الدستور الذي كان قد اقره المجلس الوطني الكبير في ٢٠ من إبريل (نيسان) ١٩٢٤ . فقد تقرر في إبريل سنة ١٩٢٨ تعديل المادة الثانية من الدستور بحيث يحذف منها العبارة التي تنص على أن دين الدولة التركية هو الإسلام . وقد استتبع حذف هذا النص إدخال تعديلات على المواد التالية الأخرى من الدستور والتي كانت تمس موضوعات فيها إشارة إلى الدين الإسلامي ، فاستبعدت مثل هذه الفقرات من مواد الدستور الجمهوري.

سادسا : وفي فبراير "شباط " سنة ١٩٣٧ أُضيفت إلى المادة الثانية من الدستور عدة مبادئ كان ينادي بها الحزب الجمهوري الشعبي ، فجاء النص المعدل يقول إن الدولة التركية هي دولة جمهورية وطنية شعبية علمانية .

وصدرت قوانين أخري أملتها الروح التي أصدرت التشريعات السابقة ، وكان من بين هذه القوانين إلزام الأتراك بان يستبدلوا بالطربوش غطاءً جديدا للرأس هو القبعة . ويعزو أحد المؤرخين الإنجليز صدور هذا القانون إلي رغبة الحكام الجدد في حمل الأتراك على ترك الصلاة ، لأن لابس القبعة لا يستطيع في سجوده أثناء الصلاة أن يجعل جبهته تمس الأرض ، وصدر قانون آخر بحل طوائف الدراويش وتسريحهم ، وأُلزمت النساء برفع النقاب ، وإلغاء تعدد الزوجات ، وإدخال الحروف اللاتينية في الكتابة التركية ، وترجمة القرآن إلى اللغة التركية للحيلولة دون تلاوته ودراسته باللغة العربية سواء في المساجد أو المدارس والجمعيات الأدبية ، وإخضاع المدارس لإشراف الدولة إلى غير ذلك من تغييرات جذرية مست جوانب كثيرة في الحياة السياسية والدينية والاجتماعية للأتراك ".

وقد دلت تلك التشريعات على أن أعضاء حكومة أنقرة لا يقيمون وزنا للتقاليد الإسلامية والعادات التي درج عليها الشعب التركي قرونا واعصرا وادهاراً ، فقد الغوا بجرة قلم نظام السلطنة والخلافة و أزالوا من الدستور الجمهوري النص القائل بان الإسلام

هو دين الدولة التركية ... ومع ذلك فان الشعب التركي لم يتقبل التشريعات التي مست حياته الدينية ولم يفقد إيمانه بالدين الإسلامي ، وقامت معارضة تكّون منها الحزب الشرقي الجمهوري برياسة نور الدين باشا . وكان من بين المبادئ الأساسية التي تضمنها برنامج هذا الحزب المحافظة علي التقاليد ومقاومة الأخذ بالآراء والأساليب الغربية ، واتخذ حزب المعارضة في سنة ١٩٣٥ خطة الهجوم المسلح ، وأنضم الأكراد إلى حزب المعارضة ، وأصبحت الثورة الجمهورية التركية مهددة بالزوال ، ولكن سيرت الحكومة جيشا بقيادة عصمت إينونو رئيس الوزراء فقضى على الثائرين قضاء مبرما(١).

ولا يعني هذا أن الخير قد انطفأ في نفس الأتراك ومجتمعهم ، فمازالوا – أو مازال الكثير منهم – يحبون إسلامهم ويعملون علي إعادة دولتهم إلي حظيرة الإسلام رغم كل الآلام والطغيان والتضييق الذي يلقاه هؤلاء في أثناء عملهم للإسلام من جانب حراس العلمانية ، فلقد اعدم عدنان مندريس رئيس الحزب الديمقراطي الذي ظهر ي بداية الخمسينيات وفاز في الانتخابات العامة بأغلبية ساحقة ، فتولى على أثر ذلك رئاسة الوزراء واستمر فيها لمدة عشر سنوات منح الشعب فيها الحرية وأحي دينة الحنيف ، فأصبحت المساجد تضيق بالمصلين من جديد ، وعاد الناس يتابعون الاستماع إلي تلاوة القرآن الكريم ، وعلي أثر ذلك ينقض عليه الجيش ، ويطيح بعهده في ٢٧ مايو سنة ١٩٦٠ ، وبتهم الفساد وانتهاك الدستور ، واستغلال الدين لأغراض سياسية ، والخيانة العظمي يعدم هذا الرجل . ولم يتوقف هذا المسلسل حتى يومنا هذا ، حيث كان آخره إرغام رئيس وزراء تركيا المسلم نجم الدين اربكان من رئاسة الوزراء تحت ضغط الجيش التركي الذي يأخذ علي عائقة الدفاع عن الخط الاتاتوركي العلماني . ولكن وبالضرورة ستعود تركيا يوما ما – قرُب هذا اليوم أو بعُد – إلى الحكم بالإسلام رغم غباء حراس العلمانية عبيد الغرب .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥ – ٨٨ .



الباب الخامس

[ما بعد انهيار الخلافة العثماني]

تمهيـــــد :

يبدأ هذا العصر من انهيار الخلافة الإسلامية ، فلقد وقعت الدولة الإسلامية فريســـة للأعداء ، ومادام الأمر كذلك فلابد أن تأكل ، خاصة أنها وقت تحت أنيـــاب ذئـــاب لا تعرف الرحمة ، إنها ذئاب الشر الشرسة التي لا تريد جسد الفريسة فحســـب بـــل تريـــد جسدها وقلبها وعقيدتها وفكرها ، قال تعالى :{ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}. ولذلك يبدأ هذا العصر بتداعي الأمم المشركة على أمة الإسلام ، ثم تخـــف الوطأة قليلا ، فتنتقل الأمة الإسلامية إلى مرحلة الحكم الجبري ، ثم تنتهي هـــذه الجولـــة بانتصار الإسلام وإقامة خلافة جديدة تعيد مجد الإسلام وتنشر نوره في ربوع العالمين .

الفصل الأول

[عصر تداعي الأمم على المسلمين]



قال صلى الله عليه وسلم : "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يؤمئذ ؟ قال بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، فقال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت"(١).

تحول المارد الإسلامي التركي من مرحلة الهجوم والجهاد- حيث خاض اكثر من مائة حرب ضد أوربا الصليبية – إلى مرحلة الدفاع ، وبدأ المرض يدب في جسده ، وعندئذ أسرعت الكلاب الصليبية تنهش لحمه حيا : فاغتصبت هولندة جزائر الهند الغربية عام ١٧٩٨م ، واغتصبت بريطانيا عمان وقطر عام ١٨٢٠م ، وعدن عام ١٨٣٩م ، وإمارات السند الإسلامية عام ١٨٤٢م ، وأراضي القبائل في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية للهند ، ودولة عود الإسلامية للهند عام ١٨٥٦م ، وأسقطت حكم إمبراطور المغول في الهند عام ١٨٧٥م ، واحتلت قبرص عام ١٨٧٨م ، ومصر عام ١٨٨٢م ، والسودان عام ١٨٩٩م ، وضمت أراضي الخانات الإسلامية في بلوخستان إلى الهند البريطانية عام ١٨٨٩م ، واحتلت السلطانات الإسلامية في شمال نيجريا عام ١٩٠٦م ، والكويت عام ١٩١٤م ، والعراق عام ١٩٢٠م ، واحتلت بالاشتراك مع روسيا إيران عام ١٩٤١م ، وأقامت دولة إسرائيل على فلسطين عام ١٩٤٨م . واغتصبت روسيا القيصرية : القوقاز عام ١٨٣٤م ، وطشقند عام ١٨٥٣م ، والمناطق المحيطة بسمرقند وبخارى عام ١٨٨٥م ، وأراضي اوزبكستان عام ١٨٧٣م ، وأراضي خوكند عام ١٨٧٥م ، وواصلت روسيا الشيوعية هذا الطريق فاحتلت هضبة البامير عام ١٩٨٥ ، وأفغانستان عام ١٩٧٩م .واغتصبت بريطانيا إرتريا عام ١٨٨٥م ، وليبيا عام ١٩١٢م ، وجزء من الصومال عام ١٩٢٦م .

---

(١) أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٤٥ ، رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي عن بشر بن بكر عن ابن دابر عن أبي عبد السلام عن ثوبان وكلهم ثقاة باستثناء أبا عبد السلام فمجهول) ، احمد (كتاب باقي مسند الأنصار ، رقم : ٢١٣٦٣ ورجاله كلهم ثقاة) ، مشكاة المصابيح للتبريزي (رقم : ٥٣٦٠) ، هذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٦ ٣٧٠) ، السلسلة الصحيحة للألباني (رقم ٩٥٨) .

وعلى الرغم من هذا ، وعلى الرغم من وجود اتجاهات فكرية تبرر الاستعمار الصليبي لعالمنا الإسلامي([1])، على الرغم من ذلك وغيره فقد خاض المسلمون حروبا لا هوادة فيها ضد الاحتلال الصليبي ، ودفع من دمائه ومقدرات بلاده الشيء الكثير في سبيل استقلاله . ففي مصر واصل المصريون كفاحهم ضد الاحتلال الإنجليزي ، فكان هناك كفاح فردي قام بإذكاء الحركة الوطنية على يد كل من الزعيم مصطفى كامل ومحمد فريد . واستمرت المناوشات والثورات ضد الإنجليز حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، فأضطر الإخوان المسلمون إلى شن حرب العصابات في منطقة القناة ضد الإنجليز ، وأمام ضربات هذا الشباب الطاهر اضطر الإنجليز إلى عقد اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤م . وفي فلسطين وفي مواجهة المخطط الاستعماري اليهودي من قبل الإنجليز قامت عدة ثورات إسلامية على يد علماء إجلاء مثل الشيخ أمين الحسيني مفتي القدس ، والشيخ الشهيد عز الدين القسام الذي أرهق الإنجليز واليهود كثيرا حتى استشهد في معركة مع الإنجليز . وإلى جانب ذلك تدخلت الجيوش العربية وبأت بفشل ذريع ومُنيت بهزائم قاسية ، وتوجوا هزائمهم هذه بالوقوف ضد جهاد شباب الإخوان ولم يكتفوا بذلك فقبضوا عليهم وأودعوهم السجون والمعتقلات ، وهكذا كان الجميع ضد الجهاد الإسلامي الإنجليز واليهود والحكومات العربية آنذاك ، وبالتالي نجح المخطط الإنجليزي اليهودي وأعلن قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م.

أما في بلاد المغرب : ففي الجزائر لم يهنأ الاستعمار الفرنسي بالراحة والسكون فقد قام البطل المسلم عبد القادر الجزائري بحشد الجزائر كلها ضد الاستعمار الفرنسي مُعلنا الجهاد المقدس ، فأحرز انتصارات كبيرة عليهم ثم اضطر للتسليم بعد ١٧ عاما من هذا الجهاد المبارك . ثم واصلتا جمعية "نجمة شمال إفريقيا" وجمعية "العلماء المسلمين" الجهاد بقصد طرد

---

(١) يبدوا هذا الاتجاه التبريري في فكر مالك بن نبي : الذي يبرر الاستعمار من خلال فكرته " القابلية للاستعمار " والتي تسيطر على معظم كتبه ، والذي يؤكد من خلالها أن استعمار أوربا للعالم الإسلامي ليس ظاهرة خارجية بقدر ما هو ظاهرة داخلية تدعمها أسباب اجتماعية [انظر غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر ، ط ٣ ، دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٧م ، ص ٣٩ – ٤٢ ، ٤٦ – ٥٢ ، ص ٥٥] . وفي قول مالك هذا العجب العجاب ، فإذا كانت القابلية للاستعمار ظاهرة داخلية فلماذا قاومه المسلمون وفقدوا في سبيل التخلص منه الكثير من الدماء ؟!!

الفرنسيين والدفاع عن أسلمت الجزائر وعروبتها . ثم تحقق النصر للشعب الجزائري علــى الفرنسيين على يد جيش التحرير الذي تكون عام (١٣٧٤هــ / ١٩٥٤م) ، حيــث اضطرت فرنسا أمام انتصارات هذا الجيش الرائعة إلى منح الجزائـــر اســتقلالها عــام (١٣٨٢هــ / ١٩٦٢م) ، ولكن بعد أن فقدت اكثر من مليون شهيد . أما في المغرب فأن التاريخ يذكر بكل الفخر المجاهد العظيم محمد عبد الكريم الخطابي الذي اســتطاع طــرد الاستعمار من بلاده ، ثم راح يهاجم الفرنسيين وكاد أن ينجح لولا تحالف الأســبان مــع الفرنسيين فأضطر رحمه الله للاستسلام عام ١٩٢٦م . ثم اضطرت فرنسا منـــح البــلاد الاستقلال عام ١٩٥٦م تحت ضغط الحركة التحريرية التي قادها "حـــزب الاســتقلال" بزعامة المجاهد المسلم علال الفاسي . وفي ليبيا قام السنوسيون – وانطلاقا من الزوايــا – بالجهاد المقدس ضد الاستعمار الإيطالي ، وضرب عمر المختار ربيب هــذه الزوايــا أروع الأمثلة للجهاد الإسلامي ، وبعد جهاده الطويل وقع أسيرا فتم إعدامه ، فواصل الشــعب الليبي جهاده حتى نال استقلاله عام ١٩٥١م.

وفي إندونيسيا خاض الإندونيسيين ، ومن منطلق إسلامي ، حروبــا شــديدة ضــد الاحتلال الهولندي كان اشهرها واشدها حروب الأمير المسلم " ديبو نيجورو " وحــروب مملكة أتشية الإسلامية تلك الحروب التي اعتبرت حروبا مقدسة من جانب أهـــل أتشــية المسلمين ، ولذلك استمرت فترة طويلة حيث انتهت عام (١٣٢٢هـــ / ١٩٠٤م). ثم واصل حزب ماشومي[١]جهاده منذ عام ١٩٤٥م حتى نالت إندونيسيا اســتقلالها عــام ١٩٤٩م .

(١) تأسس حزب ماشومي عام ١٣٦٥هــ / ١٩٤٥م وذلك حين تجمع مسلمو إندونيسيا في اكبر مؤتمـر إسلامي في مدينة جاكرتا وتبايعوا جميعا على الانضواء تحت تنظيم سياسي واحد سمي باسم " مجلس شورى مسلمي إندونيسيا " واختصر تحت لفة "ماشومي" واستمر حزب ماشومي بعد ذلك يجاهد الشيوعيين الذين أرادوا الاستيلاء على البلاد بعدة ثورات باءت كلها بالفشل ، ولا يزال هذا الحزب إلى الآن يحمل عــبء مواجهة التبشير النصراني الذي يخطط لتحويل إندونيسيا إلى دولة نصرانية خلال ٣٠ عاما ، وذلك منذ ما يزيد عن ١٠ سنوات ، وقد زادت مسئولية هذا الحزب بعد أن رأينا جميا بأعيننا نجاح التبشير في تحويـــل تيمور الغربية إلى دولة نصرانية .

وفي الهند واصل المسلمون جهادهم ضد الاحتـــلال الإنجلـــيزي ، فكـــانت ثـــورة (١٢٧٤هــ / ١٨٥٧م) اشد الثورات ضدهم ، ولكنها فشلت بسبب وجود منـافقون في الصف الإسلامي، وبسبب تواطؤ الهندوس وتقربهم إلى الإنجليز على حساب المســـلمين ، ونتيجة لهذا التواطؤ الهندوسي مع المحتل اضطر المسلمون إلى عقد مؤتمر إسلامي في لاهـــور عام ١٣٥٣هــ ، تقدم فيه مولانا فضل الحق بمشروع قرار "باكستان" الذي يقضي بتقسيم شبه القارة الهندية إلى الهند وباكستان ، وبالفعل قامت دولة باكستان ولكن على بحر مـــن دماء المسلمين حيث ارتكب ضدهم مذابح رهيبة ، فذُبح الآلاف من المسلمين وأحرقـــت مزارعهم وهدمت مساكنهم في المدن الهندية مثل دلهي وبومباي وكلكتا وبيهار ، فـــأضطر الملايين منهم إلى الهروب إلى دولتهم الجديدة "باكستان ".

وفي الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يخوض معاركه هذه مـــن منطلـــق مبـــدأه الإسلامي ، كانت مشاعر الأوربيين وهم يخوضون حربهم ضد المســـلمين انهـــم يقومـــون بواجب مقدس ... وان عملهم هو الامتداد المعاصر للحروب الصليبية ، عبر عن ذلـــك الجنرال "غورو" الذي دخل دمشق عام ١٩٢٠م بعد معركة ميسلون ، وكان أول شـــيء فعله أن قام بزيارة خاطفة لقبر صلاح الدين الأيوبي ، وقال له : "يا صلاح الدين ها نحن قد عدنا" . وهكذا تبدو طبيعة الصراع بين المسلمين والأوربيين انه صراع مبادئ لا ريب .

وإذا كان المسلمون قد استطاعوا رغم خسائرهم البشرية الفادحة أن يحققوا النصـــر على المستعمر ويطردونه من معظم العالم الإسلامي ، ولكن المستعمر في هذه المرحلة كـــان اكثر ذكاء من المسلمين فقد ربى عددا من المسلمين الذين يدينون بالولاء له وجهزهم لحكم العالم الإسلامي ، وبهذه الطريقة سُرقت جميع حركات المسلمين الجهادية وركب ثوراتهـــم الجهادية الإيمانية أُناسٌ علمانيون لا يمتلكون ذرة من الولاء لدينهم الحنيف ، ولقد توفـــر في المسلمين عدة آفات خطيرة ساعدت الاستعمار وأعوانه على تحقيق مآربهم آلا وهي :

١- السذاجة : والتي بسببها سرقت جميع ثمار الجهاد ، فقد كان المسلمون يقومـــون بالجهاد مضحين بالمال والنفس ، ثم يخطف العلمانيون والشيوعيون ثمار النصـــر (فالجهاد الجزائري يضحي بمليون شهيد والحبيب بورقيبة يخطف هـــذا النصـــر

ويخضع الجزائر لاستعمار جديد يتمثل في الحكم بالمبادئ الغربيـــة الاشـــتراكية الملحدة) .

٢- الافتقار إلى كوادر قيادية : وتمثل باكستان النموذج الذي ضـــاع فيـــه الجـــهاد الإسلامي بسبب الافتقار إلى الكوادر القيادية الإسلامية القادرة على إقامة الدولة على أسس إسلامية . فتولى زعامة الدولة في ميادينها المختلفة رجال علمـــانيون انحرفوا بالدولة الباكستانية عن المبدأ الإسلامي(١).

٣- الخوف من التجربة : ويتضح هذا الأمر في مصر حيث تراجعت الحركة الإسلامية عن قيادة ثورة ١٩٥٢م ، تاركة القيادة لمجموعة من الضباط الشبان قليلو الخبرة بحجة أن بناء الحركة لم يكتمل ، وألها لم تمتلك من العناصر القيادية ما يؤهلها لبناء دولة قوية والحفاظ عليها ، وهذا أمر في غاية العجب إذا علمنا أن أهم سمـــة في هذه الجماعة هي ألها تربي أفرادها أول ما تربيهم على القدرة على القيادة .

ومنذ ذلك التاريخ راح حزب الشيطان- ومن خلال خططه الماكرة - يعمـــل علـــى ضرب الإسلام ويحول دون عودته إلى حياة المسلمين من خلال الآتي :

١- القضاء على الحكم الإسلامي : بإلهاء الخلافة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية التي كانت رغم ضعفها ، وانحرافها – في آخر أيامها عن روح الإســلام – إلا أن الأعداء كانوا يخشون أن تتحول هذه الخلافة من خلافة شكلية إلى خلافة حقيقية قمددهم بالخطر . جاءت للغرب فرصته الذهبية – التي مهد لها طوال قرن ونصف – في هدم الخلافة الإسلامية التركية وذلك عندما هزمت تركيا في الحرب العالمية ، فدخلت الجيوش الإنجليزية واليونانية والإيطالية والفرنســية أراضـــي الدولـــة العثمانية وسيطرت على جميع أراضيها بما في ذلك العاصمـــة اســـتانبول . ولمـــا

---

(١) انظر : – الإسلام في التاريخ الحديث لولفرد كانتويل سميث ، ص ٧٥ ، ٧٧ .
- الإسلام دعوة للتحرير : المجلس الإسلامي الأوربي .. الإسلام أساس الحركة الباكستانية لخورشيد احمد ، ط ١ ،
الزهراء الإعلام، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٩٦ .

ابتدأت مفوضات مؤتمر لوزان لعقد صلح بين المتحاربين اشترطت إنجلترا علـــى تركيا ألها لن تنسحب من أراضيها إلا بعد تنفيذ الشروط التالية :

(أ) إلغاء الخلافة الإسلامية ، وطرد الخليفة من تركيا وصادرة أمواله .

(ب) أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

(ت) أن تقطع تركيا صلاقما بالإسلام .

(ث) أن تختار لها دستورا مدنيا بدلا من دستورها المستمد من أحكام الإسلام .

٢- العمل على محو القرآن والقضاء عليه : لأنهم يعتبرونه المصدر الأساســـي لقـــوة المسلمين ، وبقاؤه بين أيديهم حيا يودي إلى عودقم إلى قوقم وحضـــارقم ، وفي ذلك يقول غلادستون : "ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في آمان"، ويقول المبشر وليم جيفـــورد بالكراف : "متى توارى القران ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة بعيدا عن محمد وكتابه " .

٣- تدمير أخلاق المسلمين ، وعقولهم ، وصلتهم بالله ، وإطلاق شـــهواقم : يقـــول صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقـــد ســـنة ١٩٣٥م : "إن مهمة التبشير التي ندبتكم دولة المسيحية للقيام بهـــا في البـــلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية ، فان في هذا هداية لهم وتكريمـا ، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياقما" .

٤- القضاء على وحدة المسلمين : يقول المبشر لورانس براون : "إذا اتحد المســـلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطر ... أمـــا إذا بقـــوا متفرقين فالهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير" ، ويقول : "يجب أن يبقى العـــرب والمسلمون متفرقين ، ليبقوا بلا قوة ولا تأثير" .

٥- تشكيك المسلمين بدينهم : ففي كتاب مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين يقول : "إن المسلمين يدّعونا أن في الإسلام يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر ، فعلينا نحن المبشرين أن نقاوم الإسلام بالأسلحة الفكرية والروحية" .

٦- إبقاء العرب ضعفاء : لان العرب هم مفتاح قوة الأمة الإسلامية ، يقول " مورو بيرجر " في كتابه العالم العربي : "لقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعني قوة الإسلام فليدمروا العرب ليدمروا بتدميرهم الإسلام ".

٧- إنشاء ديكتاتوريات سياسية في العالم الإسلامي : يقول المستشرق و.ك.سميث الأمريكي ، والخبير بشؤون الباكستان : "إذا أعطي المسلمون الحرية في العالم الإسلامي ، وعاشوا في ظل أنظمة ديمقراطية فان الإسلام ينتصر في هذه البلاد ، وبالديكتاتورية وحدها يمكن الحيلولة بين الشعوب الإسلامية ودينها" .

٨- إبعاد المسلمين عن تحصيل القوة الصناعية ومحاولة إبقائهم مستهلكين لسلع الغرب : يقول أحد المسئولين في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢م : "فلنعط هذا العالم ما يشاء ولنبق في نفسه عدم الرغبة في الإنتاج الصناعي والفني ، فإذا عجزنا عن تحقيق هذه الخطة ... فان من الممكن لهذا الدين أن يظهر كأحد القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى" .

٩- إفساد المرأة وإشاعة الانحراف الجنسي(١): لاشك أن المرأة اخطر أداة لهدم المجتمع وقد نجح الغرب في ذلك نجاحا كبيرا ، ومازال يتحكم في الشباب المسلم وفي الفتيات المسلمات ويوجههم كيفما شاء من خلال السينما والتلفاز والمسرح والموضة في الملبس والمأكل والتزين كحلاقة الشعر ... الخ .

كل هذا واكثر يفعله الغرب ، ينفق الملايين ليفسد بناء الفرد المسلم ويشوه داخله لبعده عن فطرته ، ولكنه مهما فعل فان الإسلام هو الفطرة التي سريعا ما يعود إليها المسلم مهما بعد ليروي منها قلبه وفكره ، وصدق الله القائل :{ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون}.

---

(١) انظر جلال العالم : قادة الغرب يقولون ، ص ٤١ – ٥٢ .



الفصل الثاني

[إلى الإسلام من جديد[1]]



لقد أيقن الغرب الصليبي – تسانده اليهودية الخبيثة – من خلال احتكاكــه الطويــل والذي زاد عن الألف سنة قضاها في حروب طويلة مع الخلافة الإسلامية أن الإسلام ديــن قوي قادر على تحويل موات الأمم إلى حياة ، وعلى تحويل أعدائه إلى أنصار أشداء يحملون لواءه ، كما حدث مع الفرس والأتراك والمغول . أدرك الغرب كل ذلك وأدرك في الوقت ذاته أن الحروب ضد المسلمين لا تزيدهم إلا قوة وتماسكا بالإسلام ، أدركوا هذا وأيقنــوا أن التغلب على المسلمين لن يكون إلا بالتغلب على عقيدهم ، ومحوها من نفوسهم ، فــإذا ما تم ذلك لهم كان الانتصار العسكري أمرا ميسورا ، وقد تحقق له ذلك بالفعل ثم راح بعد ذلك يحاول نزع الإيمان من قلوب المسلمين بشن حربا جديدة عليهم وهي الحرب الفكرية.

ولقد استخدمت أوربا في هذه الحرب أداتين هما الاستشراق والتبشير ، كانت مهمــة الاستشراق تنحصر في تشكيك المسلمين في عقيدهم ، ثم يأتي دور التبشير الذي يعمل على إدخال الناس في النصرانية . والى جانب ذلك فقد استخدمت أوربا كل الوسائل المتاحة – وخاصة بعد التقدم العلمي من تلفاز وسينما ومسرح وغيرها من وسائل اللهو – في بــث أفكارهم الشيطانية ، كما راح اليهود ينشرون الأفكار المادية الإلحادية عن طريق وسـائلهم المختلفة من عملاء المفكرين وربائبهم أمثال فولتير ونيتشة وفريد وداروين وماركس وسارتر وغيرهم مما لا يمكن حصرهم .

ولقد كان من نتائج هذه الجهود الجبارة التي بذلها حزب الشيطان لعزل الإنسان المسلم عن فطرته آفات عدة على المستوى الفردي والاجتماعي والسياســي والثقــافي . فعلــى المستوى الفردي انفصل قطاع عريض من جمهور المسلمين عن فطرهم وعملت الوســائل الشيطانية السالفة الذكر عملها في تهميش قضية العقيدة وجعلها في مؤخرة القضايا التي لهـا وجود في نفس المسلم ، فاختلط في نفوسهم الصالح بالطالح ، وانعكس ذلك بالتالي علــى صورهم الظاهرية التي بدت وكأنها قد فقدت علاقتها بالإسلام . وبالتالي فقد المجتمع علاقته الظاهرية بالإسلام ، لأن صورة المجتمع الظاهرية – كما قلنا من قبل – ما هي إلا مجمــوع تراكمات الصور الظاهرية للأفراد .

وعلى المستوى السياسي انفصل السلطان عن القران ، فجاء إلى السلطة حكام يؤمنون بالقانون الغربي وقدرته على التقدم والرخاء ولا يرون في القران اكثر من ديانـــة لم تعــد

تناسب الزمن الذي نعيش فيه ، وأكثرهم جاء إلى السلطة بقوة السلاح ، ولا يمنعهم ذلك من الزعم بان الشعب قد اختارهم وانهم ينتهجون في حكمهم النظام الديمقراطي .

وعلى المستوى الثقافي نبت جيل من المسلمين في تربة رديئة ، جيل لا يتعدد كونه أجساما إسلامية تحمل أدمغة أو رؤوسا غربية لينفذ المخططات الغربية فكان أن استطاع اللورد كرومر أن ينشئ في مصر عام (١٨٨٣ - ١٩٠٧م) تلك القاعدة التغريبية التي توالدت وأنشأت هذه الأجيال المتعددة من العلمانية وراحت منذ ذلك الوقت تحمل لواء الاحتقار للإسلام وللوطنية ، وتدعوا إلى التبعية والتغريب وتحمل لواء الدعوة إلى أن الإسلام دين عبادي متخلف صحراوي ، منكرة ربانية الإسلام ، وتكامله الجامع بين الدين والسياسة ، وكان اخطر ما تدعوا إليه حركة التغريب :

(أ) القضاء على الوحدة الإسلامية وإحلال مفهوم الإقليميات والقوميات الضيقة القائمة على الدماء والعنصر .

(ب) القضاء على الشريعة الإسلامية والنظام الاقتصادي الإسلامي وإحلال قانون نابليون والنظام الاقتصادي الربوي.

(ت) القضاء على التربية الإسلامية وإحلال نظام التعليم الغربي العلماني المفرغ من العقيدة والأخلاق[1].

وفي سبيل ذلك بذل غلمان الغرب العلماني جهودا كبيرة أثرت في عالمنا الإسلامي والعربي والمصري بصفة خاصة فكانت المؤامرة على اللغة العربية الفصحى لغة القران الكريم تحت قيادة الدكتور لويس عوض الذي دعا إلى العامية بهدف ترجمة القران إليها ، وزعم أن اللغة العربية ما هي إلا فرع من فروع اللغة السامية كذبا وزورا بهدف الإعلاء من شأن اليهود ولغتهم الميتة .

وكانت المؤامرة على الشريعة الإسلامية على يد علي عبد الرازق وخالد محمد خالد واحمد بهاء الدين ومحمد احمد خلف الله ومحمد سعيد عشماوي وغيرهم ، فإذا ما وقفنا مع

---

(١) أنور الجندي : إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة ، د . ت ، ص ٦ .

على عبد الرازق في كتابه " الإسلام وأصول الحكم " نجد انه - كم جاء في تقرير هيئـــة كبار العلماء - ينطوي على الآتي :

أولا :جعل المؤلف الشريعة الإسلامية روحية محضة .. لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا مع أن الدين الإسلامي على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عقائد وعبادات ومعاملات لإصلاح أمور الدنيا والآخرة ، وان كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كلاهما مشتمل على أحكام كثيرة في أمور الدنيا ، وأحكام كثيرة في أمور الآخرة .

ثانيا : زعم أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم كان في سبيل الملك .. لا في سبيل الدين ، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين .

ثالثا : زعم أن نظام الحكم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان موضع غموض وإبهام ، أو اضطراب أو نقص ، وموجبا للحيرة .

رابعا : زعم أن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم كانت بلاغا للشريعة .. مجردة من الحكـم والتنفيذ .

خامسا : أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام ، وعلى انه لابد لسلامة الأمة من يقوم بأمرها في الدين والدنيا .

سادسا : أنكر أن القضاء وظيفة شرعية .. وقال : إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفـــة شرعية جعلوه متفرعا من الخلافة .

سابعا : زعم أن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده (رضي الله تعـــالى عنـــهم) كانت لا دينية .. وهذه جرأة لا دينية([1]).

وكان دعاة الشعوبية من أمثال إسماعيل القباني ومحمد احمد خلف الله وغيرهم ممن تركز همهم في فصل الدين عن التربية ، وكان دعاة التغريب ممن كان همهم إعلاء النزعة القوميـة أو الوطنية الضيقة القائمة على الجنس والدم .وكان غيرهم الكثير ممن برزوا في المســـــرح والسينما وكان همهم إعلاء شان الجنس في أفلامهم ومسرحياتهم . وكان غيرهم الكثـــير

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦١ - ٦٢ .

والكثير ممن يضيق المقام بحصرهم . وتُعد هذه من غلمان الغرب اعظم مكسب للغرب لأنها لعبت دورا جبارا في تغريب الأمة الإسلامية عن دينها .

وبعد أن تأكد المستعمر الغربي من انه نجح في تشويه عقيدة المسلم وإبعاده عن فطرته ، وبعد أن ضمن ولاء القوى المهيمنة على المجتمعات المسلمة في نواحيها المختلفة من سياسية واقتصادية وفكرية وثقافية وإعلامية وتعليمية وعسكرية ، بعد أن ضمن استمرار مخططه الشيطاني ترك العالم الإسلامي بعد أن قسمه إلى وحدات سياسية أو دويلات هزيلة لا يمكنها أن تدافع عن ارض أو تحمي عرض .

ولأن الخيرية لا تنقطع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلقد أكرمها الله بمجموعة من المؤسسات والأفراد والجماعات التي دعت إلى العودة إلى المبدأ الإسلامي ، وبذلت في سبيل ذلك جهودا جبارة في كافة ميادين الحياة أثمرت – ومازالت – ثورة عارمة على العلمانيات القائمة في العالم الإسلامي ، وهي الآن تدفع المسلمين بقوة إلى العودة إلى المبدأ الإسلامي والإسهام في بناء الخلافة الإسلامية العالمية المنتظرة .

وكان الأزهر من ابرز المؤسسات الإسلامية التي لعبت دورا كبيرا في الحفاظ على الهوية الإسلامية ضد انحرافات التيارات المادية والإلحادية مثل الشيوعية والوجودية وغيرهما. ليس في مصر وحدها ولكن في العالمين العربي والإسلامي بل وفي العالم كله . فالأزهر جامعة إسلامية عامة قدمت للإسلام والمسلمين خدمات جليلة ، ولكن بدأت يد الغرب الصليبي تمتد إليه لتنفذ به مخططها القديم في القضاء عليه وتفريغه من مضمونه ، وللأسف فإن هذه الخطة تنفذ بدقة على يد أناس من أبنائه ومن علمائه المحسوبين عليه تحت شعار "التطوير" ذلك الشعار البراق الذي اصبح مقترنا بالريبة والخوف والشك ، فأحذروا التطوير !

وكان من ابرز الحركات الإسلامية التي لعبت دورا كبيرا هادئا في إحياء الهوية الإسلامية في العالمين العربي و الإسلامي:

١–جماعة " الإخوان المسلمين " : أسسها الشيخ الشهيد حسن ألبنا (اغتيل سنة ١٩٤٩م) في سنة ١٩٢٤، والذي أهاله ما كان فيه المسلمون من مذلة وخذي ، فلما نظر في أسباب ذلك وجد أن السبب الرئيسي في هذه الحالة هو ضياع الخلافة الإسلامية التي

تلتزم بمنهج السماء (القران والسنة) ووجد أن كافة الأمراض التي تعانيها الأمة الإسلامية إن هي إلا أعراضا لهذا المرض الرئيسي . ثم وجد أن عودة الخلافة الإسلامية لا تكـون إلا بالانطلاق من الإنسان الفرد فعمد الي هذا الإنسان – ملتمسا في هذا خطوات قدوته محمد صلى الله عليه وسلم – يزيل ما تراكم على فطرته من أوساخ المادية والشـرك يريـد أن يبعث فيه الحياة حياة الروح والجوهر لا حياة الشكل والمظهر ، وفي ذلك يقول : " وينظـر الناس في الدعوات إلى مظاهرها العملية وألوانها الشكلية ، ويـهملون كثـيرا النظـر إلى الدوافع النفسية والإلهات الروحية التي هي في الحقيقة مداد الدعوات وغذاؤهـا وعليـها يتوقف انتصارها ونماؤها"(١). ثم يوضح هذه الدوافع النفسية أو يحددها فيقول : " نحـن نريد نفوسا سخية قوية فتية ، وقلوبا جديدة خفاقة ، ومشاعر غيورة ملتهبـة متأججـة ، وأروحا طموحة منطلقة متوثبة تتخيل مثلا عليا ، وأهدافا سامية لتسموا نحوها وتنطلق إليها ثم تصل إليها "(٢).

هذه هي اللبنة الأولى التي أراد الشيخ حسن ألبنا أن يقيم عليها بنـاءً شـامخا يضـم الطوابق الآتية "البيت المسلم ، المجتمع المسلم ، الحكومة الإسلامية ، توحيد العالم الإسلامي ، تحرير ارض المسلمين ، إعادة الخلافة الإسلامية أو الدولة الإسلامية العالمية . وكل ذلـك يتم من خلال منهج تربوي تدريجي ، وفي ذلك يقول :" وأما التدرج والاعتماد علي التربية ، ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين ، فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لابـد لها من مراحل ثلاثة :" مرحلة الدعاية ، والتعريف ، والتبشـير بـالفكرة ، وإيصالهـا إلي الجماهير من طبقات الشعب . ثم مرحلة التكوين ، وتخير الأنصار ، وإعداد الجنود ، وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين . ثم بعد ذلك مرحلة التنفيذ ، والعمل والإنتاج"(٣) .

ولقد نجحت هذه الخطة نجاحا كبيرا في نشر الوعي الإسلامي بين فئات الشعب علـى اختلاف مستوياتهم التعليمية والثقافية ، وساهمت بالنصيب الأوفر في النهضة الإسـلامية على المستويين العربي والإسلامي ، وتصدرت كتابات مفكريها كل ما كتب في تشـكيل

---

(١) الشيخ حسن ألبنا : مجموعة الرسائل ، رسالة دعوتنا ، ص ١١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) رسالة بين الأمس واليوم ، ص١٣٥.

عقلية الفرد المسلم ، بل وتعتبر هذه الكتابات هي الزاد الذي استمدت منـــه الحركـــات والجماعات الإسلامي الأخرى عوامل قيامها وقوتها ، مثل حـــزب ماشـــومي والجماعـــة الإسلامية في باكستان وغيرهما.

٢-الحركة الإسلامية في تركيا : لم يستسلم المسلمون في تركيا بعـــد ســـقوط الخلافـــة الإسلامية على يد اليهودي مصطفى كمال اتاتورك عام ١٩٢٤م ، بل ظهرت حركـــات شعبية إسلامية تعبر عن أصالة الشعب التركي المسلم وتمسكه القوي بالإسلام ، فظـــهرت حركة البور بقيادة الشيخ سعيد النورسي الذي تعر ض للكثير من الفـــتن والابتـــلاءات والإعتقلات والسجون في سبيل توضيح فكرة الإسلام الشاملة الخالدة في رسائله المعنونـــة باسم " سلسلة رسائل البور" ، وظل الرجل هذا حتى توفـــاه الله عـــام (١٣٧٩هـــ / ١٩٥٨م) . ثم واصل حزب السلامة بقيادة نجم الدين أربكان دفاعه عن الإسلام فـــآمن بشمول الإسلام وعالميته وقدرته على الصلاح مسار البشرية الضالة ، وبفضـــل جـــهوده وحزبه استطا ع أربكان أن يكسب قطاعا كبيرا من الشعب التركي المتعطش لدينـــه ، وان يفرض نفسه على الواقع السياسي في تركيا .

٣-الجماعة الإسلامية في باكستان : وفي باكستان قامت "الجماعة الإسلامية " بقيـــادة أبي الأعلى المودودي بجهاد كبير لتوضيح الفكرة الإسلامية الحقيقية فآمن بشمولية الإســـلام ، وسعى وحزبه بكل الوسائل إلى إقامة دولة إسلامية تكون نواة لدولة إســـلامية عالميـــة ، واعتمد المنهج التروي – مثل الأخوان المسلمين – في تربية شباب الجماعة . وكان لابد لهذه الجماعة وهي تريد تحقيق أهدافها السامية هذه أن تصطدم بأصحاب الأهـــواء والنزعـــات الدينية العرقية الضيقة وعلى رأسهم العدو اللدود للجماعة أعني القديانية والتي كاد النزاع معها أن يكلف أمير الجماعة حياته ، وذلك عندما كتب الأستاذ أبو الأعلى المودودي كتابه " المسألة القديانية " فحوكم على أثره وحكم عليه بالإعدام ثم خفف إلى المؤبد . ومـــازالت الجماعة الإسلامية تجاهد في سبيل تحقيق أهدافها التي تكونت من أجلها .

٤-حزب ماشومي في إندونيسيا : لقد حمل حزب ماشومي – كما سبق وذكرنا – رايـــة الجهاد ، فجاهد في الجبهات الآتية:

الجبهة الأولى " جبهة الاستعمار " : المتمثلة أولا في الاحتلال الهولندي ، ثم الاحتلال الياباني ، وقد تولى حزب ماشومي المفاوضات معهم حتى نالت إندونيسيا استقلالها عام ١٩٤٩م .

الجبهة الثانية "جبهة الشيوعيين : والتي كانت تهدف إلى إخضاع إندونيسيا للنفوذ الشيوعي والأيدلوجية الماركسية ، فقاومها حزب ماشومي حتى بات ثورتها بالفشل .

الجبهة الثالثة " تصحيح المسار السياسي الإندونيسي " : حيث دعى محمد ناصر رئيس الحزب إندونيسيا إلى الحكم بالإسلام وتجنب الارتباطات الأجنبية .

الجبهة الرابعة "التبشير النصراني " : وجد الحزب نفسه في مأزق جديد خطير ، ربما في خطره عن كل الأخطار السابقة ، حيث كشفت له أبعاد خطة صليبية ترمي – بالتواطؤ مع النظام الحاكم – إلى تحويل إندونيسيا إلى دولة نصرانية خلال ثلاثين عاما . ولقد رأينا كيف نجحت هذه الخطة إلى الآن في تحويل تيمور الغربية إلى دولة نصرانية تم اقتطعها من الوطن ألام إندونيسيا مما وضع الحزب الآن في مأزق لا يحسد عليه .

ولقد نجحت هذه المؤسسات والحركة والجماعات الإسلامية ، وغيرها من الحركات والجماعات التي يضيق المقام عن ذكرها، فضلا عن المجهودات الدعوية الفردية للكثير من العلماء نجاحا عظيما في إحياء الروح الإسلامية المنهزمة في أنحاء العالم الإسلامي ، وذلك على الرغم مما بذله حزب الشيطان من أموال على العملاء من السياسيين والصحفيين والقائمين على أمر التربية والتعليم ، وبرغم جهود المستشرقين والمبشرين ، برغم ذلك كله وغيره فقد فشل حزب الشيطان من يهود ونصارى وشيوعيين ومنافقين عملاء في الصد عن سبيل الله وصدق الله حيث يقول :{ والذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون }[الأنفال / ٣٦] . وفوق ذلك كله فقد قدم حزب الشيطان – بتحريضه حكام البلاد الإسلامية ضد الإسلام – للحركات الإسلامية أهم عناصر بقائها ونموها ، وهو القهر والتعذيب والاعتقال والحصار ، دون أن يدركوا أن ذلك الابتلاء من طبيعة الدعوات الجادة الحاقة ، فكل حركة بلا تعذيب أو اعتقال أو قهر فمقطوعة لا محالة ، وكل جماعة بلا سجن وإرهاب فمتفرقة بلا شك ، وكل فكرة بلا اضطهاد فزائلة حتما .

الفصل الثالث

[مرحلة ا لخلافة الجديدة]

أولا : الخلافة الإسلامية ضرورة دينية وإنسانية :

أما كون الخلافة الإسلامية ضرورة دينية فللآتي :

الأول : أن قيام الخلافة الإسلامية واستمرارها واجب بل فريضة إسلامية وغيابها يعتبر هو المنكر الأكبر ، ولذلك فكل المسلمون - كما يقول علماؤنا - آثمون حتى تعود مرة أخرى إلي الوجود .

والثاني : لأن حال المسلمين في حاجة ماسة إليها لحماية دمائهم وأموالهم وأعراضهم وأراضيهم ، يقول جيم هوجلاند في واشنطن بوست :" لأسباب دبلوماسية أحجم كلينتون عن الإعراب صراحة عن رغبة الأمريكيين في الانتقام لتفجير السفارتين الأمريكيين - في كينيا وتنزانيا -كما يؤكد روبرت أوكلي خبير الإرهاب أن قصف الإرهابيين يرفع الروح المعنوية في الداخل وهي روح متشوقة للانتقام " . الانتقام والامتناع عن النظر إلي الإرهاب الخارجي من خلال عدسة القانون هما ما أجمعت علية كتابات وتصريحات لا حصر لها في الإعلام الأمريكي بعد قصف السودان وأفغانستان ، وعلي النقيض أجمع العرب والمسلمون علي إدانة تفجير السفارتين علي أساس أنه مهما يكن حجم الظلم الأمريكي لنا ، فهو لا يبرر قتل بريء واحد أفريقي أو أمريكي . أما هم فقد طغي تعطشهم الهمجي للتأثر علي أي اعتبارات أخري تماما ، كما أدت نزعة الانتقام من فتوحات المسلمين إلي التواطؤ علي أبادتهم في البلقان بعد استبعاد كل اعتبار قانوني وإنساني(١).

والثالث : لأن الحروب الصليبية مازالت مستمرة وفي هذا قال أيوجين روستو رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية ، ومستشار الرئيس جونسون لشئون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧ :" يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب ، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية . لقد كان الصراع محتدما ما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطي وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصورة مختلفة ... إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي ، فلسفته وعقيدته ونظامه وذلك يجعلها تقف للعالم الشرقي

---

(١) أحمد بهجت : مقالة بعنوان : " عولمة الفوضى . الأهرام ١٩٩٨/٩/١٢ .

الإسلامي ، بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي . ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف في الصف المعادي للإسلام وإلي جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية ، لأنها إن فعلت عكس ذلك فأنها تتنكر للغتها وفلسفتها ومؤسستها"(1). ولقد عبر الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن عن ذلك احسن تعبير حينما قال صراحة بحرب صليبية ضد المسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

وأما كون الخلافة ضرورة إنسانية فلان العالم الذي تحياه الإنسانية الآن هو عالم تحكمه أمريكا ، " فلا غرابة إذن في أن ينتشر الإرهاب والظلم والإبادة ... وتتردد دعوة إباحة الإجهاض والشذوذ والتفسخ ، وتقنين تجارة المخدرات ، وأيضا تجارة الدعارة كما دعت أخيرا منظمة العمل الدولية لتمويل شبكات الضرائب ، ودعم الميزانيات الحكومية من عوائدها . إنها بحق " عولمة الفوضى " . وهي تعكس مدي حاجة الإنسانية إلى عالم تقوده خير أمة أخرجت للناس . ولكن يبقى أن يقتنع مواطنو هذه الأمة بحقيقة أنها الوحيدة المؤهلة للقيادة ، ويرتقوا بأنفسهم لتحمل تبعات هذه المسئولية"(2).

ويقول : جان ماري بيلت :" وفي عصرنا نحن يتخذ التحدي أبعادا هائلة بالنظر إلى أن كل سيناريوهات المستقبل محتملة ، من المجابهة بين المجتمعات الصناعية إلى الاشتعال النووي ، ومن تصاعد نظم الحكم الاستبدادي إلى الانحلال في ظل الفوضى الناشئة عن غياب الحكم . بل إنه ليس من المستحيل أن يتوصل الإنسان إلى إقامة مجتمع عالمي يتسم بالتوازن والتعايش والطابع الإنساني "(3). ولا ريب أن هذا المجتمع العالمي الذي ينشده العالم هو المجتمع الإسلامي الذي يبرر " ولفرد كانتويل سميث " ضرورة قيامه بقوله : " إن النتائج العقلية و الاجتماعية المختلفة أصبحت دولية في هذه الأيام ، وأنا لنرى أن دينا إسلاميا صحيحا مزدهرا في هذه الأيام ليعتبر أمرا هاما ، لا بالنسبة للمسلمين وحدهم ، بل لعالم

---

(١) جلال العالم : قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله ٢٢-٢٣.

(٢) مقالة عولمة الفوضى السالفة الذكر .

(٣) جان ماري بيلت : عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت سنة ١٩٩٤ ، ص ١٤٥ .

اليوم كله ، ولقد غفل عن هذه الحقيقة بعض الساسة والزعماء الغربيين ، واعتنقوا الفكرة القائلة بأن الإنسان يتأثر بلقمة العيش فقط "([1]).

وهكذا يتضح أنه لا يمكن أن يتحقق هذا الطابع الإنساني إلا في ظل المجتمع الإسلامي ، وذلك أن المنهج الإسلامي وحده هو المنهج الذي يمكن أن يوجد فردا متوازنا في علاقته بذاته ، وفي علاقته بالآخرين ، وقبل ذلك في علاقته بربه سبحانه . والمجتمع الإسلامي أيضا هو وحده الذي تحقق وسيتحقق في ظله التعايش بمعناه الإنساني ، وذلك أنه يضمن للآخر - يهودي أو نصراني ومجوسي - حياة حرة كريمة بطريقة لم يعرفها مجتمع من المجتمعات البشرية على مر التاريخ وذلك لأن الدولة الإسلامية دولة عدل ورحمة ، وهذا العدل وتلك الرحمة لا تقتصران على المسلمين فقط بل تمتد إلى كل الطوائف الدينية الأخرى وكل هذا نابع من عقيدة وإيمان .

ثانيا : معوقات في وجه الخلافة الإسلامية المنتظرة :

تنحصر المعوقات التي تقف في وجه عودة الخلافة وتعطل ظهورها في ثلاثة عوائق وهي :

عائق خارجي : يتمثل في موقف أوربا وأمريكا المعادي للإسلام والمسلمين

عائق داخلي : يتمثل في موقف الأنظمة العربية والإسلامية الرافضة للحكم بالإسلام .

عائق نفسي : يتمثل في عدم الثقة بالنفس ، وسيطرة الروح الانهزامية على القطاع العريض من الأمة العربية والإسلامية .

أما العائق الأول : والذي يتمثل في موقف أوربا وأمريكا المعادي للإسلام ، إذ يرون أن الإسلام مازال هو الخطر الحقيقي على أوربا وأمريكا وفي ذلك يقول لورانس براون " إن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام ، وفي قدرته على التوسع والإخضاع ،وفي حيويته المدهشة "ويقول غلادستون :" مادام هذا القرآن موجود في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان " .. وأقوال الغربيين في ذلك لا تحصى([2]). ولذلك عملت أوربا - ومازالت تعمل - على ضرب الإسلام والمسلمين في

---

(١) جان ماري بيلت : الإسلام في التاريخ الحديث ، ص ١٠٤ .

(٢) انظر : محمد جلال العالم : قادة الغرب يقولون ، ص ٣٣ - ٤٠ .

عقيدتهم ووحدتهم وعبادتهم وأخلاقهم واقتصادهم حتى لا تقوم للإسلام قائمة ولا يعود للمسلمين قوتهم التي كانت لهم .

العائق الثاني : الذي يتمثل في رفض الأنظمة العربية والإسلامية الحكم بالإسلام ، وذلك لأن الغرب وأمريكا استطاعوا أن يقنعوا هذه الأنظمة العربية والإسلامية بأن الحكم بالإسلام يعني نهاية حتمية لأنظمتهم الحاكمة وأن التيار الإسلامي - الذي هو العدو الرئيس للحكومات العربية والإسلامية - ليس له هدف إلا القفز على السلطة وانتزاعها من أيديهم وهذا أمر كذب وذلك لأن أكبر الحركات الإسلامية - الإخوان - في العالم الإسلامي تؤمن بالتحول التدريجي - على ما بينا - في مقابل الثورة والقفز ، وتؤمن بالمشاركة في مقابل المنازعة في الحكم . ولا يمكننا إزاء هذا العائق - الذي نأسف عليه كل الأسف - إلا أن نقول لحكام العرب والمسلمين : أن الخلافة الإسلامية قادمة وقائمة حتما فلا تقفوا في وجهها ، لأن سنه الله لا تتخلف ، فاجعلوا أنفسكم أدوات بناء في يد الله ، لا أدوات هدم في يد الشيطان وأوربا وأمريكا .

أما العائق الثالث أو العائق النفسي والذي يتمثل في أن الكثير من المسلمين يسألون كيف تقوم هذه الخلافة في ظل هيمنة قوى الكفر علي العالم ؟ هل تسمح هذه القوي- في ظل إمكاناتها العسكرية الرهيبة - لحزب الخير أن يحكم العالم من جديد ؟ والإجابة أن الإسلام لا يحكم في ظل ضعف قوى الشر ، فلقد ظهرت دولة الإسلام في المدينة في ظل هيمنة الفرس والروم على العالم ، ليس هذا فحسب بل إن المسلمين استطاعوا أن يزلوا هاتين القوتين ، وفي عصرنا المعاصر استطاع القليل من المسلمين أن يقهروا قوى الشر في أكثر من موقع ، ومن أمثلة ذلك الأفغان الذين استطاعوا قهر أعظم دولة عسكرية في العالم وهي دولة الاتحاد السوفيتي ، كما استطاع مسلمو البوسنة رغم قلة عددهم وعدتهم ورغم الحصار الأوروبي أن يحافظوا على وجودهم وأن يحققوا ذاتهم في ظل التواطؤ العالمي وحظره لتصدير الأسلحة إليهم . وهناك نموذج آخر وهو نموذج الشيشان الذين حققوا انتصارا رائعا على الروس وتمكنوا من طردهم من بلادهم رغم قلة عددهم وعدتهم . وكل هذه نماذج تبين أن الإسلام لا ينتصر وينهض في ظل ضعف قوى الشر ، بل إنه يستطيع أن ينهض في أي مكان وفي أي زمان وفي أي ظروف إذا حمله أبناؤه بصدق واخلصوا له .

وليس معني ذلك أننا ننكر دور قوى الشر كعائق قوي في طريق إقامة الدولة الإسلامية ، ولكنه ومع ذلك يعتبر عائقا ظاهريا يستطيع المسلمون بسهولة أن يتغلبوا عليه متى تغلبوا على عوائقهم النفسية . وخلاصة القول إن قوة المسلمين تكمن في قدرهم النفسية وقوهم الروحية ، فمتى تغلب المسلمون علي أنفسهم وسموا بأرواحهم وعادوا إلى فطرهم وعرفوا رهم قهروا عدوهم .

أما عن مسألة السلاح النووي والتي تخيف الكثير من ضعاف الإيمان فإنها لا تخيف للأسباب الآتية :

أولا : إن العالم متداخل بطريقة تجعل من العسير علي حزب القضاء على الآخر بمعنى أن حزب الشيطان بما يمتلك من سلاح نووي لا يمكنه القضاء على حزب الله بهذه الأسلحة ، لأن أي محاولة من هذا القبيل قد تنعكس عليه ، والكفار هم احرص الناس على حيلة ، ثم إن الكثير من المواد الخام التي يعيش عليها حزب الشيطان توجد في ارض المسلمين ، كما أن موقع المسلمين الجغرافي في وسط الأرض ينقل أي ضرر يلحق بهم إلى باقية الكرة الأرضية . هذا إلي جانب أن المسلمين يتواجدون بكثرة في بلاد الكفر مما قد يتح لهم فرص مستقبلية للاستحواذ على هذه الأسلحة ، كما حدث بعد الهيار الاتحاد السوفيتي ، حيث امتلكت دول إسلامية مستقلة مثل هذا السلاح .

ثانيا : إن السلاح النووي يشكل عبئا ثقيلا على أصحابه : لا من حيث التكلفة فقط ولكن أيضا من حيث بات واضحا للجميع أن هذا السلاح يدمر أصحابه قبل أن يدمر الآخرين ، ولذلك نجد أن أصوات المعارضين لهذا السلاح الفتاك ترتفع ويزداد عددهم في أوربا يوما بعد يوم : يقول جان ماري بيلت :" تطلق التجديدات التكنولوجية الكبرى أحيانا ، عندما تصبح تطبيقاقا علي وشك التحقيق ، أزمات نبذ حقيقة ، وتكشف قوة الاحتجاج ضد الطاقة النووية في جميع البلدان المتقدمة ، على نحو بالغ الوضوح عن آلية رفض عامة .. وقد أسفرت استطلاعات الرأي عن أن نسباً مرتفعة من السكان .. ترفض اختبار هذه العينة الجديدة . صحيح أن استغلال الطاقة النووية على نطاق واسع يطرح مشكلة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المجتمعات الصناعية : تلك هي أن استحالة " إطفاء " الإشعاعية تفضي إلى نشوء وتراكم نفايات يستمر خطرها إلى الأبد . وللمرة الأولي ينفذ الإنسان عمليات ليس

بوسعه إيقافها : فنحن نطفئ نارا أو نغلق مصنعا أو نوقف آلة أو ندمر النفايات السامة ، ولكننا لا نستطيع تحييد الإشعاعية ، وكل ما نستطيعه هو حصر نطاقها ومنع انتشارها . وذلك رهان رهيب نورثه للأجيال المقبلة "([1]) . وليس معني هذا أننا ندعو المسلمين إلى ترك صناعة هذا السلاح الخطير ، بل إن صناعته – كما يقول الفقهاء – فرض عين ، والتي بسببها يعيش كل المسلمون في أثم حتى يقوم بها بعض علماء المسلمين ، ولكن ينبغي ألا تتسابق الدول العربية والإسلامية في امتلاك هذه الصناعة بل يكفي أن تمتلكها دولة واحدة أو دولتين وذلك لردع العدو وتخويفه لا لاستخدامه وذلك لأن الإسلام لا يجيز استخدام مثل هذه الأسلحة الغبية التي لا تفرق بين محارب ، وبين رجل وأمرأة ، وبين شيخ وطفل .. أما الإسلام فدين الرحمة جاء ليخرج الناس كل الناس من الظلمات إلى النور لا ليقتلهم ، ولذلك كانت هذه الأسلحة مذمومة إلا في حق من اعتدي علينا([2]).

وهذه المعوقات التي أشرنا إليها لن تحول ابدأ دون قيام الخلافة الإسلامية ولكنها قد تعطل وتأخر قيام هذه الخلافة .

ثالثا : الخلافة الإسلامية واليهود والنصارى :

إن عودة المسلمين إلى السيادة وعودة الخلافة الإسلامية إلى الهيمنة من جديد لن يرض حزب الشيطان وعلى رأسه اليهود والنصارى ، فتعود الحرب العسكرية إلى الظهور من جديد وتتربع على قمة الصراع . فإذا كانت الحرب الفكرية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية تقبع على قمة الصراع بين المسلمين والكفار في الفترة السابقة ، فإن الحرب العسكرية ستعود لتأخذ مكان الصدارة في هذه الفترة حيث يخوض اتباع الحق حروبا قاسية من أجل تحرير الإنسان .

وبطبيعة الحال فإن المسلمين أول ما يقاتلون إنما يقاتلون يهود الذين يحتلون بيت المقدس فيقاتلونهم ويطردونهم من فلسطين . روى ابن عمر رض الله عنهما قال : سمعت رسول الله

---

(١) جان مارى بيلت : عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ، ص ١٣١ .

(٢) من ذلك مثلا ما فعله رسول الله صلي الله عليه وسلم من حرق وقطع نخل بنى النضير – رغم نهيه المسلمين عن ذلك – حين نقضوا العهد الذي كان ينهم وبينه صلي الله عليه وسلم [انظر تفسير ابن كثير ، مجلد ٤ ص ٣٣٠ -٣٣٣] .

صلي الله عليه وسلم يقول :" تقاتلكم اليهود ، فتسلطون عليهم ، ثم يقول الحجر والشجر : يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله "([1]). وروى أيضا أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :" لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعالى فاقتله إلا الغرقد فانه من شجر اليهود "([2]).

يقول د. يوسف القرضاوي في التعليق علي هذين الحديثين :" فهل ينطق الحجر والشجر بلسان المقال ، آية من آيات الله وما ذلك على الله بعزيز ، أو ينطق بلسان الحال ؟ بمعني أن يدل كل شيء على اليهود ، ويكشف عنهم . وأيا كان المراد فالمعنى أن كل شيء سيكون في صالح المسلمين وضد أعداءهم اليهود ، وان النصر آت لا ريب فيه ، وأن أسطورة القوة التي لا تقهر التي يشيعها اليهود لن تستمر وأن الذين اغتصبوا فلسطين بقوة السلاح ، وسلاح القوة ، سيخذلهم الله ، الذي يملي للظالمين ، ثم يأخذهم أخذا أليما([3]). وبهزيمة اليهود وطردهم من فلسطين يظل بيت المقدس في يد المسلمين إلى قيام الساعة ، وإن كان اليهود سيحاولون إعادة اغتصابه مرة أخري تحت قيادة المسيح الدجال ،كما سيأتي بيانه إن شاء الله . كما يتجه المسلمون إلي أوربا فيقاتلونهم ويفتحون البلاد التي كان المسلمون قد فتحوها من قبل مثل جنوب أوربا والأندلس .

وفي هذه الفترة يعم السلام أرجاء العالم ويعرف الناس طعم العدل ، ويدخلوا في دين الله أفواجا ، ولا يزالون يعيشون في أمن وآمان إلى ما شاء الله من السنين والأيام حتى يتسوب الهوى إلى النفوس ويسيطر عليها ، ويميل الناس إلي الدنيا مرة ثانية فتضطرب أحوال الدولة الإسلامية مرة أخرى ويعم البلاء .

---

(١) البخاري (كتاب الجهاد ، رقم : ٢٧٠٨ – كتاب المناقب ، رقم : ٣٥٩٣) . مسلم (كتاب الفتن واشراط الساعة ، رقم : ٥٢٠٠ ، ٥٢٠١) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٥٧٥٩ ، ٥٨٧٢ ، ٥٩١٠) .

(٢) مسلم : (باب الفتن – باب ١٨ ، رقم ٨٢ – ٢٩٢٢) .

(٣) د .يوسف القرضاوي : " المبشرات بانتصار الإسلام " مجموعة مقالات بجريدة الشعب ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٩٦/٢/٦م.

الباب السادس

[عصر ما بعد الخلافة الجديدة]

الفصل الأول

[عصر الفتن الكبرى]

الفتن نوع من أنواع الابتلاء الذي هو سنة من سنن التاريخ التي تصيب الناس والدعوات ، غير أن هذه الفتن في العصور السابقة كانت سرعان ما ترتفع ، أما الفتن في هذا العصر فهي فتن متلاحقة بطريقة لم يسبق لها مثيل حتى أن الناس كلما ظنوا أنها انكشفت عادت بأقوى مما كانت عليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً على الله أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم وينذرهم مما يعلمه شراً لهم ألا وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها وأن آخرهم يصيبهم بلاء وفتن يدفق بعضها بعضاً ، تجئ الفتن فيقول المؤمن هذه مُهلكتي ثم تنكشف ثم تجئ فيقول هذه هذه ثم تجيء فيقول هذه هذه ثم تنكشف فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع وقال مرة ما استطاع " ([1]).

وهذا الحديث الشريف يوضح أمرين يصيبا الناس في تلك الفترة : الأول : الفتن . الثاني : البلاء .

أما الفتن : فقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم – في أكثر من موضع – أن : " الفتن منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئا ، ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار " ([2]). وذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعض هذه الفتن ، فذكر فتنة وقع اللسان فيها اشد من وقع السيف ، فقال : " إنها ستكون فتنة تستنظف العرب قتلاها في النار ، اللسان فيها اشد من السيف " ([3]).

---

(١) ابن ماجه (رقم : ٣٩٤٦) ، مسلم (رقم : ٣٤٣١ ، ٥١٤٦) ، النسائي (٤١٢٠ ، ٣٤٣١) ، احمد (٦٥٠٣) ، كنز العمال للمتقى الهندي ١٩١ :٢، السنن الكبرى للبيهقى١٦٩ :٨، الدر المنثور للسيوطي٥٦ :٦.

(٢) صحيح مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة _ باب إخبار النبي فيما يكون إلى قيام الساعة – رقم : ٥١٤٦) ، مسند احمد (باقي مسند الأنصار – رقم ٢٢٢٠٣) ، ومسلم بشرح النووي ، دار الريان للتراث سنة ١٩٨٧م ، مجلد ٩ ، جـ١٨ ، ص ١٥ .

(٣) أبو داود (كتاب الفتن والملاحم ، باب كف اللسان ، رقم : ٣٦٢١) ، الترمذي (كتاب الفتن ، رقم : ٢١٠٤) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٣٩٥٧) .

وذكر فتنة ذهب الفرات فقال صلى الله عليه وسلم الذي: "يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً" (1). وقال : "لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه ، فيقتل في كل مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل لعلي أكون أنا أنجو" (2) وذكر فتنة الأحلاس(3) فقال صلى الله عليه وسلم :" كنا قعودا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس ، فقال قائل يا رسول الله وما فتنة الأحلاس ؟ قال هي حرب(4)وهرب ... الحديث (5). هذه بعض الفتن التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي كما - توحي الأحاديث - فتن طويلة شاقة يغبط معها الأحياء الأموات ، قال صلى الله عليه وسلم :" لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه" (6).

أما البلاء : فمن الله بما كسبت أيدي الناس ، وقد كسبت أيديهم الكثير في تلك الفترة ، قال صلى الله عليه وسلم :" كيف بكم وبزمان أوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة تبقى حثالة من الناس قد مرجت(7)عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك

---

(1) البخاري (كتاب الفتن ، رقم : ٦٥٨٦) ، مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥١٥٣ ، ٥١٥٤) ، الترمذي (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٢٤٩٣) ، أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٥٩).

(2) مسلم (كتاب الفتن ، رقم : ٥١٥٢) ، مسلم بشرح النووي [طبعة الريان مجلد ٩ ، جـ١٨، ص١٨].

(3)الأحلاس : جمع جلس بكسر الحاء وسكون آلام بعدها سين وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب شبهت به الفتنة لملازمتها الناس حين تنزل بهم كما يلازم الحلس ظهر البعير ، وقيل يحتمل أن تكون هذه الفتنة شبهت بالإحساس لسواد لونها وظلمتها

(4) الحرب بفتح الراء ذهاب المال والأهل ، يقال حرب الرجل فهو هريب إذا سلب ماله وأهله .

(5) أبو داود (كتاب الفتن والملاحم : رقم : ٣٧٠٤) . احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٥٨٩٢) .

(6) البخاري (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥١٧٥) ، مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥١٧٦) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٢٧) ، أحمد (كتاب الفتن ، رقم : ٦٩٢٩ ، ١٠٤٤٦) موطأ مالك (باب الجنائز ، رقم : ٥٠٨).

(7) مرجت عهودهم : اختلطت فلم تعد خالصة ولا صافية .

بين أصابعه ، فقالوا : و كيف بنا يا رسول الله ؟ قال : تأخذون ما تعرفون وتذرون ما تنكرون ، وتقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتكم" (1).

ومن هذا البلاء طغيان الشح ، وكثرة المال ، وتقارب الزمان ، وكثرة الهرج وكثرة الزلازل وتقارب الزمان ونقص العلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" يتعاقب الزمان وينقص العلم ويبقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الهرج ، قالوا : يا رسول الله أيما هو ؟ قال القتل القتل" (2).وقال أيضا" لا تقوم الساعة حتى يفيض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان ويكثر الهرج وهو القتل القتل حتى يكثر فيكم المال فيفيض "(3).ويترتب على هذه الفتن والابتلاءات أمور عدة منها :

1-انتشار الفقر والجوع : قال صلى الله عليه وسلم :" منعت العراق درهمها وقفيزها(4)، ومنعت الشام مديها(5)ودينارها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم وعدتم من حيث بدأتم ، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه " (6).وبسبب هذا الفقر ينتشر الجوع ، قال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر :" يأبا ذر أرايت إن أصاب الناس جوعا شديدا لا تستطيع معه أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع ؟ قلت الله ورسوله اعلم ، قال : اصبر ، قال يأبا ذر أرايت إن أصاب الناس موت

---

(1) أبو داود (كتاب الملاحم : باب الأمر والنهي ، رقم : ٢٧٧٩) .

(2)البخاري (كتاب الجمعة ، باب ظهور الفتن ، رقم : ٩٧٨ – كتاب العلم ، رقم ٨٥ – كتاب الأدب ، رقم : ٦٠٣٧ – كتاب الفتن ، رقم ٧٠٦١) مسلم (كتاب الإيمان ، رقم ٢٢٦ – كتاب العلم ، رقم ٤٨٢٧ – كتاب الفتن واشراط الساعة ، رقم : ٥١٤٣) ، أبو داود (كتاب الفتن والملاحم ، رقم : ١٧١٣) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم ٤٠٣٧ ، ٤٠٤٢) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٦٨٨٩ ، ٧١٧٦ ، ٧٥٣٣ ، ٨٤٧٧ ، ٩١٦٢ ، ٩٥١٨ ، ٩٩٨٠ ، ١٠٣٠٦ ، ١٠٣٦٩ ، ١٠٤٤٣، ١٠٥٠٥ ، ١٠٥٣٢ ، ١٠٥٦١.

(3) البخاري (كتاب الجمعة ، رقم : ٩٧٨) ، احمد (كتاب مسند المكثرين ، رقم : ١٠٤٤٣) .

(4) القفيز مكيال لأهل العراق .

(5) المد : مكيال لأهل الشام .

(6) مسلم (كتاب الفتن واشراط الساعة ، رقم : ٥١٥٦) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٧٢٤٩) ، أبو داود (كتاب الخراج والإمارة والفيء ، رقم : ٢٦٣٩) .

شديد كيف تصنع ؟ قلت الله ورسوله اعلم قال : اصبر ، قال يأبا ذر أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضا - يعنى حتى تغرق حجارة البيت من الدماء - كيف تصنع ؟ قلت الله ورسوله اعلم قال : اقعد في بيتك واغلق عليك بابك ، قلت : فإن لم اترك أفاخذ سلاحي ؟ قال : إذن تشاركهم فيما هم فيه ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فالق طرف ردائك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك" (١).

٢-هلاك معظم الناس وقلة العرب : فالزلازل والأمراض والآفات والفتن ستعمل عملها في هذا العصر ، فيهلك الكثير من الناس وينحصروا مرة ثانية في قلب العالم القديم (شمال شرق أفريقيا وجنوب غرب آسيا وأوربا) ويقل العرب كثيرا ويصبح الروم أكثر أهل الأرض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس" (٢).وقال أيضا : "من اقتراب الساعة هلاك العرب" (٣).

٣- ضعف الإيمان وقلة التمسك بالدين وخروج الناس منه أفواجا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويل للعرب من شر قد اقترب فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا ، قليل المتمسك يومئذ بدنيه كالقابض على الجمر أو قال على الشوك "(٤). وفى ظل هذا التردد بين الإيمان والكفر يخرج الناس من دين الله أفواجا قال صلى الله عليه وسلم: "إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا" (٥).

٤- اختفاء جماعة المسلمين وغلبة الأهواء والفرق الضآلة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي

---

(١) كنز العمال للمتقى الهندي(رقم: ٨٣٢) .

(٢) مسلم عن المستورد القرشي: فتن باب ١٠ ، كنز العمال ٣٨٤٥٤.

(٣) الترمذي (كتاب الفتن واشراط الساعة ، رقم : ٥١٥٩) ، احمد (كتاب مسند الشاميين ، رقم ١٧٣٣٤) .

(٤) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٨٧١١ ، ٧٦٨٧ ، ٨٤٩٣ ، ٨٧٢٣ ، ٩٣١٤ ، ١٠٣٥٤) ، مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ١٦٩) ، الترمذي (كتاب الفتن ، رقم : ٢١٢١) .

(٥) كنز العمال : ٣٨٧٤.

فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه فمن وجد منها ملجأ أو معاذا فليعذ به" (1)
فهذا عصر شديد الفتن لا يكون للمسلمين فيه جماعة قائمة بالحق(2)وإنما هناك فرق كثيرة ضالة وأهواء متبعة ، ولهذا قال الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة عندما سأله : فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة :" فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك" (3) ، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ثعلبة - عندما سأله عن قوله تعالى { عليكم أنفسكم } :" بل ائتمروا بالمعروف وتناهو عن المنكر وإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك يعني بنفسك ودع أمر العوام فان من ورائكم أيام الصبر الصبر فيه مثل قبض على الجمر للعامل فيهم مثل اجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله ، وزادني غيره قال رسول الله : اجر خمسين منهم قال : اجر خمسين منكم" (4).

وهذا البلاء وتلك الفتن تغربل الناس غربلة ، فيخرج من الدين كل ضعيف الإيمان ولا يبقى إلا من تمسك بدينه ، وقد سبق ذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :" كيف بكم وزمان أوشك أن يأتي يغربل الناس فيه غربلة " . وما إن تنجلي هذه الفتن السوداء حتى يتلاحم المؤمنون من جديد ، مما يؤكد قدرة الإسلام الدائمة على تخطي كل العقبات فينشئون من جديد دولتهم أو خلافتهم الإسلامية ، التي تعود لممارسة دورها الرباني في نشر الدين ، فتستقيم أحوالها أحيانا وتضطرب في أحيان أخرى . ولا يزال الأمر كذلك حتى يظهر أحد خلفاء المسلمين الراشدين ألا وهو محمد بن عبد الله (المهدي المنتظر) الذي يعود بالمسلمين إلى ربهم ، ويفتح البلاد التي كانت قد خرجت من الإسلام ، ويعم الرخاء

---

(1) البخاري (كتاب الفتن ، رقم : 6554 - كتاب المناقب ، رقم : 3602) ، مسلم (كتاب الفتن ، رقم : 5136) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : 7464) .

(2) ابن كثير: النهاية في الفتن والملاحم ص38.

(3) جزء من حديث رواه البخاري عن حذيفة، كتاب الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ، رقم : 3411) ، مسلم (الإمارة ، رقم : 3434) .

(4) أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : 3778) ، الترمذي (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ، رقم : 2984) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : 4004) .

حتى تتمنى الأحياء أن لا تموت ، قال صلى الله عليه وسلم : " الفتن كذلك حتى يقوم المهدي "(١).

(١) كتر العمال للمتقي الهندي (رقم : ٣١٤٠٠) .

الفصل الثاني

[دولة المهدي الإسلامية العالمية]

بينما الناس في هرج ومرج ، تعصف بهم البلايا والفتن ، بينما الأمر كذلك يمن الله سبحانه على المسلمين بخليفة مؤمن مجدد يظهر الإسلام على الدين كله ، ويملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ألا وهو المهدي .

١-من هو المهدي ؟

هو محمد بن عبد الله [١]من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رجل غير صالح يقترف ما يقترفه عامة المسلمين من مخالفات شرعية ، غير أن الله سبحانه يمن عليه ويصلحه في ليلة [٢]فيرغب إليه الناس فيبيعونه - وهو كاره - بين الركن والمقام في مكة المكرمة .

٢-المهدي مجدد لا مؤسس لدولة الإسلام:

إن محمد بن عبد الله المهدي -كما تدل السنة - ليس مؤسس لدولة إسلامية وإنما هو خليفة مجدد . يؤكد ذلك الحديث الذي أخرجه أبو داود عن أم المؤمنين عن النبي صلى الله عليه وسلم : "يكون اختلاف عند موت خليفة . فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ، ويبعث إليه بعث من أهل الشام فيخسف بهم في البيداء بين مكة والمدينة ، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق ، فيبيعونه بين الركن والمقام ، ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد

---

(١) عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً من أمتي أو أهل بيتي يوطئ اسمه، واسم أبيه اسم أبي) أخرجه الترمذي بمعناه (كتاب الفتن - رقم : ٢١٥٦، ٢١٥٧) وقال حديث حسن صحيح - بوابو داود (كتاب المهدي : رقم ٣٧٣٣) .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : (المهدى منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة) [سنن ابن ماجة : رقم ٤٠٧٥ - ٢٠٧٦٩- مصنف بن أبي شيبة ١٩٧ :١٥ - الدر المنثور ٥٨ :٦ ، مسند احمد : رقم ٦١٠] .

غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلى عليه" ([1]).

فالمهدى إذن خليفة ولكنه مجدد وعلامة تجديده أنه يعمل في المسلمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم([2])فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورا وظلما([3])فيقوى إيمان الناس بربهم ويتطابقوا مع فطرهم حتى إنه لا يكون في عصابته" مارد ولا مارق ولا شارد مرتاب ولا منافق" ([4]). وبذلك يصبحوا مؤهلين لحمل الأمانة ، أمانة تحرير الناس – كل الناس – وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

٣-فتوحاته وحدود دولته :

يحمل المهدي – واتباعه – الإسلام ويتحرك به من جديد ، فيبايعه أهل العراق وأهل الشام.وأهل الجزيرة العربية وأهل فارس – بعد ردة – ويملك جبل الديلم ويفتح القسطنطينية([5])وإنطاكية والرومية . ولا يزال _ وأصحابه – على هذا الأمر حتى يلقي الإسلام بظلاله إلى الأرض ، وحتى يملك الدنيا كلها . ولكنه قبل ذلك وفي سبيل نشر الإسلام يدخل في حروب ضارية داخلية وخارجية .

(أ) **الحروب الداخلية (حرب الردة) :** يبتلي الله الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان يظهر فيه الإسلام بطائفة من المنافقين يعملون على زعزعة أمن الدولة

---

(١) أبو داود: رقم ٣٧٣٧، ٤٢٨٦ – مسند أحمد ٢١ :٦، ٣١٦– مصنف عبد الرزاق: ٢٠٧٦٩– موارد الظمآن: ١٨٨١كنز العمال: ٢٠٩٣٢، ٣٨٦٦٨– تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٢ :١).

(٢)قال صلى الله عليه وسلم : " المهدي مني أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما (أبو داود ، كتاب المهدي ، رقم : ٣٧٣٦) .

(٣) قال صلى الله عليه وسلم : " المهدي مني أجلى الجبهة اقنى الوجه يملا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما فيملك سبع سنين "[أبو داود : باب المهدي ، ومشكاة المصابيح : ٥٤٥٤ ، والحاوي للفتاوى للسيوطي : ٢– ١٢٤] .

(٤) هذا النص جزء من حديث طويل أورده القرطبي في التذكرة وقال عنه انه حديث صحيح [التذكرة ، ص ٧٦٠ – ٧٦١] .

(٥) هذا الفتح هو الفتح الثاني ، لأن الفتح الأول حققه القائد العثماني المسلم البطل محمد الفاتح ، ومازالت القسطنطينية (اسطنبول) إلى الآن في يد المسلمين .

الإسلامية واستقرارها ويفتنون الناس عن دينهم . وقد ابتلى الله الأمة الإسلامية في هذا العهد بمنافق يسمى السفياني يظهر في دمشق فيفتن أهلها ، ويجيش منهم الجيوش لحرب المسلمين . واصل فتنة هذا المنافق واتباعه الهم يعتنقون مذهب الخوارج ويزيدون فيحلون الخمر ، ويحاربون الله ([1]). ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إن جيوش هذا المرتد تنطلق وغايتها تقويض أركان الدولة الإسلامية ، ونقض شريعة الإسلام ، فتصنع بالمسلمين صنيع الكفار والزنج والقرامطة ، فيسبون النساء والأطفال ويقتلون الرجال وينهبون الأموال . روى من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : " وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فوره ذلك حتى ينزل بدمشق ، فيبعث جيشين جيشا إلى المشرق وجيشا إلى المدينة ، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزل بأرض بابل ... يعني مدينة بغداد ، قال : فيقتلون اكثر من ثلاثة آلاف ، ويفتضون اكثر من مائة امرأة ، ويقتلون بها اكثر من ثلاثمائة كبش من ولد العباس ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام ، فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش على ليلتين فيقتلونهم حتى لا يفلت منهم مخبر ، ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ، ويحل جيشه الثاني بالمدينة فينهبونها ثلاثة أيام ولياليها ، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة ([2]). حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا جبريل اذهب فأبدهم فيضربهم برجله ضربة يخسف بهم ، وذلك قوله عز وجل : { ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب }[سبأ / ٥١] . فلا يبقى منهم إلا رجلين أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جهينة "([3]).

---

(١) روي عن حذيفة أنه قال : " قلت يا رسول الله : كيف يحل قتلهم وهم مسلمون موحدون ؟ فقال " إنما أيمانهم عن ردة لأنهم خوارج ، ويقولون برأيهم أن الخمر حلال ، ومع ذلك انهم يحاربون الله ، قال الله تعالى : { إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم } .. الحديث [التذكرة ، ص ٧٠٣] .

(٢) ربما تكون مكة عاصمة الدولة السلامية في تلك الإثناء .

(٣) جزء من حديث لحذيفة بن اليمان [القرطبي : التذكرة ، ص ٦٩٣] .

والأحاديث التي تؤكد خروج الجيش الثاني إلى الكعبة كثيرة منها الحديث الـذي رواه الإمام مسلم في صحيحه : " عبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه فقلنا يـا رسول الله صنعت شيئا في منامك لم تكن تفعله فقال العجبُ إن ناسا من أمتي يؤمـون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم ، فقلنا يـا رسول الله : إن الطريق قد يجمع الناس ، قال : نعم فيهم المستبصر والمجبـور وابـن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نيـاتهم "(١). وبهذا يقي الله المسلمين شر هذه الفتنة ، ويعيد إلى الدولة الإسلامية أمنها واستقرارها ، مما يمهد الطريق إلى الفتوحات الخارجية .

(ب) الحروب الخارجية (الملحمة الكبرى أو الحرب الصليبية الأخيرة) :

بعد أن تستقر الدولة الإسلامية داخليا ، تتجه جيوش المهدي الإسلامية إلى الفتوحات الخارجية ، وخاصة إلى أوربا . ويعرض عليهم المهدي أحد ثلاثة : الإسلام أو الجزيـة أو الحرب ، فيختار الروم الجزية ، ويدخلون مع المسلمين في صلح آمن ، حتى انهـم يغزون عدوا مشتركا فينصرون فينسب النصارى النصر للصليب فيكون هذا الأمـر السبب في الحرب الفاصلة بين المسلمين والروم . اخرج ابن ماجة عن ذي مخمر وكان رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت النبي صلى الله عليـه وسلم يقول : " ستصالحكم الروم صلحا آمنا ، ثم تغزون انتم وهم عدوا فتنتصـرون وتغنمون وتسلمون ، ثم تنصرفون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول فيرفع رجل من أهـل الصليب صليبه فيقول غلب الصليب ، فيغضب رجل من المسلمين فيقوم إليه فيدفعه ، فعندئذ تغدر الروم فيجتمعون للملحة ، فيأتون تحت ثمانين غاية كل غاية اثنا عشـر ألفا" (٢). غير أن الله سبحانه ينصر المسلمين على ، المشركين وتعلوا راية الإسـلام ،

(١) مسلم : (كتاب الفتن واشراط الساعة ، رقم : ٥١٣٤ ، ٥١٣٢) ورجاله كلهم ثقاة ، النسـائي : (كتاب مناسك الحج ، رقم : ٢٨٣٠ ، ٢٨٣١) ، ابن ماجه : (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٥٣) ، احمد : (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٢٥٢٣٩) .

(٢) واه ابن ماجه : ٤٠٨٩ . وأبو داود : ٢٧٦٧ ، ٣ر٧٤١، و ٤٢٩٢ و ٤٢٩٣ ، واحمد : رقـم ١٦٢٢٢ ، ٢٢٠٧٥ ، ٢٢٣٧٩ ، والحاكم في المستدرك : ٤٢١ ، والطبراني في المعجم الكبـير : ٤-

فيرغب ملك الروم- كما قال صلى الله عليه وسلم :" إلى المهدي في الصلح ، وذلك لظهور المسلمين على المشركين فيصالحه إلى سبعة أعوام فيضع عليهم الجزية عن يـــد وهم صاغرون ، فلا تبقى لرومي حرمة ويكسرون لهم الصليب ، ثم يرجع المســلمون إلى دمشق . فبينما الناس كذلك إذا برجل من الروم قد التفت فرأى أبنــاء الــروم وبناقم في القيود والأغلال فتغير نفسه فيرفع الصليب ويرفع صوته فيقول : ألا مـــن كان يعبد الصليب فلينصره ، فيقوم رجل من المسلمين فيكسر الصليب ويقـــول الله اغلب وانصر ، فحينئذ يغدرون وهم أولى بالغدر فيجمعون عند ذلك ملوك الـروم في بلادهم خفية ، فيأتون إلى بلاد المسلمين ، والمسلمون قد اخذوا منهم الأمن وهم على غفلة الهم مقيمون على الصلح ، فيأتون أنطاكية في اثني عشر ألف راية تحت كل راية اثني عشر الفا، فلا يبقى بالجزيرة ولا بالشام ولا بإنطاكية نصراني إلا ويرفع الصليب ، فعند ذلك يبعث المهدي إلى أهل الشام والحجاز واليمن والكوفة والبصرة والعـراق يعرفهم بخروج الروم وجمعهم ويقول لهم أعينوني على جهاد عـــدو الله وعدوكـــم ، فيبعث إليه أهل المشرق انه قد جاءنا عدو من خرسان على ساحل الفرات وحل بنا ما شغلنا عنك ، فيأتي بعض أهل الكوفة والبصرة ، ويخرج إليهم المهدي ، ويخرج معـهم المسلمون إلى لقائهم فيلتقي بهم المهدي ومن معه من المسلمين فيـــأتون إلى دمشـــق فيدخلون فيها فتأتي الروم إلى دمشق فيكونون عليهم أربعين يوما ، فيفسدون البـلاد ويقتلون العباد ويهدمون الديار ويقطعون الأشجار ، ثم إن الله تعالى يـــنزل صـــبره ونصره على المؤمنين فيخرجون إليهم ، فتشتد الحرب بينهم ويستشهد من المســلمين خلق كثير ، فيالها من وقعة ومقتلة ما أعظمها وما أعظم هولها ، ويرتد من العـــرب يومئذ أربع قبائل سليم وفهد وغسان وطيء ، فيلحقون بالروم ويتنصرون مما يعـــاينون من الأمر العظيم والهول الجسيم ، ثم إن الله تعالى ينزل النصر والصبر والظفر علــــى المسلمين ، فيقتل من الروم مقتلة عظيمة حتى يخوض الخيل في دمائهم وتشتعل الحرب بينهم ، حتى إن الحديد يقطع بعضه بعضا ، وان الرجل من المسلمين ليطعن العلـــج

---

٢٧٨ ، وابن أبي شيبة في مصنفه : ٢ – ٣٢٦ ، والتبريزي في مشكاة المصابيح : ٤٤٢٨ ، كنز العمال : ٣٨٤٥١.

بالسفود فينفذه وعليه الدرع من الحديد ، فيقتل المسلمون من المشركين خلقا كثيرا حتى تخوض الخيل في الدماء وينصر الله تعالى المسلمين ويغضب على الكافرين ، وذلك رحمة من الله تعالى لهم ، فعصابة من المسلمين يومئذ خير خلق الله والمخلصين من عبد الله ليس فيهم مارد ولا مارق ولا شارد ولا مرتاب ولا منافق ، ثم إن المسلمين يدخلون إلى بلاد الروم ويكبرون على المدائن والحصون ويغنمون الأموال ويسبون النساء والأطفال[1]... الحديث .

مما سبق يتضح الآتي :

١- إن هذه الملحة الكبرى أو الحرب الصليبية الأخيرة تعتبر بكل المقاييس حرب عالمية بين الإسلام والنصرانية ، يتضح ذلك إذا نظرنا إلى الأعداد المشاركة في هذه المعركة وخاصة من جانب النصارى الذين يزيد عددهم عن المليون مقاتل هذا في الوقت الذي تناقصت فيه أعداد البشرية كما سبق وبينا .

٢- إن الملحمة الكبرى تتكون من وقعتين كبيرتين : الأولى بالقرب من ارض العدو المشترك للمسلمين والنصارى والتي انتصرا فيها عليهم المسلمون والنصارى ، ثم غدر النصارى وزعموا أن النصر كان للصليب ، وفي هذه الوقعة حشد النصارى ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألف مقاتل . والثانية في دمشق بالشام وقد حشدوا فيها ألف راية تحت كل راية اثنا عشر ألف مقاتل .

٣- إن المسلمين والروم يمثلون في ذلك الوقت القوتين العظميين .

٤- إن دور اليهود - في ذلك الوقت - سيختفي تماما من مسرح الأحداث العسكرية ، وإن كنا لا نستبعد أن يكون لهم دورهم المعروف في تحريك الأحداث من وراء ستار ، كعادتهم دائما في حال ضعفهم .

٥- إن أنظمة أوربا الحالية من جمهورية وديمقراطية وغيرها ستزول ويحل محلها - من جديد - النظم الملكية ، حيث يوضح الحديث أن الذي يقود جيوش النصرانية ملوك لا رؤساء ولا رؤساء وزارة .

---

(١) هذا النص جزء من حديث طويل أورده القرطبي في التذكرة وقال عنه انه حديث صحيح [القرطبي: التذكرة ، ص ٦٧٠- ٦٧١]

٦- إن انتصار المسلمين في هذه المعركة يؤدي إلى ثلاثة نتائج هامة تترك وبقوة أثرهـــا في حركة التاريخ الإنساني وهي : الأولى : تحطيم الآلة العسكرية الغربية مما يزيل هيمنتهم عن مساحة كبيرة عن الأرض .

الثانية : انفراد المسلمين بقيادة البشرية .

الثالثة : تمهيد الطريق أمام المسلمين لفتح بلاد أوربا ، حيث تنطلق الجيوش الإسلامية لفتح بلاد الروم فيدخلون المدائن والحصون ، ويفتحون القسطنطينية والروميـــة ممـــا يضعـــف النصرانية ويقلل اتباعها . " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي المدينتين تفتـــح أولا قسطنطينية أو رومية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " لا بل مدينة هرقل أولا " (١).

٧- إن بعض قبائل العرب سترتد إلى الكفر ، فيقل عدد المسلمين منهم .

٨- أن النصارى سيغلبون - فيما قبل تلك الفترة - على جزيرة العرب .

٤-دولة المهدي دولة رخاء وعدل :

بعد أن يفتح المهدي وجيشه المبارك أوربا ومعظم الأرض المعمورة - في ذلك العصـــر - يأخذ في نشر الإسلام في تلك المناطق ، فيعم العدل ويزول الظلم ، وتتجلى دولة الإســـلام العالمية الرحيمة في أبهى صورها ، حتى يرضى عنها ساكن السماء والأرض . ومن مظـــاهر رضى الله عن هذه الدولة- كما قال صلى الله عليه وسلم : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلايا تصيب هذه الأمة حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم فيبعث الله رجلا من عترتي أهل بيتي فيملأ به الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض ،لا تدع السماء شيئا من قطرها إلا صبته مدرارا ، ولا تدع الأرض شيئا من نباتها إلا أخرجته حتى تتمنى الأحياء ألا موت يعيش في ذلك سبع سنين أو ثمـــاني سنين أو تسع سنين" (٢).

ومن مظاهر الرخاء أيضا أن بلاد العرب ستصبح آنذاك مروجا وأنهارا فعن أبي هريـــرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ويفيـــض ،

---

(١) سنن الدرامي (كتاب المقدمة ، رقم : ٤٨٦) ، مسند احمد (مسند المكثرين من الصحابة ، رقـــم : ٦٣٥٨) .

(٢) هذا جزء من حديث ذكره عبد الرزاق عن أبي سعيد الخدري [القرطبي : التذكرة ، ص ٧٠٠] .

وحتى يخرج الرجل زكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه ، وحتى تعود ارض العرب مروجا وانهارا "(1). ومن مظاهر هذا الرخاء أيضا أن الخليفة يحثي المال ولا يعده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" يكون في آخر الزمان خليفة يعطى المال ولا يعده عدا" (2). حتى - كما قال صلى الله عليه وسلم :" إن في أمتي المهدي يخرج يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا - زيد للشك - قال : قلنا : وما ذاك ؟ قال : سنين ، قال : فيجيء إليه الرجل فيقول : يا مهدي أعطني أعطني ، قال : فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله" (3) . وقال أيضا: " يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع وإلا فتسع تنعم فيه امتي نعمة لم يسمعوا بمثلها قط ، تؤتي أكلها ولا تترك منهم شيئا ، والمال يومئذ كدوس . يقم الرجل فيقول : يا مهدي اعطني فيقول : خذ "(4).

وهذا كله - كما يقول د . يوسف القرضاوي _ دليل على ظهور الرخاء ورغد العيش وزوال الفقر من المجتمع بحيث لا يوجد فيه فقير يستحق الصدقة أو يقبلها ، وهذا من بركات عدل الإسلام واثر الإيمان والتقوى في حياة الناس كما قال تعالى : { ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض }[الأعراف / ٩٦](5). ويمكث المهدي ما بين خمس أو سبع أو تسع سنين كما بينت الأحاديث السالفة الذكر ، وتكون منيته فجاة .

---

(١) البخاري (٢ : ١٣٥) ، مسلم (الزكاة ب ١٨ ، رقم : ١٨ ورقم ٦١) ، مسند احمد (٢ : ٣١٣) ، كنز العمال (٣٨٤٠١)

(٢) مسلم (الفتن وأشرطها ، رقم : ٥١٨٩ و٥١٩٠) ، مسند احمد (باقي مسند المكثرين : رقم : ١٠٩١١ ، ١٠٥٨٩ ، ١١٠٣٠ ، ١١١٥٢ ، ١١٤٧٨ ، ١١٥٠٢)

(٣) الترمذي (الفتن عن رسول الله ، رقم :٢١٥٨ ، وقال حديث حسن) .

(٤) ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٧٣) .

(٥) د . يوسف القرضاوي : المبشرات بانتصار الإسلام ، مقالة بجريدة الشعب ٦ / ٢ /١٩٩٦م .

الفصل الثالث

[دولة المسيح الإسلامية العالمية]

١- الدولة الإسلامية بعد المهدي :

بعد موت المهدي بسنوات قليلة تضطرب أحوال الدولة الإسلامية ، حيث يركن غالبية الناس إلى أنفسهم ، وتسيطر عليهم وأهوائهم ، وتضطرب موازينهم ، ويختلط عندهم الحق بالباطل ، ويسودهم النفاق ، قال صلى الله عليه وسلم :" إن أمام الدجال سنين خدّاعة يكذّب فيها الصادق ويصدّق فيها الكاذب ويخوّن فيها الأمين ويتكلم فيها الرويبضة قيل وما الرويبضة ؟ قال : الفويسق يتكلم في أمر العامة" (١). وقال أيضا :" يخرج الدجال في خفة من الدين وإدبار من العلم" (٢). وقال أيضا :" سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع حتى عدها زيادة عن عشر مرات كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال" (٣). وقال أيضا :" يخرج قوم من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما قطع قرن نشأ قرن حتى يخرج في بقيتهم الدجال(٤).

وجزاء لذلك - وبما كسبت أيدي الناس - يتعرض الناس لثلاث سنوات عجاف شداد ، يتعرضون فيها لجوع شديد ، حيث تمسك السماء مطرها والأرض نباتها وتهلك البهائم قال صلى الله عليه وسلم :" إذا كان قبل خروج الدجال بثلاث سنين حبست السماء ثلث قطرها ، وحبست الأرض ثلث نباتها ، فإذا كانت السنة الثانية حبست السماء ثلثي قطرها وحبست الأرض ثلثي نباتها ، فإذا كانت السنة الثالثة حبست السماء

---

(١) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ١٢٨٢٠ ، رواه احمد عن أبي جعفر المدائني عن عبادة بن العوام عن محمد بن إسحاق عن محمد بن المتكدر عن انس بن مالك ، ورجاله كلكم ثقاة ، والصحابة رتبهم أسمى مراتب العدالة والتوثيق) .

(٢) احمد (باقي مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ١٤٤٢٦ ، رواه احمد عن محمد بن سابق عن إبراهيم بن طهمان عن أبي الزبير عن جابر ، وكلهم ثقاة) .

(٣) احمد : (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٥٧٦) .

(٤) أحمد : (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٦٥٨) رواه احمد عن عبد الله بن عمر .

قطرها كله وحبست الأرض نباتها كله ، فلا يبقى ذو خفّ ولا ظلفٍ إلا هلـــك "(1)... الحديث .

٣-الدجال واليهود :

في ظل هذه السنوات العجاف يخرج الدجال اليهودي (2)، " من يهوديـــة اصبـــهان " (3)...الحديث و: " يتبع الدجال من يهود اصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالســـة " (4) ، ومعه من الشبه والأكاذيب الظاهرية ما يفتن بها الألباب ويزيغ بها العقول ، قال صلـــى الله عليه وسلم :" إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً فأما الذي يرى الناس أنها نار فماءٌ بـــارد وأما الذي يرى الناس انه ماء فنارٌ تحرق فمن أدرك فليقع في الذي يرى أنها نار " (5). ثم إنه " يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ويقتل نفسا ثم يحيها فيما يرى الناس فيقول للناس أيها

---

(1) احمد (كتاب مسند القبائل ، رقم : ٢٦٢٨٧ ، ٢٦٢٩٨) . رواه يزيد بن هارون عن حمـــاد بـــن سلمة عن علي بن زيد عن أبي نضرة عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه ، وعد علماء الحديث كـــل رجاله ثقات باستثناء عليّ بن زيد فقد قال عنه يحي بن سـ... القطان : " ترك حديثه " وقال احمد بن حنبـــل (ليس بالقوي) وقال يحي بن معين (ليس بذات القوي).

(2) قال صلى الله عليه وسلم : "إنه يهودي " ، جزء من حديث أخرجه مسلم (كتاب الفتن وأشـــراط الساعة ، رقم : ٥٢١٠ ، رواه مسلم عن محمد بن عبد الأعلى عن معتمر عن أبيه عن أبي نضرة عـــن أبي سعيد الخدري ، كلهم ثقاة) واحمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٠٧٧٧) .

(3)احمد (باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٢٨٦٥ ، رواه احمد عن محمد بن مصعب عن الأوزاعـــي عـــن ربيعة بن أبي عبد الرحمن انس بن مالك ، وكلهم ثقاة) .

(4) مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٣٧ ، رواه مسلم عن منصور بن أبي مزاحم عـــن يحي بن حمزة عن الاوزاعي عن إسحاق بن عبد الله عن انس بن مالك ، وكلهم ثقاة) .

(5) البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم : ٣١٩٤ – كتاب الفتن ، رقم : ٦٥٩٧ ، ٧١٣٠ ، رواه موسى بن إسماعيل عن أبي عوانه عن عبد الملك عن ربعيّ بن حراش عن حذيفة ، وكلـــهم ثقـــاة) . وفي رواية " مع الدجال نهران ، مسلم (كتاب الفتن الساعة ، رقـــم : ٥٢٢٤ ، ٥٢٢٣ ، ٥٢٢٦) ، وفي رواية أخرى بحران ، أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٦٠) واحمد (كتاب باقي مسند الأنصـــاري ،رقم : ٢٢١٩٢) ، وفي رواية معه جنة ونار ، مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقـــم : ٥٢٢٢ ، ٥٢٢٥) وأبن ماجة (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٦١) واحمد (باقي مسند الانتصار ، رقـــم : ٣٢١٦٦ ، ٢٢٢٧٦ ، ٢٢٣٤٢) ، وفي رواية ماء ونار ، احمد (رقم : ٢٢٢٦٢ ، ٢٢٢٩٣) .

الناس هل يفعل هذا إلا الرب ؟ " (1).و " يقول الدجال للرجل من أهل البادية أرأيت إن بعثت إبلك ضخما ضروعها عظاما أسنمتها أتعلم أني ربك فيقول نعم فتمثل له الشياطين على صورة إبله فيتبعه ويقول للرجل أرأيت إن بعثت أباك وابنك ومن تعرف من اهلك أتعلم أني ربك فيقول نعم فيمثل له الشياطين على صورهم فيتبعه "(2).

فإذا ما فعل ذلك ورأى الناس ما معه من مغريات الماء والطعام والظواهر التي توحي إليهم أنها خوارق ومعجزات : " فيخرج إليه كل كافر ومنافق" (3). " واكثر تبعه اليهود والنساء" (4). ولذلك سمى النبي صلى الله عليه وسلم – في خطبة له – هذا اليوم بيوم الخلاص فقال : " يوم الخلاص وما يوم الخلاص يوم الخلاص وما يوم الخلاص يوم الخلاص وما يوم الخلاص ثلاثا فقيل له وما يوم الخلاص قال يجيء الدجال فيصعد أحد فينظر المدينة فيقول لأصحابه أترون هذا القصر الأبيض هذا مسجد احمد ، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكا مصلطا فيأتي سبخة الْحرْفِ فيضرب رواقه ثم ترتجف المدينة ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فذلك يوم الخلاص "(5).

وفي ظل هذا الدجل وتحت تأثير أبواق الدعاية اليهودية التي تحيط الدجال بهالة من القداسة مسبحين فيها بحمده ، ومخوفين الناس من بطشه وعذابه ، وداعين إياهم إلى جنته ونعيمه . وغايتهم من ذلك استغلال هيمنته وما معه من شبه في إقامة الدولة اليهودية العالمية ، والعودة مرة أخرى إلى بيت المقدس وجعله عاصمة لهذه الدولة اليهودية العالمية ، وليس

---

(1) احمد (٣ : ٣٦٧) ، مستدرك الحاكم (٤ : ٥٣٠) ، كنز العمال (٣٨٨١٩) ، الدر المنثور (٢ : ٢٤٢).

(2) جزء من حديث سابق (انظر الحاشية رقم :٤) .

(3) البخاري (كتاب الحج ، رقم : ١٧٤٨- كتاب الفتن ، رقم : ٦٥٩١، رواه مسلم عن إبراهيم بن المنذر عن الوليد بن أبو عمر عن إسحاق عن انس بن مالك وكلهم ثقاة) ، مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٣٦) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٢٥١٧ ، ١٣٠٠٨) .

(4) احمد (كتاب مسند الشاميين ، رقم : ١٧٢٢٦ ، ورواته كلهم ثقات باستثناء علي بن زيد فهو ضعيف الرتبة) .

(5) احمد (كتاب مسند الكوفيين ، رقم : ١٨٢٠٧ ، رواه احمد عن يونس عن حماد يعني ابن سلمة عن سعيد الْجُرَيْرِيِّ عن عبد الله بن شقيق عن محجن بن الادرع ، وكلهم ثقاة) .

من العجيب أن يصنع اليهود ذلك فهذا سمتهم وتلك أخلاقهم ، الهم يستغلون كل قوة تظهر في الأرض لتحقيق أغراضهم مثلما فعلوا مع بريطانيا والاتحاد السوفيتي الشيوعي من قبل ، ومع الولايات المتحدة الأمريكية الآن . إن اليهود جبناء لا يظهرون على مصرح الأحداث التاريخية إلا في ظل قوة تحميهم وإلا فلن تسمع لهم صوتا .

من هذا المنطلق يطأ هذا الدجال الأرض كلها إلا مكة والمدينة ، قال صلى الله عليه وسلم : " يجيء الدجال فيطأ الأرض إلا مكة والمدينة " ([1]). والعلة في عدم دخوله مكة والمدينة الهما محفوظتان من قبل الله بالملائكة ، قال صلى الله عليه وسلم : " المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون ([2]).

وإذا غلب الدجال على الأرض كلها لا يبقى للمسلمين إلا ثلاثة أمصار قال صلى الله عليه وسلم : " يكون للمسلمين – أي وقت الدجال – ثلاثة أمصار ، مصر بملتقى البحرين ، ومصر بالحيرة ، ومصر بالشام فيفزع الناس ثلاث فيخرج الدجال في أعراض الناس فيهزم من قِبلَ المشرق ، فأول مصر يرده المصر الذي بملتقى البحرين فيصير أهله ثلاث فرق فرقة تقول نشامُهُ ننظر ما هو وفرقة تلحق بالأعراب وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم ،

---

(١) البخاري (كتاب الحج ، رقم : ١٧٨٢) ، مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٣٦) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٢٥١٧) واللفظ لأحمد رواه عن بهز وعفان عن حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن انس بن مالك ، وكلهم ثقاة .

(٢) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٩٨٧٥). وفي رواية : "الدجال لا يولد ولا يدخل المدينة ولا مكة " احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٠٩٦٣ ، ١١٤٨٧ ، ١١٣٢٥) ، مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٩٠ ، ٥٢١١) ،واللفظ لأحمد . وفي رواية : " لا يدخل الدجال مكة ولا المدينة " ، كنز العمال للمتقي الهندي (رقم : ٣٤٨٥٨) ، مشكاة المصابيح للتبويزي (رقم : ٢٧٤٢)، فتح الباري (٤ : ٩٥) ،احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٢٤٨٥٤) . وفي رواية : " لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان " ، البخاري (كتاب الحج ، رقم : ١٧٤٦ ، ١٧٤٧ ، ٦٦٠٠ – كتاب الفتن ، رقم : ٧١٢٥ ، ٧١٢٦) ، مسلم (كتاب الحج ، رقم : ٢٤٤٩) ، احمد (كتاب أو مسند البصريين ، رقم : ١٩٥٠٦ ، ١٩٥٣٢ ، ١٩٥٤٥ ، ١٩٥٦٥ ، ١٩٥٧٤ – كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة ، رقم : ١٥٠٧ – كتاب مسند المكسرين من الصحابة ، رقم : ٦٩٣٦ ، ٨٠٢٣ ، ٨٥٢١ ، ٨٥٦٢ ، ٩٨٧٥) .

ومع الدجال سبعون ألفا عليهم السّيجان واكثر تبعه من اليهود والنساء ثم يـأتي المصـر الذي يليه فيصير أهله ثلاث فرق فرقة تقول نشامُهُ وننظر ما هو وفرقة تلحق بـالأعراب وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم بغرب الشام ، وينحاز المسلمون إلى عقبة أفيق فيبعثـون سرحا لهم فيصاب سرحهم فيشتد ذلك عليهم وتصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد حتى إن أحدهم ليُحرق وتر قوسه فيأكله" (1)...الحديث .

وهكذا يتفرق المسلمون إلى ثلاث مناطق فرقة انحازت إلى الأعراب في الجبال وفرق في الحير ة لم يرد ذكرها في الحديث ولكن يبدوا أن شانها شـان الفرقـة الأولى حيـث إن الأحاديث قد بينت أن مكة والمدينة هما المدينتان المحميتان من الدجال ، هذا إلى جانب بيت المقدس(2)الذي ينحاز إليه أهل مصر الشام فيحاصرهم فيه الدجال . وبهذا يتضح أن جموع المسلمين قد آلت إلى فرقتين ، فرقة فرت إلى الجبال مع الأعراب ، وهذا ما يؤكده قـول النبي صلى الله عليه وسلم :" ليفرن الناس من الدجال في الجبال ، قالت أم شريك : يـا رسول الله فأين العرب يومئذ ؟ قال هم قليل "(3).

٣-المسيح وعصابته ودجال الوهم:

والفرقة الثانية التي بالشام تحتمي في جبالها ولا يزال الدجال وشيعته بهم حتى يحاصرونهم في بيت المقدس " وتصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد حتى إن أحدهم ليُحرق وتر قوسـه فيأكله" . فهذه الفرقة الصامدة هي خير من في الأرض آنذاك ، هي الامتداد الحقيقي لحزب

---

(١) جزء من حديث سبق تخريجه (انظر هامش ٤ من هذا الفصل).

(٢) ذكر أبو جعفر الطبري من حديث عبد الله بن عمرو إلا الكعبة وبيت المقدس وزاد أبو جعفر وسـجد الطور ، رواه من حديث جنادة بن أبي أمية عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي النـبي صلى الله عليه وسلم . وقال القرطبي : " وفي بعض الرويات فلا يبقى له موضع إلا ويأخذه غـير مكـة والمدينة وبيت المقدس وجبل الطور " .

(٣) مسلم (كتال الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٣٨ ، رواه مسلم عن هارون بـن عبـد الله عـن حجاج بن محمد عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن أم شريك ، وحُدث به من طريـق آخر وهو محمد بن بشار وعبدُ بن حُميد عن أبو العاص عن ابن جريج ، ورجاله كلهم ثقاة) ، احمـد (كتاب من مسند القبائل ، رقم : ٢٦٣٣٧ – كتاب مسند الشامين ، رقـم :١٧٢٢٦) ، الـترمذي (كتاب المناقب ، رقم : ٣٨٦٥ ، وقال : حديث حسن صحيح غريب) .

الله قال صلى الله عليه وسلم : " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من نأوهم حتى يقاتل أخرهم المسيح الدجال " ([1]). وعلى هذه الفرقة يتزل المسيح عليه السلام قال صلى الله عليه وسلم : " لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى ويتزل بن مريم عليه السلام " ([2]).

في ظل حصار الدجال هذا وفي ظل هذه الجماعة لهذا الفريق الطاهر " إذ بعث الله المسيح عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ([*])واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسهُ إلا مات ، ونَفَسهُ ينتهي حيث ينتهي طرْفهُ " ([3]).

٤- عيسى عليه السلام إمام مجدد لا نبيٌ مشرع :

يتزل مقرر لشريعة الإسلام ومجدد لها إذ هي آخر الشرائع ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وآخر الرسل ، يؤكد ذلك عدة أمور هي :

١- إن عيسى عليه السلام أول ما يتزل يخضع لإمارة المسلمين : وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال ، فيتزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم :

(١) أبو داود (كتاب الجهاد ، رقم : ٢١٢٥ ، رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن حماد عن قتادة عن مُطرَّف عن عمران بن حصين ، وكلهم ثقاة) ، احمد (كتاب أول مسند البصريين ، رقم : ١٩٠٧٣) .

(٢) احمد (كتاب أول مسند البصريين ، رقم : ١٩٠٤٩ ، رواه احمد عن بهز عن حماد بن سلمة عن قتادة عن مطرف عن عمران بن حصين وكلهم ثقاة) .

(*) أي ثوبين مصبوغين يميلان إلى الصفرة

(٣) مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٢٨ ، ورجاله كلهم ثقاة) ، الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٦٦) ، أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٦٤) ، احمد (كتاب مسند الشاميين ، رقم : ١٦٩٧١) .

تعال صل بنا فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة "(1).

وإمامة هذا الأمير لا تخلو من أمرين : إما أن تكون دينية وعسكرية مثل إمامة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده ، ففي هذه الحالة سيموت هذا الأمير المسلم ثم يختار المسلمون – الذين تحكمهم الشورى – المسيح عليه السلام ليكون أميرهم . وإما أن تكون إمامة هذا الأمير المسلم هي إمامة دينية فقط ، وفي هذه الحالة تكون له الإمامة الدينية كإمامة أبي بكر رضي الله عنه وللمسيح عليه السلام الإمامة العسكري وفي كل الأحوال سيصبح المسيح فيما بعد هو أمير المسلمين ومؤسس لدولة إسلامية عظيمة .

٢- إنه عليه السلام بعد أن يصبح إماما للمسلمين يحكم في الناس بشريعة الإسلام (القران الكريم وسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم) ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف انتم إذا نزل فيكم ابن مريم فإمامكم منكم ، وفي رواية " فأمكم منكم" قال ابن أبي ذئب : تدري ما إمامكم منكم ؟ قلت تخبرني قال فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم "(2)

٣- إن المسيح عليه السلام يمارس شعائر الإسلام فيحج ويعتمر خلف، قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجا أو يعتمر أو ليثنيهما" (3). وهذا يعني خضوعه لشريعة الإسلام . فإن قيل كيف يحكم المسيح

---

(1) مسلم (كتاب الإيمان ، رقم ٢٢٥ ، رواه مسلم عن الوليد بن شجاع وهارون بن عبد الله وحجاج بن الشاعر عن حجاج وهو ابن محمد عن بن جريج عن ابن الزبير عن جابر بن عبد الله ، وكلهم ثقة) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٤١٣٩ ، ١٤٥٩٥).

(2) مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ٢٢٢ ، رواه مسلم عن حرملة بن يحي عن بن وهب عن يونس عن بن شهاب عن نافع عن ابي هريرة ، وكلكم ثقاة) ، مسلم (كتاب الإيمان ، رقم :٢٢٤) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٨٠٧٧) وفي رواية لمسلم " كيف انتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمكم " مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ٢٢٣).

(3) مسلم (كتاب الإيمان ،رقم : ٢١٩٦ ، رواه مسلم عن سعيد بن منصور وعمرو الناقد وزهير بن حرب عن أبي عيينة عن سعيد عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن حنظلة الاسلمي عن أبي هريرة ، ورواه

بالشريعة وهو لا يعرفها ؟ قلنا يترل وقد علم بأمر الله تعالى في السماء – قبل أن يترل – ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس والعمل به في نفسه([1]).

٥- ظهور الإسلام على الدين كله :

إن الله سبحانه وتعالى يأبى – في ظل هذه المحنة القاسية على المسلمين – إلا أن يظهر الدين الإسلامي على الدين كله ، وان يهزم الكفار على يد عيسى عليه السلام وإخوانه من المسلمين ، ليس هذا فحسب بل إن الله سبحانه لا يرضى أن يزاحم المؤمنين أحد من المشركين فيُظهر دينه على الدين كله ويظهر حزبه على حزب الشيطان . وفي سبيل ذلك يُمَكِن الله حزبه من الانتصار أولا على الدجال وأعوانه من اليهود ، ثم ينهي رسميا مظاهر ديانة ذائقة ظلت تخدع البشرية قرونا طويلة ، ثم ينهي أو يقضي على كافة الملل الأخرى .
قال صلى الله عليه وسلم : " ليس بينه وبيني نبي يعني عيسى وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين ممصرتين (*) كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخترير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة فيصلي عليه المسلمون" ([2]).

(أ) المسيح ودجال اليهود وانتهاء الصراع العسكري : ما أن يترل ابن مريم عليه السلام حتى يتجه إلى الدجال ليقتله فيجده وقد حاصر المسلمين وشد عليهم وأجهدهم في

من طريق ثاني عن قتيبة بن سعيد عن ليث عن ابن شهاب بهذا الإسناد ، ورواه من طريق ثالث عن حرملة بن يحي عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حنظلة بن علي الاسلمي عن ابي هريرة ، وكلهم ثقة) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٧٥٦٢ ، ٦٩٧٤ ، ٧٣٥٦ ، ١٠٢٤٧ ، ١٠٥٥١) واللفظ لأحمد .

(١) القرطبي التذكرة ، ص ٧٦٢ .

(*) أي لابس ثوبين، إزار ورداء ، مصبوغين يميلان إلى الصفرة وهما المهرودتان .

(٢) أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٦٦ . رواه احمد عن هُدبةُ بن خالد همام بن يحي عن قتادة عن عبد الرحمن بن خالد عن أبي هريرة ورجاله كلهم ثقاة).

ذلك جهدا شديدا([1]). قال صلى الله عليه وسلم : " ثم ينزل عيسى بن مريم فينـادي من السحر فيقول يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث فيقولـون هذا رجل جِنّيّ فينطلقون فإذا هم بعيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فتقام الصلاة فيقال له تقدم يا روح الله فيقول ليتقدم إمامكم فليصل بكم فإذا صلى صلاة الصبح خرجوا إليه فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث في الماء فيمشي إليه فيقتله حتى إن الشجر والحجر ينادي يا روح الله هذا يهودي فلا يترك ممن كان يتبعه أحدا إلا قتلـه "([2]). وقال صلى الله عليه وسلم في حديثه : " فإذا رآه عدو الله ذاب كما يـذوب الملح فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته " ([3]). وقال أيضا : " يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدّ "([4]) . وبمقتل الدجال ومن معه مـن يهود وكفار ومنافقين ينتهي والى الأبد حلم اليهود في إقامة دولتهم العالمية ، ويتلاشى أملهم في العودة إلى بيت المقدس .

(ب) المسيح ونصرانية الوهم : لقد تحطمت –كما قلنا من قبل – آلة النصرانية الحربية ، وقد اصبح النصارى على اثر ذلك لا حول لهم ولا قوة { يدفعون الجزية عن يـد وهم صاغرون } راضين بنصرانيتهم الفاسدة ، فعندئذ يتجه المسيح عليه السلام إليهم فيحطم الأغلال التي حالت بينهم وبين الإيمان بالدين الحق كل هذه السنين الطوال ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ، قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسـر

---

(١) انظر في ذلك أيضا : مستدرك الحاكم (٤ : ٥٣) ، وكنز العمال للمتقي الهندي (رقم : ٣٨٨١٩) ، والدر المنثور (٢ : ٢٤٢)

(٢) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٤٤٢٦ ، سبق تخريج ٥ انظر هامش ٢ من هذا الفصل).

(٣) مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥١٥٧ رواه مسلم عن زهير بن حرب عن معلى بـن منصور عن سليمان بن بلال عن سهيل عن لبي هريرة ، وكلهم ثقاة) .

(٤) الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٧٠ ، رواه الترمذي عن قتيبة عن الليث عن ابـن شهاب عن عبد الله بن عبد الله الأنصاري عن عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري عن مجمّع بـن جاريـة الأنصاري ، وكلهم ثقات باستثناء عبد الله بن ثعلبة الأنصاري فهو لا يعرف) ، احمد (كتـاب مسـند الشاميين ، رقم : ١٤٩١٩ ، ١٧٣٠٤ ، ١٩٦٥٩).

الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية" ([1]) ... الحديث . فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل وبذلك ينتهي من التاريخ رسميا ديانة كاذبة طالما أسَرَت بوهمها ملايين البشر حيث استمرت قرونا طويلة . فيحطم عليه السلام أهم رموز النصرانية ألا وهي الصليب والخنزير ، كما انه يرفع الجزية - بأمر الله - ذلك الإطار الشرعي الذي حافظ على بقائهم واستمرارهم أزمنة طوالا آمنين مطمئنين في رحاب الإسلام ودوله.

(ت) المسيح والملل الأخرى : إذا كان المسيح عليه السلام قد أزال - بقدرة الله تعالى - من الوجود ديانتين لعبتا دورا كبيرا في تاريخ البشرية فمن باب أولى أن يزيل الملل الأخرى التي هي نتاج بشريّ لا يمت إلى السماء إلا بصلات ضعيفة ، فيهلك في "زمانه الملل كلها غير الإسلام "([2]) و "تكون الكلمة([*])واحدة فلا يعبد إلا الله" ([3]) .

٦-ووضعت الحرب أوزارها :

بقتال اليهود وقتلهم وبالقضاء على الملة النصرانية وغيرها من الملل الأخرى ينتهي الصراع العسكري إلى الأبد ، وتكون الحرب قد وضعت أوزارها ، قال صلى الله عليه وسلم : "يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى بن مريم إماما مهديا وحكما عدلا فيكسر

---

(١) البخاري (كتاب البيوع ، رقم : ٢٠٧٠ ، رواه البخاري عن قتيبة بن سعيد عن الليث عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبي هريرة ، وكلهم ثقاة) مسلم (كتاب البيوع ، رقم : ٢١٠٩ -كتاب المظالم والغصب ، رقم : ٢٣٤٤ - كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم : ٣٢٦٤) ، مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ٢٢١) ، الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٥٩) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٦٨) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٧٣٥٤ ، ٧٥٦٢ ، ٨٧٥٢ ، ٩٨٧١ ، ١٠٠٠١ ، ١٠٥٢٢) ، مشكل الآثار للطحاوي (١ : ٢٨) ، الشريعة للاجري (رقم : ٣٨٠) .

(٢) جزء من حديث أبو داود السلف الذكر رقم : ٣٧٦٦ (انظر هامش رقم : ٢٦ من هذا الفصل) .

(*) وفي رواية "وتكون الدعوة واحدة " ورواه احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٨٧٥٨) .

(٣) الدر المنثور (٢ : ٢٤٥). وفي رواية لأحمد : " يوشك المسيح بن مريم أن ينزل حكما قسطا وإماما عدلا فيقتل الخنزير ويكسر الصليب وتكون الدعوة واحدة " ... رواه احمد عن كثير بن زيد عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة ،كلهم ثقاة) .

الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتضع الحرب أوزارها" ([1]). قال المفسرون في تفسير قوله عز وجل { حتى تضع الحرب أوزارها }[محمد / ٤] ، قال مجاهد حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكأنه آخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل أخرهم الدجال" ... وقال قتادة { حتى تضع الحرب أوزارها } حتى لا يبقى شرك ... ثم قال بعضهم { حتى تضع الحرب أوزارها} أي أوزار المحاربين وهم المشركون بان يتوبوا إلى الله عز وجل([2]). وهذا كله ولاشك – كما بينا – سيتحقق في عهد المسيح عليه السلام .

٧- المسيح عليه السلام ويأجوج مأجوج :

لا يكاد المسيح – عليه السلام – وإخوانه من المسلمين ينتهوا من قتال الدجال ، ويعود الناس إلى ديارهم وأوطانهم حتى يتعرضون لفتنة أخرى شديدة القسوة وهي خروج يأجوج ومأجوج([3]). قال صلى الله عليه وسلم : "ثم أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج { وهم من كل حدب ينسلون} فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر أخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحْصرُ نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغَفَ في رقابهم فيصبيهم فرسى كموت نفسٍ واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبرا إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأنه البُخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدرا ولا وبرا فيغسل الأرض فيتركها كالزَّلَفَة ، ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك الله في الرِّسْل

---

(١) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٨٩٥٥ ، رواه احمد عن محمد بن جعفر عن هشام بن حسان عن محمد عن أبي هريرة ، ورجاله كلهم ثقاة) .

(٢)ابن كثير : التفسير ، المجلد الرابع ، ص ١٧٣ .

(٣) يأجوج ومأجوج طائفتان من الترك من ذرية آدم عليه السلام [ابن كثير : النهاية في الفتن والملاحم ، ص ٢٠٠] . ظهرتا في زمن أحد أنبياء الله وهو ذو القرنين .

حتى أن اللقحة من الإبل لتلقي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من النـاس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس" (١).

أما باقية المسلمين فينحازون إلى مدنهم وحصونهم ، قال صلى الله عليه وسلم :" حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم حتى انهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون منه شيئا فيمر أخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كـان بهـذا المكان مرة ماء ويظهرون على الأرض فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنـا منـهم ولننازلن أهل السماء حتى أن أحدهم ليهز حربته إلى السماء فترجع مخضّبة بالدم فيقولـون قد قتلنا أهل السماء فبينما هم كذلك إذ بعث الله دواب كنغف الجراد فتأخذ بأعناقـهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضا فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسا فيقولون من رجل يشري نفسه وينظر ما فعلوا فينزل منهم رجل قد وطن نفسه علـى أن يقتلـوه فيجدهم موتى فيناديهم إلا ابشروا فقد هلك عدوكم فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رعي إلا لحومهم فتشكر عليها كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط(٢).

وهكذا نجد أن اختلاف أحوال المسلمين وبلداتهم يؤدي إلى اختلاف تصوير الحادثـة بالنسبة لكل فريق كما وضحت النصوص الشريفة . وبهذا يأذن الله سبحانه وتعالى برفـع هذه الفتنة وإعادة الأمن والسلام إلى الأرض .

٨- دولة عدل وسلام ورخاء:

بعد القضاء على هذه الفتن القاسية يحكم المسيح عليه السلام في الناس بكتاب ربهـم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم فيكون بذلك حكما عدلا وإماما مقسطا ، فيرفع إيمـان الناس بربهم فيتطابقوا مع فطرهم الخيرة وينال الله سبحانه منهم التقوى فينزل عليهم بركاته ورزقه كما قال تعالى { ولو أن أهل القرى أمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السـماء

---

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٢٨) ، الـترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٦٦) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقـم : ٤٠٦٥) ، احمـد (كتاب مسند الشاميين ، رقم : ١٦٩٧١) . السلسلة الصحيحة للألباني (رقم : ٢١٣٧) .

(٢) ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٦٦٩ ، كل رجاله ثقاة) ، احمد (باقي مسند المكثرين ،رقـم : ١١٣٠٦) .

والأرض }[الأعراف / ٩٦] . ويؤكد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد " (١). هذا في الدنيا وأما في الآخرة فيكرمهم الله بالجنة قال صلى الله عليه وسلم : " عصابتان من أمتي أحرزهم الله من النار عصابة تغزو الهند وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليه السلام " (٢).

ومن مظاهر رخاء هذه الدولة وسعادة أهلها انتشار العدل والأمن والآمان والسلام وهدوء النفوس وسكونها ، وزهد الناس في المال الذي يتوافر بكميات كبيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليكونن عيسى بن مريم في أمتي حكما عدلا وإماما مقسطا يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة ، فلا يسعى على شاة ولا بعير ، وترفع الشحناء وترفع حُمة كل ذي حُمة حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره وتفرّ الوليدة الأسد فلا تضرها ، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها ، وتكون الأرض كعاثور الفضة تنبت نباتها بعهد آدم ، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، ويكون الثور بكذا وكذا من المال وتكون الفرس بالدريهمات ، قيل يا رسول الله وما يرخص الفرس ؟ قال لا تركب الحرب أبدا . فقيل يا رسول الله وما يغلي الثور ؟ قال تُحرث الأرض

---

(١) البخاري (كتاب البيوع ، رقم : ٢١٠٩ - كتاب المظالم ، رقم : ٢٣٤٤ _ كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم : ٣٢٦٤) ، مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ٢٢٠) ، الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٥٩) ، أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٦٦) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٦٨) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٧٥٦٢ ، ٨٧٥٨ ، ١٠٠١ ، ١٠٥٢٢) .

(٢) احمد (كتاب مسند الأنصار ، رقم : ٢١٣٦٢ ، رواه احمد عن أبي نصر عن بقية عن عبد الله بن سالم وأبي بكر بن الوليد الزُبيدي عن محمد بن الوليد الزبيدي عن لقمات بن عامر الو صابي عن عبد الله الاعى بن عدىّ البهراني عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم ثقاة إلا أبا بكر بن الوليد الزوبيدي فمجهول الحال) ، النسائي (كتاب الجهاد ، رقم : ٣١٢٤) .

(٤١) الدر المنثور (٢ :٢٤٥).

كلها" (1) ... الحديث . وقال أيضا : "ينزل ابن مريم إماما عادلا وحكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويرجع السلم ، ويتخذ السيوف مناجل ، ويذهب جُمة كل ذي جُمة ، وينزل من السماء رزقها ، وتخرج من الأرض بركاتها ، حتى يلعب الصبي بالثعبان ولا يضره ، وترعى الغنم والذئب ولا يضرها ، ويرعى الأسد والبقر ولا يضرها" (2).

٩- بعد المسيح (عودة الصراع إلى دائرة النفس) :

يمكث المسيح عليه السلام في الأرض – على الأرجح – سبع سنوات ثم يموت ، قال صلى الله عليه وسلم : "يبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه – أي الدجال –فيهلكه ثم يمكث الناس سبع ليس بين اثنين عداوة" (3). ورغم أن حزب الشيطان قد أزيل من دنيانا رسميا على يد المسيح عليه السلام وإخوانه ، فإن الشيطان مازال له مدخل إلى الناس عن طريق" النفس الأمارة بالسوء" ، ولن يرضيه بالطبع سعادة بني آدم.

---

(1) الدر المنثور (٢ :٢٤٥).

(2) (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٩٨٧١ ، رواه احمد عن سريج عن فليح عن الحارث بن فضيل الأنصاري عن زياد بن سعد ، رجاله ثقاة باستثناء "زياد بن سعد فمقبول الرتبة)

(3) جزء من حديث رواه مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم : ٥٢٣٣ ، رواه مسلم عن عبيد الله بن معاذ العنبري عن أبيه عن شعبة عن النعمان بن سالم عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي عن عبيد الله بن عمرو ، وكلهم ثقاة) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٢٦٨)

الباب السابع

[عصـر الظلام الأخير]

الفصل الأول : عصر الجاهلية الأخيرة .

الفصل الثاني : عصر التغيير الكوني (التمايز الحقيقي بين الحزبين) .



الفصل الأول

[عصر الجاهلية الأخيرة]

لا يزال الشيطان بالمسلمين يتربص بهم حتى يوقعهم في شراكه ، فيتلاعب بنفوسهم حتى ينسي الكثير منهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ويهبط بهم من مستوى فطرتهم الخيرة إلى حيوانية قبيحة ، وبهذا يتخذ لنفسه – مرة أخرى – من البشر نصيبا ، ويتصدى لهم اتباع الحق – على قلتهم – فيدعونهم إلى الحق باللسان لا بالسيف لأن الحرب قد وضعت أوزارها . ولا يزال الباطل يستشري حتى تظهر ملامح الجاهلية الأخيرة ، تلك الملامح التي سوف تؤدي إلى رفع آخر المبادئ التي تحكم حياة الناس ألا وهو المبدأ الإسلامي ، قال صلى الله عليه وسلم :" لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريعته من أهل الأرض ، فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً "(1) .. وهذا ما سوف يحدث على النحو الآتي :

أولا : رفع المبدأ الإسلامي :

1- تغافل الناس عن معاني الإسلام والوقوف عند حروفه ، قال ابن لبيد الأنصاري : " ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقال : وذاك عند أوان ذهاب العلم ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبنائنا ويقرئه أبنائنا أبناءهم إلى يوم القيامة قال : ثكلتك أمك يا أبن أم لبيد : إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوارة والإنجيل لا ينتفعون مما فيها بشيء "(2).

2- رفع العلوم التي تدور حول الإسلام : قال صلى الله عليه وسلم :" يا أبا هريرة تعلموا الفرائض وعلوها للناس فإنه نصف العلم وهو ينسى وهو أول شئ ينزع من أمتي" (3).

---

(1) احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٦٧٠) ، مستدرك الحاكم (٤ : ٤٣٥) ، مجمع الزوائد للهيثمي (٨ : ١٢ ، ١٣) ، الدر المنثور (٦ : ٥٥) .

(2) احمد (كتاب مسند الشاميين ، رقم : ١٦٨٢٨ ، ١٧٢٤١) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٣٨) .

(3)ابن ماجه (كتاب الفرائض ، رقم : ١٧١٠) ، الترمذي (كتاب الفرائض عن رسول الله ، رقم : ٢٠١٧) ، فتح الباري (٥ : ١٢) ، تاريخ بغداد (١٢ : ٩٠) ، رواء العليل للألباني (٦ : ١٠٤)

٣- رفع حروف القرآن : قال صلى الله عليه وسلم : " يدرس[١] الإسلام كما يدرس وشي[٢] الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة وليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها ، فقال له صلة ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة " [٣].

وهكذا يرفع الإسلام من الأرض ويسرى عليه النسيان حتى لا يجد الناس من يستطيع أن يصلى بهم إماماً قال صلى الله عليه وسلم : " إن من أشراط الساعة أن يتدافع الناس إلى المسجد لا يجدون إماماً يصلى بهم " [٤].

ونزع العلم لا يتم دفعة واحدة بل بالتدريج : قال صلى الله عليه وسلم : " إن من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل " [٥]. وقلة العلم وظهور الجهل يؤكدان هذا التدريج ، هذا إلى جانب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينزع العلم بعد أن

---

(١) يدرس : يعفو ويذهب أثره . .

(٢) وشي الثوب : أعلام تزينه .

(٣) ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٣٩) ، مستدرك الحاكم (٤ : ٤٧٣ ، ٤٥٤) ، كنز العمال للمتقي الهندي (٣٨٤٤٤) ، فتح الباري (١٦ ، ٨٥) ، الدر المنثور (٤ : ٢٠١) ، تفسير القرطبي (١٠ : ٣٢٦) ، زاد المسيرة (٥ : ٨٤) ، السلسلة الصحيحة للألباني (٨٧) .

(٤) أبو داود (كتاب الصلاة ، رقم : ٤٩٣) ، ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة ، رقم : ٩٧٢) ورجاله عند ابن ماجه ثقاة غير أن فيه أم غراب وأمرأة يقال لها عقيلة لا يعرف حالهنا ، احمد (باقي مسند المكثرين ، رقم : ٢٥٨٨٦) ، السنن الكبرى للبيهقي (٣ : ١٢٩) ، مشكاة المصابيح (١١٢٤) .

(٥)البخاري (كتاب النكاح ، رقم : ٤٨٣٠ ، ٦٣١٠ - كتاب العلم ، رقم :٨٠ ، ٨١ - كتاب الأشربة ، رقم : ٥٥٧٧ - كتاب الحدود ، رقم : ٦٨٠٨) ، مسلم (كتاب العلم ، ٤٨٢٤ ، ٤٨٢٥) ، الترمذي (كتاب الفتن ، رقم : ٢١٣١) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٣٥) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ١١٥٠٦، ١٢٠٦٩ ، ١٢٣٤٢ ، ١٢٦٢٢ ، ١٢٧٥٣ ، ١٣٣٧٧ ، ١٣٥٦٤) ، فتح الباري (١ : ١٧٨) .

اعطاكموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون فيضلون ويضلون" ([1]).

ثانياً: طمس الفطرة :

إن الفطرة وحدها لا تصلح في استقامة الإنسان ، إذ لابد - كما وضحنا في الباب الأول - من وجود المبدأ أو الرسالة ، وحيث رفع المبدأ الإسلامي الذي هو وسيلة للحفاظ على نقاء الفطرة فلا بد من طمس هذه الفطرة ، وذلك على النحو التالي :

١- رفع الخشوع : قال صلى الله عليه وسلم : "أول علم يرفع من الناس الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى رجلا خاشعا" ([2]).

٢- رفع الأمانة والإيمان : عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر ، حدثنا : "أن الأمانة نزلت في جذور الرجال([3])ثم علموا القرآن ثم علموا السنة ، وحدثنا عن رفعها قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت([4])ثم ينام النومة فتقبض الأمانة فيبقى أثرها مثل المجل ([5])كجمر دحرجته على رجلك فنفط([6])فتراه منتبرا([7])وليس فيه شيء ، فيصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، فيقال إن في بني فلان رجلا أمينا ويقال للرجل ما

---

(١) البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب ، رقم : ٣٠٧ - كتاب العلم ، رقم : ٩٨) ، مسلم (كتاب العلم ، رقم : ٤٨٢٨) ، الترمذي (كتاب العلم عن رسول الله ، رقم : ٢٥٧٦) ، ابن ماجه (كتاب المقدمة ، رقم : ٥١) ، احمد (مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٢٢٢ ، ٦٤٩٨ ، ٦٦٠٢) ، الدرامي (كتاب المقدمة ، رقم : ٢٤١) .

(٢) الترمذي (كتاب العلم عن رسول الله ، رقم : ٢٥٧٧) ورجاله كلهم ثقاة ، قال القرطبي في التذكرة ، ص ٧٣٧ (هو حديث حسن) .

(٣) قال ابن ماجه : قال الطنافسي يعني وسط قلوب الرجال .

(٤) الوكت : الثر اليسير .

(٥) هو النفخ الذي يرتفع من جلد باطن اليد عند العمل بفأس أو نحوه على ماء ثم يصلب ويبقى .

(٦)أي ارتفع جلدها وانتفخ .

(٧) منتبرا : أي منتفخا .

أظرفه وما اجلده وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى عليَّ زمان ومـــا أبالي آيكم بايعت لئن كان مسلما رده على الإسلام وإن كان نصرانيا رده على ساعيه فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانا وفلانا " (1).

ثالثا : طمس المعالم الأرضية :

إن جهل الناس بمبدئهم الذي اختفى ولم يعد له معالم في النفس الإنسانية حيث طمست الفطرة بارتفاع الخشوع والإيمان والأمانة منها ، إن جهل الناس بذلك لا يجعل لعلامـــات المبدأ الإسلامي الأرضية قيمة ولا مكان لديهم ... وعند ذلك قمل المساجد وتخرب بمـد في ذلك أهم معلم من معالم المبدأ الإسلامي الأرضية وهو المسجد الحرام ، قال صلى الله عليـه وسلم : " يُخرب الكعبة ذو السويقتين(2)من الحبشة " (3) وفي رواية لأحمد : " فيخربونـــه خرابا لا يعمر بعده أبدا " (4) وقال صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى لا يحـــج البيت " (5).

وهكذا يختفي المبدأ الإسلامي وتختفي كل معالمه النفسية والمكانية والعقلية ، وتســيطر على البشرية جاهلية جهلاء ، حيث لا يبقى في هذه الجاهلية الطاغية إلا قلة مؤمنة في كثرة ضالة ماجنة ، وعندئذ تختلط الأمور على الناس فلا يميزون بين حق وباطل ولا بين صـــادق وكاذب ... وعندئذ تظهر الكثير من الآفات والتي منها على سبيل المثال :

---

(1) البخاري (كتاب الرقاق ، رقم :: ٦٠١٦) ، الترمذي ، كتاب الفتن عن رســـول الله ، رقـــم : ٢١٠٥) ، ابن ماجه (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٤٠٤٣) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٢٢١٧١) .

(2) السويقة : تصغير الساق .

(3) البخاري (كتاب الحج ، رقم : ١٤٨٨ ، ١٤٩٣) ، مسلم (كتاب الفتن واشراط الساعة ، رقم : ٥١٧٩ ، ٥١٨٠ ، ٥١٨١) ، النسائي (كتاب مناسك الحج ، رقم : ٢٨٥٥) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٧٥٦ ، ٧٧٤٧ ، ٨٠٠١ ، ٩٠٣٦) ، مجمع الزوائد للـــهيثمي (٣ : ٢٩٨) ، وقال ابن كثير فكتابه النهاية في الفتن والملاحم ، ص ٢٠٤ (إسناده جيد قوي) .

(4) احمد (باقي مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٨٠٠١) .

(5) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم :) ، البخاري (٢ : ١٨٣) ، مستدرك الحـــاكم (٤ : ٤٥٣) ، الدر المنثور (٦ : ٥٦) ، كنز العمال (٣٨٤٨٨) ، فتح الباري (١٣ : ٧٨) .

١-صيرورة الدنيا إلى اللؤم : قال صلى الله عليه وسلم : "لن تذهب الدنيا حتى تصير لكع(١)بن لكع" (٢). والمراد بصيرورة الدنيا إلى اللؤم صيرورة أهلها الموجودين فيها ومن قبلهم آباؤهم : أي يتعاقب جيلان على الأقل من أجيال الأمة على رداءة الطبع وانحراف السلوك . فأهل الدنيا في تلك الأثناء هم السفهاء واللئام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :"لا تذهب الدنيا حتى تصير للكع بن لكع" (٣).

٢- اختلاط الحق بالباطل : قال صلى الله عليه وسلم : "قبل الساعة سنون خدّاعة يكذّب فيها الصادق ويصدّق فيها الكاذب ، ويخوّن فيها الآمين ، ويؤتمن فيها الخائن ، وينطق فيها الرويبضة ، قيل وما الرويبضة ؟ قال : الفويسق يتكلم في أمر العامة" (٤).

٣-إسناد الأمر إلى غير أهله : قال صلى الله عليه وسلم :"لا تقوم الساعة حتى تسود كل قبيلة أراذلها" (٥). "وقيل : يا رسول الله متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم ، قلنا يا رسول الله : وما ظهر في الأمم قبلنا قال الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم" قال زيد تفسير معنى إذا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم والعلم في رذالتكم العلم في الفساق (٦).

٤-إهدار آدمية الإنسان : قال صلى الله عليه وسلم :" إن من اشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ، ويكثر الزنى ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال ، ويكثر النساء

---

(١) اللكع : اللئيم .

(٢) احمد (مسند المكيين ، رقم ١٥٢٧٧) .

(٣) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ٧٩٧٠ ، ٧٩٧٢ ، ٨٣٤٣ - كتاب مسند المكيين ، رقم : ١٥٢٧١ - كتاب باقي مسند الأنصار ، رقم : ٢٢٢١٤) ورجاله كلهم ثقاة ، الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٣٥) .

(٤) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٢٨٢٠ ، ١٢٨٢٢) ورجاله كلهم ثقاة .

(٥) ابن ماجه (كتاب الفتن) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين) ،فتح الباري (١٣ : ٨٤) ، مجمع الزوائد للهيثمي (٧ : ٣٢٧) .

(٦) ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٠٥) ورجاله كلهم ثقاة ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١٢٤٧٥) .

حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد([1]). وقال أيضا : " لا تقوم الساعة حتى يتسافد الناس تسافد البهائم " ([2]). وقد وقع مثل هذا في زماننا هذا ولكنه يأخذ سمة العموم في الجاهلية الأخيرة

هذا بالإضافة إلى آفات أخرى مثل : نقص المكيال ، ومنع الزكاة ، وعقوق الوالدين ، وشرب الخمر ، ولبس الحرير ، واتخاذ القينات (المغنيات) والمعازف ، واكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء ... الخ ، وهذه أمور ظهرت - كما قلنا - في عصرنا هذا ، غير أنها في هذه الجاهلية الأخيرة تسود وتطغى وتعم .

وعندئذ لا يبالي الله بهم فتكثر الصواعق ويشتد وقوع المطر ، إلى جانب كثر الزلازل - التي ذكرنا جانبا منها فيما سبق - قال صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطرا لا تكن منه بيوت المدر(*) ولا تكن منه إلا بيوت الشعر(**) " ([3]).وقال أيضا : " لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطرا عاما ولا تنبت الأرض شيئا " ([4]). وقال أيضا : " تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتي الرجل القوم فيقول من صعك تلكما الغداة ؟ فيقولون : صعق فلان وفلان "([5]).

---

(١) البخاري (كتاب النكاح ، رقم : ٤٨٣٠ - كتاب العلم ، رقم ٨٠ ، ٨١ - كتاب الاشربة ، رقم : ٥٥٧٧ ، كتاب الحدود ، رقم : ٦٨٠٨) ، مسلم (كتاب العلم ، رقم ٤٨٢٤ ، ٤٨٢٥) ، الترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ، رقم : ٢١٣١) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٣٥) ، احمد (باقي مسند المكثرين ، رقم : ١١٥٠٠٠٦ ، ١١٥٠٦ ، ١١٧٤٦٤ ، ١٢٠٦٩ ، ١٢٣٤٢ ، ١٢٦٢٢ ، ١٢٧٥٣ ، ١٣٣٧٧ ، ١٣٤٣٦ ، ١٣٥٦٤) .

(٢) مستدرك الحاكم (٤ : مصنف ابن أبي شيبة (١٥ : ٦٤) ، كنز العمال (٣٨٥٨٥) ، السلسلة الصحيحة للألباني (٤٨١) .

(*) إي بيوت القرى المنية من الطين .

(**) أي البيوت المبنية من الشجر .

(٣) احمد (باقي مسند المكثرين ، رقم : ٧٢٤٨) ، مجمع الزوائد للهيثمي (٧ : ٣٣١ ، وقال رواه احمد ورجاله رجال الصحيح)

(٤) احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقم : ١١٩٧٩) ورجاله كلهم ثقاة .

(٥) احمد (مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ١١١٤٩) ورجاله كلهم ثقاة وفيهم عمارة لا بأس به.

وعلى هذا ينتهي حال البشرية إلى كثرة فاسدة فاسقة في جاهلية جهلاء يسودها النفاق وقلة مؤمنة تحافظ على دينها ما استطاعت في وسط الأمواج العاتية لهذه الجاهلية الخبيثة ، وبهذا يتحقق قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ " (1).

---

(1) الترمذي (كتاب الإيمان عن رسول الله ، رقم : ٢٥٥٣) ، ابن ماجه الفتن ، رقم : ٣٩٧٨) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٣٥٩٦) ، الدرامي (كتاب الرقاق ، رقم : ٢٦٣٧) ، قال العجلوني في كتابه كشف الخفاء ، جـ ١ ، ص ٣٣٣ (الحديث مشهور أو متواتر)

الفصل الثاني

[عصــر التغييــر الكـــــوني]

(التمايز الحقيقي بين البشر)

يعد هذا العصر فريد نوعه بين العصور المختلفة للتاريخ لأنه بينما نجد أن باب الانتقال بين الحق والباطل مفتوحاً في هذه العصور نجد أن باب الإيمان قد أغلق في هذا العصـــــر ، وبذلك يتمايز الحزبان (حزب الله وحزب الشيطان) تمايزاً حقيقياً وظاهرياً بعد أن كان – فيما قبل – تمايزاً ظاهرياً فقط ، ومعنى ذلك أننا أمام عصر انتهت فيه وزالت من الوجـــود طبقة أو فئة لعبت دوراً كبيراً في حركة التاريخ ألا وهي طبقة المنافقين . ويتمثل هذا العصر في حدثين كبيرين هما :

أولا "خروج الشمس من مغربها وغلق باب الإيمان"

تعد هذه العلامة بداية التغيير الذي يحدثه الله على نظام الكون في الحياة الدنيا إيذانـــاً بقرب وقوع الساعة ، الذي يكون معه تغيير شامل لنظام الكون كما ذكره الله ســـبحانه وتعالى في كثير من سور القرآن الكريم ، فأول هذا التغيير كما ورد من الأحاديث طلـــوع الشمس من المغرب على خلاف ما نعده من طلوعها من المشرق ، والذي أطلعـــها مـــن المشرق قادر على تغيير مسارها فهو خالقها ومدبر أمرها[1]. روى عبد الله بن عمر بـــن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما كـــانت قبـــل صاحبتـــها والأخرى على أثرها قريباً "[2].

فإذا ما خرجت الشمس من مغربها اغلق باب التوبة قال صلى الله عليه وســـلم : "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين { لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا } "[3].

---

(١) د / محمد نعيم يس : الإيمان ، ص ٥٦ . هذا وقد أثبت العلم المعاصر هذا الأمر وبات ينظر إليه اليوم على أنه حقيقة علمية .

(٢) مسلم (كتاب الفتن وأشرط الساعة ، رقم : ٥٢٣٤) ، أبو داود (كتاب الملاحم ، رقم : ٣٧٥٦) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٥٩) احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٦٥٨٦)

(٣) البخاري (كتاب الرقاق ، رقم : ٦٠٢٥ – كتاب تفسير القران عن رسول الله ، رقـــم : ٤٦٣٥ ، ٤٦٣٦ – كتاب الفتن ، رقم : ٧١٢١) ، مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ٢٢٦).

ثانيا "خروج دابة الأرض من الأرض (التمايز الحقيقي والظاهرية بين الحق والباطل) :

فإذا ما خرجت الشمس من مغربها أعقبها خروج دابة من الأرض تكلم الناس وتتعرف على المؤمن وعلى الكافر ، وإذا كان الناس لا يعهدون تكلم الدواب فإن الخالق القادر يمكنها من ذلك فيفهم عليها الناس ويعلمون أنها الخارقة المنبئة بقيام الساعة أو اقترابها وقد كانوا من قبل لا يؤمنون بآيات الله ولا يصدقون بيوم القيامة([1]). قال تعالى: {وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون}[النمل/٨٢].

وإذا كان خروج الشمس من مغربها يغلق باب التوبة ، فإن الدابة تميز وتفرق المؤمن من الكافر. خرج ابن ماجة عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان بن داود وعصا موسى بن عمران عليهما السلام ، فتجلوا وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم حتى أن أهل الحواء الواحد ليجتمعون فيقول : هذا يا مؤمن ويقول : هذا يا كافر " ([2]). وبخروج الشمس من المغرب ، والدابة من الأرض يتمايز الحزبان تمايزاً حقيقياً ، ويختفي من التاريخ طبقة المنافقين التي لعبت دوراً خطيراً في حركة التاريخ .

وبغلق باب الإيمان تتوقف الدعوة إلى الله ، فلا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر حيث لا انتقال من كفر إلى إيمان ولا من إيمان إلى كفر " . قيل يا رسول الله متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المكر ؟ قال إذا ظهر فيكم مثل ما ظهر في الأمم من قبلكم ، قلنا يا

---

(١) سيد قطب : في ظلال القران ، مجلد ٦ ، ص ٣٠٨ .

(٢) احمد (باقي مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٧٥٩٦) ، الترمذي (كتاب تفسير القران عن رسول الله ، رقم :٣١١١ ، وقال : حديث حسن) ، ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٥٦) ، زاد المسير لابن الجوزي (٦ : ١٩٢) ، كنز العمال للمتقي الهندي (٣٨٨٧٨) .

رسول الله : وما ظهر في الأمم من قبلنا ؟ قال : الملك في صغاركم والفاحشة في كبـــاركم والعلم في رذالتكم "(١).

وإذا ما توقفت الدعوة إلى الله لم يعد هناك حاجة إلى وجود الأخيار فيرسل الله سبحانه ريحا طيبة تتوفاهم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار الناس الذين ينسون ذكر الله ويرجعون إلى دين آبائهم حيث يعبدون الأصنام ، قال صلى الله عليه وسلم :" لا تقوم الســـاعة إلا على شرار الناس "(٢) ، وفي رواية لأحمد :" لا تقوم الساعة إلا على حثالة النــــاس "(٣)، وقال :" لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله "(٤) ، وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها :" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقلت يا رسول الله إن كنت لأظن حين انزل الله :{ هو الـــذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون } [التوبة / ٣٣] . أن ذلك تاما ، قال : انه سيكون من ذلك إلى ما شاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة فتتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خـــير فيـــه فـــيرجعون إلى ديـــن آباءهم"(٥).

وبالقضاء على القلة المؤمنة وانتزاع أروحها وبقاء حزب الشر وحده ينتهي الصـــراع التاريخي بين الحق والباطل من الحياة ، ويكون التاريخ البشري قد اكتملت حلقاته ووصـــل

---

(١) ابن ماجه (كتاب الفتن ، رقم : ٤٠٠٥ ، ورجاله كلهم ثقاة) ، احمد (باقي مسند المكثرين ، رقـــم ١٢٤٧٥) .

(٢) مسلم (كتاب الفتن ن رقم : ٥٢٤٣) ، احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ٣٩٣٠ ، ٣٩٢٩ ، ٤١١٣ ، ٣٥٤٨) ،

(٣) احمد (كتاب مسند المكثرين من الصحابة ، رقم : ١٥٤٩١) .

(٤) مسلم (كتاب الإيمان ، رقم : ٢١١ ، ٢١٢) ، الترمذي (كتاب الفتن عن رســـول الله ، رقـــم : ٢١٣٣) ، احمد (كتاب باقي مسند المكثرين ، رقـــم : ١٢١٩٩ ، ١٢٦٠٩ ، ١٣٢٣٢ ، ١٣٣٣١) ، النسائي (٣٥ : ٢٢٠٧) ، مشكاة المصابيح للتبريزي (٥٥١٦) ، شرح الســـنة للبغـــوي (١٥ : ٨٩) .

(٥) مسلم (كتاب الفتن ، رقم : ٥١٧٤) ، فتح الباري (١٣ ٨٥) .

إلى نهايته وحقق غايته ، وعندئذ تبدأ أحداث اليوم الآخر ، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهـــل النار النار .

والخير كل الخير في الجنة والشر كل الشر في النار

نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار

انه نعم المولى

ونعم النصير

**

*

*

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- كتب السنن .

٣- أبو خليل (شوقي) : " عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي " ، ط ٢ ، دار الفكر بدمشق ، سنة ١٩٧٠م .

٤- أبو زهرة (الشيخ محمد) : "محاضرات في النصرانية " ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة ١٩٦١م .

٥- ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفداء ت ٧٧٤هـ) : " تفسير القرآن العظيم " ، مكتبة التراث القاهرة ، د . ت .

٦- ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفداء ت ٧٧٤هـ) : " النهاية في الفتن والملاحم " .

٧- الإيجي (عبد الرحمن بن احمد ت ٥٦٥هـ) : " المواقف في علم الكلام " ، مكتبة المتنبي ، القاهرة د .ت .

٨- ألبنا(الإمام حسن عبد الرحمن اغتيل ١٩٤٩م) : " مجموعة رسائل الإمام الشهيد " ، اكثر من طبعة .

٩- التوبة (غازي) : " الفكر الإسلامي المعاصر "،ط ٣ ، دار القلم بيروت ، د . ت

١٠- الجرجاني (السيد الشريف على بن محمد ت ٨١٦هـ) : " التعريفات " ، دار الرشاد ، القاهرة ، د . ت .

١١- الجُميْلي (دكتور سيد) : " العشرة المبشرون بالجنة " ، طبعة الريان الثانية ، نشر دار الكتاب العربي ، القاهرة ، سنة ١٩٨٨م .

١٢- الجندي (أنور) : " إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام " ، دار الاعتصام القاهرة ، د . ت .

١٣- الرازي (محمد بن أبي بكر) : " مختصر الصحاح " ، دار بن كثير ، بيروت لبنـان ، د . ت .

١٤- الشناوي (دكتور عبد العزيز محمد) : " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفـترى عليها " ، مطبعة الانجلو المصرية ، سنة ١٩٧٨م .

١٥- الشهرستاني (عبد الكريم ت ٥٤٨هـ) : " الملل والنحل " ، تحقيق محمد سـيد كيلاني ، دار صعب بيروت لبنان ، سنة ١٩٨٦م .

١٦- العالم (جلال) : " قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله " ، ط المختار الإسلامي ، القاهرة ، د . ت .

١٧- العجلوني (إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ت ١١٦٢هـ) : " كشـف الخفاء ومُزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس " ، تحقيق احمد القلاش ، دار التراث القاهرة ، د . ت .

١٨- العدوي (دكتور احمد إبراهيم) : " تاريخ العالم الإسلامي " جـ ١ ، عصر البناء والانطلاق ، طبعة معهد الدراسات الإسلامية ، د . ت .

١٩- الغضبان (محمد منير) : " المسيرة الإسلامية للتاريخ " ،طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، د . ت .

٢٠- الفاطمي (المعز لدين الله) : " تأويل الشريعة وحقائقها وممثلاتهـا " ، مخطـوط مصور بدار الكتب المصرية على ميكروفيلم رقم (٢١٢٠) عن اصل بمكتبـة الجامع الكبير بصنعاء (١٣٠) علم كلام .

٢١- القرضاوي (دكتور يوسف) : " المبشرات بانتصار الإسلام " ، مجموعة مقالات بجريدة الشعب ، الأعداد الصادرة بتاريخ : ٢ ، ٦ ، ٩ ، ١٣ ، ١٦ فـبراير ، سنة ١٩٩٦م .

٢٢- القرطبي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن احمد ت ٦٧١هـ) : " التذكـرة في أحوال الموتى والآخرة " ، ط ٣ ، دار الريان للتراث القاهرة ، سنة ١٩٩١م .

٢٣- المؤتمر العام لجماعة أنصار : " العدد ٢٠ " .

٢٤- المجلس الإسلامي الأوربي : " الإسلام دعوة التحرير " ، طبعة الزهراء للأعلام العربي ، القاهرة سنة ١٩٨٧م .

٢٥- المودودي (أبو الأعلى) : " الإيمان بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر " ، دار الخلافة ، د . ت .

٢٦- أمين (دكتور صادق) : " الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية " ، دار التوزيع النشر الإسلامية " ، القاهرة ، د . ت .

٢٧- بهجت (احمد) : " عولمة الفوضى " مقالة بالأهرام المصرية ، بتاريخ ١٢ / ٩ / ١٩٩٨م .

٢٨- بيلت (جان ماري) : " عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة " ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم (١٨٩) ، الكويت سنة ١٩٩٤م .

٢٩- جابر (حسين بن محسن بن علي) : " الطريق إلى جماعة المسلمين " ، ط ٣ ، دار الوفاء بالمنصورة ، سنة ١٩٨٩م .

٣٠- حرب (دكتور محمد) : " العثمانيون في التاريخ والحضارة " ، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي ، سنة ١٩٩٤م .

٣١- سميت (ولفرد كانتويل) : " الإسلام في التاريخ الحديث " ، سلسلة كتب سياسية ، الكتاب رقم (١٦٣) .

٣٢- شاكر (محمود) : " التاريخ الإسلامي " ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٩٨٥م .

٣٣- شركة البرامج الإسلامية الدولية : " موسوعة الحديث الشريف " ، الإصدار الثاني عام ٢٠٠٠م .

٣٤- صبحي (دكتور احمد محمود) : " الزبدية " ، ط ٢ ، الزهراء للأعلام العربي ، القاهرة سنة ١٩٨٤م .

فهرس الموضوعات

الباب الرابع

[مرحلة الحكم الوراثي]

الباب الخامس

[ما بعد انهيار الخلافة العثماني]

الباب السادس

[ما بعد الخلافة الجديدة]

الباب السابع

[عصر الظلام الأخير]

تم بحمـد الله

مـع تحـيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية